الهيئة العامة لقصور الثقافة



إسماعيل فهد إسماعيل

يحدث أمس

رواية

آفاق عربية
سلسلة
147

يحدث أمس

إسماعيل فهد إسماعيل

وزارة الثقافة
الهيئة العامة لقصور الثقافة

سلسلة
آفاق عربية

تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

- يحدث أمس
- إسماعيل فهد إسماعيل

الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة - 2013م
13,5 × 19,5 سم

- تصميم الغلاف:

أحمد اللباد

- رقم الإيداع: ٢٣٥٩٠/ ٢٠١٢/ ٢٠١٣٢٠١٢
- الترقيم الدولي: 978-977-718-165-5
- المراسلات:

باسم / مدير التحرير
على العنوان التالي: 16 أ شارع أمين سامي - قصر العيني
القاهرة - رقم بريدي 11561
ت: 27947891 (داخلي: 180)

- الطباعة والتنفيذ:

شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

147

سلسلة شهرية تعنى بنشر أعمال الأدباء العرب

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة بل تعبر عن رأي وتوجه المؤلف في المقام الأول.

يحدث أمس

الإهداء

في الرواية كما في غيرها جهد آخر

جدير بالتقدير...

إلى.. سوسن

اسماعيل

للعلم..

يحدث أمس... رواية ليست تسجيلية. ولأنها كذلك أجازت لنفسها اختلاق بعض المسمَّيات والوقائع بما يناسب مرونة الزَمن الروائي.

الزمن الفعلي للأحداث عامةَ زمنٌ عظيمٌ لا شك، وليس ببال هذه الرواية أن تسيء إليه.

مؤلفها

الأضواء الأمامية الكاشفة لسيارة الاجرة التي تقلّه تخترق حجب الظلام المهيمن على الطريق الزراعية الموصلة ما بين العشار ، قلب مدينة البصرة ، وقضاء ابي الخصيب . الطريق تخلو من أيّما سيارة أخرى في مثل هذه الساعة المتأخرة من هذا الليل الشتائي .

بخار انفاسهما ـ هو والسائق ـ يتكاثف على الزجاج الأمامي من داخل ، مما يضطر السائق يستعين ـ بين آونة واخرى ـ بخرقة قماش مخصصة .

ـ الليلة باردة!

قال سليمان محاولاً إشراك السائق بالحديث :

ـ فعلاً .

أجابه السائق باقتضاب . بدا وكأنه لا رغبة له بالخوض في حديث ذي تفاصيل .

« ليكن! »

غابات النخيل تترامى حيث لا حصر ، ولا ترى منها ـ خلل الاضواء الكاشفة للسيارة ـ غير جذوعها العملاقة لدى اصطفافها على جانبي الطريق .

يذكر عن طفولته انه كان يسود فراغات كراريسه المدرسية برسومات متنوعة للنخلة . الانسان والنخلة يولدان ـ في البصرة ـ متلازمين ، كما العِشرة والمصير الواحد .

والسيارة تميل جانباً قليلاً لتلتف عابرة الجسر الخشبي العملاق لنهر حمدان تنبجس في ذاكرته صور شجيرات الدفلى المتكاثفة على جانبي الطريق ما بعد الجسر .

احساس رائق بالفرح . شجيرات الدفلى ما فتئت . السنوات السبع التي قضاها بعيداً عن العراق لم تُغيّر معالم الاشياء بعد .

« حميمية الانتماء للمكان! »

من قال انه لم يكن طفلاً!! . . وانه أيام كان . . كانت له عمّة رائعة ، تسكن هناك ، ما وراء زحمة النخيل ، على ضفة نهر حمدان بالذات ، وانه كان يعشق يجيء يزورها أيام الخميس ، ليبيت على الجمعة .

الزمن بمعطياته الخيّرة ، واللا . . صحيح ان العمة ماتت ، لكنه حدث موغل في البعد ، ولا مكان للحزن في مناسبة كهذه .

الطريق سوداء تتلوى بالتفافات متوالية أشبه بالتحدي الذي يتضمن طعم المباغتة ، الدفلى تتكاثف كما لو انها تهم تهاجم ، والنخيل . .

مُذ كان . . وسائقو السيارات يحسبون حساباً لهذا الجزء من طريق أبي الخصيب . سبعة منعطفات حادة ضمن مسافة تقل عن كيلو متر واحد .

« مكان للحلم! »

يدور في باله يُنزل زجاج النافذة ، يستشعر رائحة الدفلى ، لكنه الليل الشتائي ، والسائق المُصرّ يلازم صمته .

« لا بأس! »

رأسه باقية تزدحم بكلمات الاصدقاء لحظة همّ يدلف السيارة .

ـ موعدنا التالي في مقهى هاتف .

ـ الساعة الثامنة مساء غد .

ـ نتجمّع في المقهى ، وبعدها . .

ـ ليلتنا هذه كانت مرتجلة . . الليلة القادمة . .

ـ ايّاك تتأخر!!

بودّه لو كاشفهم :

« شوق الاصدقاء يعدله شوق الأهل . . انما العائلة حق . امه . ابوه . اخوته ، وبالذات اخته الصغرى وقد غادرها وهي ابنة السنتين » .

سبع سنوات من الغربة المنقطعة في الكويت . من يصدّق انه وهو يزمع يشتري هدايا للعائلة . . فرداً فرداً ، فكّر يخصّ اخته الصغرى بثوب لابنة سنتين ، لولا فطنة نجوى التي أصرّت ترافقه مشروع تسوقه هداياه .

ـ تسقط حساب الزمن!

قالت مُبدية دهشة محببة ، وعقّب من جانبه :

ـ ليس عن قصد .

ذاك عمّا هناك ، أمّا عمّا هنا . .

ـ كأنك باق معنا . .

للصداقة طعم الزمن الماثل ما بين الذكرى والحاضر .

ـ . . وكأننا فارقناك أمس!

مع اللقاء ـ طال الفراق أم قصر ـ يتواصل زمن كان ، مع زمن آن ، متأبطاً ذلك الزمن المابين .

ـ النهار من حق العائلة .

ـ والليل لنا .

كلماتهم ـ جملة ـ تزدحم في باله ، وفي باله لو توفرت فرصة ان ترافقه نجوى عودته هذه .

« للحب وقته ايضاً! »

* * *

ـ اين قلت ؟!

سائق التكسي ـ بصوته الجهم ـ يستعيده اليه . يستذكر الكلمات . يستوعبها ، يعيدها سؤالاً مُفسّراً :

ـ تعني الجهة التي أقصدها!!

السائق يغمغم جهماً :

ـ هل هناك سواها ؟!

جهامة السائق لا تلغي الاحساس الرائق بالفرح لدى سليمان . فالزمن الاحتفالي الذي يعايشه بزخم اكبر من ان تكدّره لحظة انفعالية عابرة .

ـ دقائق ، ونصل .

قال هادفاً تطمين السائق ، فبادره الاخير :

ـ نصل ؟!

سؤاله لا يخلو من هامش استفزازي . ولأنه لا يهدف يُستَفَزّ يجيب موضّحاً بلهجة ارادها ودودة هادئة :

ـ المكان الذي اقصده هو قرية باب الهوى .

ـ باب الهوى ؟!

يرددها السائق كما الأحجية المستغلقة . إبتسامة متفهمة ترتسم على فم سليمان ، يعود يوضّح :

ـ قرية صغيرة ملحقة بقرية السبيليات .

الاحجية وقد استغلقت على السائق اكثر :

ـ السبيليات ؟!

التساول الوارد في ذهن سليمان :

ـ أنت لم تعمل على خط ابي الخصيب من قبل ؟!

ـ انا اعمل على خط بصرة عمارة .

تأتي اجابة السائق دالّة على ضيقه ، لدى استطراده :

ـ . . كان احرى بي الآ أتورط بهذه التوصيلة!

سليمان ـ مع نفسه ـ يجد تبريراً .

«له الحق ، مادام غريباً على المنطقة» .

ليفاجأ بما قاله السائق :

ـ إذا سمحت!

كأنه يستأذن ، ومن غير انتظار لتعقيب يعني موافقة سليمان أو رفضه دس يده في جيبه الداخلي ، لينتزع منه قنينة ربعاً . يقرّبها من فمه . ينزع عنها سدادتها ـ الفلين ـ باسنانه . يبصق الفلينة ، لتتدحرج بين قدميه .

« هكذا اذن!! »

تتواتر رائحة العرق المستكي نفّاذة خلل الجو المكتوم داخل السيارة .

ـ في صحة باب هواكم!

الاستفزاز الذي مازال ملازماً صوته يبدو خالياً من حافز السخرية . يقرّب ربعيته من فمه . يكرع منها . يحبس انفاسه مزدرداً طعم العرق اللاذع . يمسح فمه بكم ثوبه ، مع حرصه على استواء وضع الربعية .

« هكذا إذن!! »

* * *

هو والسائق والمنعطفات السبعة .

« ماذا لو ان السيارة . . »

عين على المنعطفات المتباغتة ، والعين الاخرى تراقب ردود الفعل ما بين الربعية واليد الحاملة لها ، بمشاعر هي خليط من التوجس والقلق الى جانب حوافز فضولية نزقة .

ـ تشرب!

الدعوة غير المتوقعة التي صدرت عن السائق تبدو باهتة . ربعيته ـ على حالها ـ باقية عند مستوى فمه .

ـ لا . . شكراً .

لو كان صديقاً من اولئك لاجابه عاتياً :

ـ تدري اني تركت الشرب مُذ كنت هنا!

ولو كان صديقاً لبادر ضاحكاً راداً عتباً :

ـ وما الذي لم تتركه بعد ؟!

وهو معهم قبل ساعة . . وهم يلحّون عليه يشاركهم شربهم احتفالاً

بعودته اليهم ، هل يفهمهم :
«المشروب بحد ذاته ما عدت استسيغه»

ـ تدرون . .

قال مصطفى مستقطباً انتباه الجميع اليه ، واكمل بصيغة من ينطق حكمة :

ـ . . . صاحبكم كان . . أمّا وقد عاش في الكويت كل هذه السنوات . .

الضحك يتعالى .

ـ . . . صار حنبلياً!

ـ واكثر!

لمصطفى حق يقول ما يريد مادام صاحب الدار ، حيث تصادف اللقاء الاحتفالي ولزوجته حق تبدي وجهة نظر منبّهة :

ـ الوقت متأخر . . لا تنسوا مشواره الطويل لبيته!

* * *

ـ ما اسمها ؟!

سؤال مباغت أفلته السائق . سلميان يستغرب . بدا له وكأن الآخر يشاركه أفكاره ، مما دعاه يستوضح بطعم الاندهاش :

ـ من هي ؟!

السائق يستجيب :

ـ القرية التي قلت عنها انها لاحقة لباب هواكم ؟!

اندهاش سليمان يتلون بحافز من سرور . جميل ان يجيء التباسط في الحديث .

«اهو العرق بما له من مفعول فوري!! . . أم انها الصحبة الاجبارية ؟!»

ـ السبيليات .

السائق يبدي رأيه :

ـ اسم غريب!!

فكر يوضّح المعنى ، لكن رغبته الطارئة بمعابثة محدّثه ـ ضمن مناخه الخاص ـ أوحت له يقول :

ـ اسم غريب فعلاً ، انما هو معروف تماماً لدى أهالي مدينتي البصرة والعمارة كافّة .

السائق ـ على محمل الجد ـ يهز رأسه مستغرباً مُردداً :

ـ لم يحصل لي الشرف .

وسليمان ضمن مناخ معابثته يواصل :

ـ في صباح كل يوم جمعة تفد الى السبيليات مجموعة باصات محمّلة بناس من أهالي البصرة أو العمارة قاصدين زيارة ضريح السيد رجب الرفاعي .

السائق يقرّب ربعيته الى فمه . يكرعها ثانية ، ومن غير ان يمسح فمه بكمّه يقول دون حماس مستعيناً بحركة رأسه :

ـ جائز .

استعداد سليمان للمعابثة باق .

ـ السيد رجب وليّ من اولياء الله الصالحين ، مشهور بكرامات عديدة .

ـ جائز .

السيارة تجتاز قرية الصنكر . تقترب من جسر حبّابة . لم يبق عن الوصول سوى القليل . هل يخبّر السائق ، يقول له :

ـ مهمّتك الثقيلة قاربت . .

أم يسمعه ، وهو يحوّل الحديث الى مجرى آخر يتسم بالمكر :

ـ كلهم لهم كرامات ، الاّ صاحبكم . .

يترك جملته معلّقة . سليمان يبدي استغرابه :

ـ صاحبنا ؟!

ـ الرجل القصير .

يصمت برهة قصيرة باحثاًعن تعبير ما ، ليكمل :

ـ . . البخيل ، الذي لا أدري كيف اصطادني من الطريق .

المعنى يصل الى سليمان . تحضره صورة مصطفى وقد تطوع يحضر تكسياً . فمه يستجيب بابتسامة واسعة ، في وقت استطرد فيه محدثه :

ـ . . اقنعني انه مشوار نصف ساعة ، وحين طلبت اجرة دينارين ، اخبرني ان الاجرة المعتادة ربع دينار لا غير .

السيارة تشارف الوصول . سليمان يضطر يبادر ويده تشير :

ـ هناك . . قبالة الدرب الترابية!

ـ وصلنا!

يخفف من سرعة سيارته ، ريثما تتوقف . فكرة طريفة تنبثق في ذهن سليمان .

«لم لا ؟!»

يده على مقبض باب السيارة ، يهم يفتحه .

ـ كم هي الاجرة التي دفعها لك مصطفى ؟

الدهشة تأخذ وجه السائق .

ـ مصطفى ؟!

سليمان يفسّر :

ـ صاحبنا القصير . . البخيل . .

السائق ـ وقد فهم ـ يفلت زفرة .

ـ بعد أخذ ورد . . دفع لي نصف دينار .

الفكرة التي في بال سليمان . .

ـ مادام الأمر هكذا . .

ولم يكمل . دسّ يده في جيبه . ومن جيبه استل دينارين . .

ـ اذا سمحت!

الآخر يبدي إباءً رافضاً ومنتشياً في الوقت ذاته :

ـ ما هذا ؟!

ـ الاجرة التي طلبتها باستحقاق .

سؤال السائق يأتي متردداً :

ـ تعتقد ؟!

إجابة سليمان جازمة :

ـ جداً .

لكن السائق لا يمد يده يأخذ الدينارين . يبدو مُنشغلاً مع نفسه لثوان مفكراً ، ليصدر سؤالاً يبدو طارئاً :

ـ ما اسم الرجل الصالح صاحب المكرمات ؟

سليمان مجارياً :

ـ السيد رجب الرفاعي .

ـ وانت ؟!

«لعله مفعول العرق!! »

ولأن السائق ينتظر اجابة ، اجاب مجاراة :

ـ اسمي سليمان .

السائق يضيف بصيغة سؤال :

ـ رفاعي أيضاً ؟!

المعنى يشمل سليمان . يطلق ضحكة سعيدة .

ـ لا .

يجيب ، ويستثني بمودة صادقة :

ـ . . لكنك تستحق الدينارين فعلاً .

للمرة الثانية ينشغل السائق مع نفسه مفكراً لثوان .

ـ آخذها بشرط . .

قال بلهجة حاسمة ، واضاف ماداً يده الحاملة للربعية على طولها :

ـ . . تشاركني الشرب!

* * *

نمط من التآلف البشري عابر .
« رفقة طريق »
ترتبت عليه استجابة لا هي بالعفوية ، ولا بالمقدّرة .
ـ حقيقة . . انا لا اشرب!
ـ احتفظ بنقودك معك!
ـ لكن . .
وهو يصرّ يرفض مشاركة اصدقائه شربهم اضطر يسلّم ازاء القرار الصارم لسائق التكسي .
« حالة اضطرارية! »

* * *

لدى مساعدته على انزال حقيبته من الصندوق الخلفي للسيارة نوّه السائق بمشاركة :
ـ ثقيلة جداً!
سليمان يوافقه مستسلماً :
ـ فعلاً
مشاركة السائق تتضمن سؤالاً :
ـ بيتك بعيد ؟
ـ إلى حد ما .
تعقيب السائق يجسّد صيغة التمنّي :
ـ لو دربكم تكفي مرور سيارة . .
السائق يُبقي تمنيه معلّقاً ، وتعقيب سليمان . .
ـ « تهون »
يطبق كفّه اليمنى على مقبض الحقيبة . يزيحها ـ بثقلها ـ عن مستوى الأرض . . يوازن جسده . يبدأ خطواته .
ـ باب الهوى . . اسم جميل .

كلمات سائق التكسي تُشايعه ، ولا يدري ما الذي دعاه يجيب دون ان يلتفت :

ـ شكراً .

* * *

سبع سنوات منذ ان فارق والدرب الرابطة ما بين قرية باب الهوي وطريق ابي الخصيب هي هي .

لعلّ السبب يعود الى ان القرية ذاتها تكاد تكون مهجورة اكثر منها مسكونة . بيوتها الآهلة محدودة ، بعد ان اقفر قصرها الكبير المطل على نهر شط العرب من قاطنيه قبل عشرات السنين .

« لكل زمن معطياته! »

عيناه ـ اثر ابتعاد السيارة باضوائها الكاشفة ـ تبدآن تعتادان الظلام . معالم الدرب تبدأ تتوضح . مشاعر من حنين أسيان تتنمل في صدره .

« الطفولة والصبا وارتباطهما بالمكان! »

نقيق ضفدع متوحدة يُسمع في الجوار . يتملكه احساس رائق بالألفة . سبع سنوات لم يسمع خلالها ايما نقيق .

« الكويت بلا ضفادع! »

ضفدع اخرى تستجيب للأولى .

« الليل له أصواته »

وهذا الخدر ـ جراء ثقل حقيبته ـ يبدأ من كفّه ، يسري في ذراعه ، الى كتفه .

« ليس بالسهولة التي . . »

يتوقف . يُنزل الحقيبة . أصابعه ـ وهو يفكّها عن مقبض الحقيبة ـ تبدو متشنّجة . فجأة يداهمه شعور غامض بالتوقع .

« ماذا ؟! »

تندّ عنه التفاتة سريعة الى يمينه . خيّل اليه انه أزاء لهاث بشري . رعدة .

خفيَة تهزّ جسده .

« كيف ؟! »

يحدّق حيث خيّل اليه المصدر . الظلام يتكاثف بين النخيل .

« غير معقول!! »

يُرهف حواسه . . اذنيه بالذات . الضفادع وحدها تنقّ . يزفر اطمئناناً . يناوّب يده الاخرى حمل حقيبته . يواصل سيره .

« الليل له أصواته! »

* * *

الدرب مألوفة اليه ، لولا هاجس التوّقع الطارىء .

« البيت هناك . لا بد من المتابعة »

الدرب مألوفة ، لكن شعوراً قاتماً بالهامشية يبدأ يترسّب في فمه .

« كما النأي في الغربة »

للمرة الثانية ـ خلال ساعات معدودة ـ يعاوده هذا الاحساس الغريب .

« لو نجوى هنا! »

المرةالاولى عندما فوجىء بالبصرة مُزدحمة ـ على غير عادتها ـ بأعداد هائلة من البشر . أنماط جديدة من الناس ، تطرح صيغاً اخرى للتعامل .

« مفاهيم ما بعد الثورة . . »

لدى تعليله ظاهرة التغيّر قال له مصطفى وقتها :

ـ حالك أشبه بحال أهل الكهف . .

واضاف مفسّراً :

ـ . . لأنك قضيت كل هذه السنوات مُنقطعاً هناك . الاوضاع تغيرت عمّا كانت عليه أيامك .

يعرف ان الاوضاع ما عادت مثلما كانت عام ٥٣ حين غادر ، ويعرف ان الثورة التي اطاحت بالحكم الملكي مازالت تتمخض عن تواترات متسارعة عميقة متوقعة أو غير . .

« سنّة التغيّر »

بيد انه لا يجد ـ ضمن جدله الداخلي ـ تفسيراً منطقياً أو غير منطقي لهذا الاحساس المتكرس بالنأي تجاه الاشياء التي اعتادها .

« لعلّه أنا! »

أيام كان في الكويت ، وفي اللحظات التي يمضّه فيها الحنين الى الوطن ، تحضره ـ دون غيرها ـ صورة هذا الدرب ، لتحتلّ بانطباع حاد ذاكرته كلها .

صباح خريفي مبكّر . السماء مزحومة بغيوم رمادية . الجداول الصغيرة المتشعبة على الجانبين تمتلىء حتى آخرها بمياه المد . سعف النخيل يتجاوب مع هبوب الريح ، وفي اللحظة يزخّ المطر .

ـ ذكرى جميلة أشبه بلوحة تأثيرية .

ذاك ما عقّبت به نجوى عندما كاشفها حالة حنينه تلك .

ـ ربما .

وافقها كلامها وقتها واستثنى :

ـ إنما . . وأنا أبحث عن نفسي وسط تلك اللوحة أجدني ـ في كل مرّة ـ طفلاً في السادسة ، وحيداً ، أعاني من قلق متنام يمازجه خوف مبهم . حاملاً حقيبة مدرسية خالية من الكتب ، متابعاً طريقي باتجاه المدرسة الابتدائية الكائنة في قرية مجاورة ، كي أنتظم طالباً للمرة الأولى في حياتي .

نجوى قالت :

ـ لعل ارتباط الحنين بالصورة عائد الى انك وحدك كنتَ مضطراً تواجه شيئاً مجهولاً لك . . المدرسة .

ومن جانبه وافقها :

ـ ربما .

وما كان الظرف يقتضي يخبّرها :

ـ القرية المجاورة بصفتها المعنية بالمدرسة هي قرية السبيليات .

ولا اقتضاه يضيف :

ـ . . في المدرسة . . عانيت يومها من جوع شديد . لم آسف لأني كنت رفضت أتناول افطاراً اعدّته أمي لي . ابن السادسة لا يعي معنى الأسف ، لكني وانا أدلفُ البيت ظهراً ركضتُ إلى المطبخ . طعام الغداء لم يكن قد . . فسارعت الى مخزون التمر . .

قبل أشهر ـ الكويت ـ وصلته واحدة من الرسائل التي يكتبها اخوه على لسان ابيه ، من بين ما ورد في الرسالة :

ـ . . المؤسسة العامة للتمور استأجرت المباني الملحقة بالقصر ـ كاصطبلات خيول أيام الباشا ـ لتحوّلها الى مخازن للتمور . ابوه انتهز الفرصة . تقدّم بطلب عمل . المؤسسة قبلته حارساً .

« لكل زمن معطياته »

* * *

ذراعه اليسرى تكاد تنشلّ . الخدر يمتد حتى الكتف ، ليطبق على الرقبة .

« هذه الحقيبة! »

يجزم انها ازدادت ثقلاً على ثقلها السابق . يتوقف . يضع حقيبته على الارض . يرخي اصابعه المتشنجة على مقبضها .

« هم بانتظاري! »

اللهفة المستعادة تتجاوز معاناته تعبه .

« حتى لو ناموا . . المفتاح الاحتياطي لباب البيت معي . افتح الباب بهدوء . ادخل . وفي الصباح يجدونني بينهم . ستكون مفاجأة . . »

ولا يكمل . الشعور الغامض بالتوقع يداهمه ثانية .

« غير معقول!! »

تندّ عنه التفاتة مُباغتة ناحية اليمين . أحسّ كما لو أن هناك من يترصده . عيناه كانتا اعتادتا الظلام اكثر . يحدّق .

« لا شيء! »

لا دلالة . جذوع النخيل تتراصَ ، والاشجار المبثوثة بينها تخالطها ظلالها .

«الضفادع ما عادت تنق؛ »

يُرهف اذنيه . لانأمة ، ولا ما يؤكد له شعور الترصد . أهي الحساسية المترتبة على سنواته في الكويت . . حيث لا غابات نخيل ولا منعطفات لدروب زراعية ؟! . . يناوب يده الاخرى حمل حقيبته .

«لم يبق الكثير عن البيت؛ »

* * *

يتناهى الى سمعه نباح كلاب .

«المأهول يقترب؛ »

خطواته من غير قصدية مدركة تبدأ تتسارع .

«لم يبق سوى القليل؛ »

حال وصوله المنعطف الذي يلي سيتبدى له المعبر الوحيد لباب الهوى . . الدروازة .

في الكويت عدد كاف من الدروازات . بوابات خشبية عملاقة . يمكن ان يقال عنها أثرية . قُصد بها تكون مداخل للسور الذي احيطت به الكويت العاصمة يوماً ما .

الدروازات التي هناك لها اسماء أعلام تسمى بها ، امّا الدروازة هنا فهي اسم عَلَم قائم بذاته من خلال ارتباطه بأل التعريف . مُذ دَرَجَ سليمان واهالي باب الهوى والقرى المجاورة يُجمعون على هذه التسمية .

الدرب الزراعية الضيّقة التي تبدو وكأنّها تندسّ عنوة وسط غابات النخيل تنفتح فجأة - بعد المنعطف التالي - على مساحة من الارض الفضاء خالية من الاشجار ، ينتصفها سور طيني متهدم ، له ممر بعرض ثلاثة امتار ، وعلى الجانبين من الممر انتصبت بقايا متآكلة لبرجين أثريين بُنياً بالآجر المحروق .

من بين ما ذكره سليمان عن ايام طفولته انه وهو يحاول - مع رفقة له -

تسلّق احد البرجين لمحه ابوه .

ـ انزل!

أبوه صرخ به .

ـ أنا العب!

اجاب مبرراً ، فكان الرد :

ـ مثل هذا اللعب عيب!

ويذكر عن صباه انه لدى اجتيازه الممر في احدى المرات ـ بصحبة أبيه ـ حدّثه أبوه بنبرة اسيانة :

ـ هذان البرجان اللذان يبدوان حقيرين الآن كانا يوماً ما عامرين ، معززين بحراسة الرجال على مدار الساعة .

يشمله أساه اكثر .

ـ . . كنت واحداً من الذين تناوبوا الحراسة هنا .

أبوه ، بعد ان التحق بخدمة الباشا شاباً ليعمل على حراسة الدروازة ، عاد ـ مع شيخوخته ـ يلتحق حارساً لتمور مخزّنة في مبان كانت اسطبلات لخيول الباشا .

* * *

المنعطف . وها هي الدروازة على خطوات .

«اخيراً!»

تنفّس بارتياح . الرؤية ـ بسبب انفتاح رقعة الارض الخالية من الاشجار ـ اكثر وضوحاً . إحساس غني بالفرح . ما ان يجتاز الممر . . باب الهوى .

«انّى للأسماء المجرّدة كل هذه القدرة على حشد المشاعر ؟!»

ينسى ثقل حقيبته . السور الطيني لم يتغير . البرجان المثلومان . .

«يطاولان الذاكرة!»

يُلقيان ظلهما الكثيف على فسحة الممر .

«الاشياء على حالها ، كأن السبع سنوات لم . .»

دقائق قليلة ويكون في البيت ، لولا هاجس الترصّد وقد عاد يداهمه بأقوى مما حدث في المرتين السابقتين .

« مستحيل!! »

ردد مع نفسه بتصميم . قرر الآ يتوقف يحدّق النظر يميناً ، وفي اللحظة التي قارب فيها انتصاف الممر خيل اليه ان الظل المترتب عن أحد البرجين ينفصل عن البرج ذاته ، ليتمخض عن شبح رجل .

« معنى هذا . . »

وما أتمّ مكاشفته نفسه .

ـ قف!!

صرخة مكتومة ومقطوعة تنفذ إلى أذنيه ، وعند الفرجة الكائنة بين عينيه واجهته فوهة مدفع رشاش .

٢

معروف عن نـهر شط العرب انه يتكـون من التقاء نـهري دجلة والفرات في منـطقـة القرنـة شمال الـبصـرة ، ليتـخذ لنفسـه مجراه ، نـازلاً جنوبـاً ، من اقصى مدينة البصرة حتى اقصاها ، ريثما يصل الفاو ، حيث يصب في الخليج العربي .

معروف ايضاً ان شط العرب ـ وبسبب الطبيعة السهلية الرسوبية للارض ـ يتأثر بظاهـرة المد والجزر الناجمة عن الخليج العربي ، مما حدا بـأهالي البصرة ـ منذ فجرها ـ يـوظفون ظاهرة تصـريف الـمياه هذه بهدف تـوسيع رقـعة الارض الزراعية على جانبي الـشط ، فكان ان لجأوا الى شق الترع الكبيرة لتمتـد حتى حدود الصحراء ، وعن التـرع الكبيرة شقوا ترعاً اصغر ، فأصغر ، مستغلين كل شبر من أرضهم الرسوبية ، لتتكون لديهم شبكة هائلة من نظام الري العفوي ، لدرجة يبـدو معها شـط العرب ـ بالاف التـرع والـجداول الـمترتـبة عليه ـ اشبه بالدورة الدموية للجسم .

ولأن النـخلة ـ بـالذات ـ عـرفـت كيف تـتآلف مع ارض البـصرة ومنـاخها منذ فجرها ايضاً ، فقد ارتـبطـت النخلة بالنـاس والـنـاس بالنخلة كما اللحمـة العائلية ، لتتحول الاراضي الكائنة على جانبي الشط الى غابات نخيل مشتبكة السعف ، متداخلة ، تكاد تضاهي بكثافتها ايما غابة استوائية .

* * *

وهو يواصـل طريقه باتـجاه مصبه ، وفي مكان يقرب من منتصف المسافة

بين القرنة والفاو ، ينعطف شط العرب انعطافاً حاداً ناحية اليسار ، ليعود بعد حوالي كيلو مترين اثنين ينعطف يميناً ، مما يسمح بتشكهل مساحة من الارض على هيأة لسان عريض ، يبدو وكأنه يعترض مجرى شط العرب ذاته .

فاذا تعاملنا مع غابات النخيل باعتبارها مصداً مقصوداً او غير مقصود للرياح الشمالية أو الشرقية ، فان هذا اللسان ـ بسبب بروزه داخل الشط ـ يصبح عرضة لتلقي اولى نسمات الرياح ، شماليها وشرقيها ، لدى انطلاقها الحر فوق الشط ، بصفته مسطحاً مائياً عريضاً . . من هنا جاءت تسمية « باب الهوى » .

بناءً عليه . . حين وقع اختيار الباشا السيد هاشم النقيب على هذا المكان ، وكان ذلك في مطلع هذا القرن ، كي يبتني قصره الكبير ، اختاره لسببين :

الاول : موقعه الاستراتيجي المتحكم بالممر المائي الرابط بين الخليج من جهة ، والبصرة كميناء وحيد للعراق من جهة اخرى .

الثاني : استواء مناخه صيفاً ، مقارنة مع القرى المجاورة . اذ ان الرياح وهي تهب عليه ، تهب ندية ، طرية ، جراء ملامستها سطح الماء الواسع ، خلال متابعتها مسراها باتجاه الجنوب أو الغرب .

* * *

عندما فكر الباشا يبني قصره كان العراق ما يزال تابعاً مباشرة للحكم العثماني بصيغته الاقطاعية الخاصة به آنذاك .

ولأن الباشا واحد من كبار ملاكي الاراضي ايامها ، ولأن مكانته ـ بما يعنيه اللقب ـ تؤهله اميراً اقطاعياً متنفذاً ، صار لزاماً عليه يراعي مستلزمات قصره ، ليس كسكن حسب ، وانما كمركز نفوذ ايضاً . فكان ان بنيت قرية باب الهوى في ظل قصرها ، لسكنى العبيد والخدم والاتباع ، الى جانب مخازن للعتاد ، وعدد وافر من اصطبلات الخيول ، ليحاط كل ذلك ـ توخياً للحذر جراء الحبل الفالت للأمن ايام العثمانيين ـ بسور طيني متين ، ذي ارتفاع

كاف ، بني على هيأة حدوة حصان عملاقة ، ينتهي طرفاها عند الشط ، لها ـ ناحية البر ـ فتحة واحدة ، معززة ببرجي حراسة ، وبوابة ضخمة . الدروازة .

* * *

سليمان . . وفي اللحظة التي هم يعبر الدروازة . .

ـ قف !!

الشبح الرجل والمدفع الرشاش بمواجهته . الصرخة المكتومة تند عن التهديد في صيغته القصوى .

ـ ماذا ؟!

سؤال دفاعي سلبي عفو الخاطر . ذهنه عاجز عن استيعاب الحدث .

ـ من انت ؟!

وبرد فعل غريزي تراجع خطوة الى وراء ، ليباغت بجسم حاد صلب يلكزه بقوة في ظهره . اسفل عموده الفقري .

ـ لا تتحرك!!

صوت مكتوم آخر يتوعده عند اذنه .

« عملية منظمة!! »

الفكرة التي تعبر الذهن :

« كنت مرصوداً فعلاً!! »

والفكرة المترتبة عليها :

« هناك خطأ ما!! »

يدري ان طبيعة الاوضاع الامنية هنا تختلف عما كانت عليه .

« للثورة ظروفها! »

لكنه وافد تواً . دخل العراق منذ ساعات لا غير . مفروض به يوضح . يجمع شتات افكاره . يقول بصوت اراده يكون متماسكاً :

ـ انا . . اذا سمحتم . .

لتنبتر جملته . الجسم الصلب الملامس لظهره يباغته ، يلكزه كما الركلة العنيفة .

ـ آي !!

صرخة لا ارادية تند عنه . الالم الناجم يفوق الاحتمال .

ـ انا . . لم . .

لتأتي اللكزة اللاحقة أشد .

ـ اخرس!!

« ما الذي جنيته ؟! »

دموع الألم تطفر من عينيه .

« مفروض بي تحت تصرفهم ، ريثما تتضح لهم امورهم! »

الجسم الصلب يلكزه ، في المكان ذاته ، بتوال عات ، يطبق فكيه بقوة ، مطلوب للصرخة تظل حبيسة الحنجرة .

ـ ارفع يديك!

اوامرهم تتوالى بتسارع يكاد يعجز عن متابعته قصد استيعابه . يتذكر ان احدى يديه باقية تحمل حقيبته .

ـ ارفع . .

ـ ها . .

يصرخ من خلال الحقد الذي يكبس عليه صدره . يفلت حقيبته . الاخيرة تنقلب ارضاً . يبادر يرفع يديه .

« اللعنة!! »

اللكز يزداد حدة ، والاوامر :

ـ لا تتحرك!!

« انا لم . . »

والسؤال العاجز :

« ما الذي يبغونه بالضبط ؟! »

يهوّم في ذهنه المشدوه . تعاملهم ـ بما فيه من قسوة ـ يشي بعقدهم . هم لا يعرفونه .

«لماذا اذن ؟!»

اللحظة الواحدة تبدو وكأنها الدهر كله ، وفي اللحظة يواجهه ضوء اصفر حاد ، ينفذ الى عينيه ، يلغي قدرتهما على الابصار .

* * *

للزمن والمشاعر حسابات اخرى . للرجولة والمهانة حساباتهما الاخرى أيضاً . للمواطنة والهوية كانتماء لمكان تحدده خارطة . .

«هناك لبس ما . . لا بد!»

عيناه ، رويداً رويداً ، بدأتا تعتادان ضوء المصباح اليدوي الكشاف .

«من هما ؟!»

الموقف يتكشف عن شابين مدججين ببندقيتي رشاش . مظهرهما لايدل على عسكريتهما ، لكن السلاح الذي يتعاملان به عسكري .

ـ استلق ووجهك الى الارض!

احدهما يأمر ، والثاني يؤكد :

ـ بسرعة!

الامر واضح . هل يستجيب على الفور تحاشياً لمضاعفات غير متوقعة ؟! . . أم يلاحق فكرة أخذت تلح عليه :

« هم غرباء على المنطقة ، اوضح لهم من أكون فينتهي اللبس »

أوامرهم الصارمة :

ـ استلق ارضاً!!

من حقه يسمعوه .

ـ انا من اهالي باب الهوى . . كنت مسافراً . .

يده ـ بوازع عفوي ـ تتحرك . تشير باتجاه ما وراء الدروازة ، لدى استطراده :

ـ . . بيتي . .
لتقاطعه صرخة فزعة ومأخوذة في الوقت ذاته :
ـ ارفع يديك!!
الصرخة ـ ضمن تواترها ـ تدل على شروع بالتنفيذ . اغمض سليمان عينيه كمن يستعد يتلقى طلقات الرصاص .
« ليكن!! »
ردد مع نفسه بتسليم تائه ، في اللحظة التي ارتجت فيها ركبتاه . ساقاه تتقوسان ، ما عادتا تقويان تحملانه .
« انا . . كيف ؟! »

* * *

ممدد بطول جسده . وجهه الى الارض
« رشاشهم لم ينطلق! »
أيا كان شكل المهانة التي يتعرض لها هو قادر يتحملها مادامت خارج ارادته . . مفروضة عليه . . أمّا ان تجينه منه . .
« من يصدق ؟! »
طوال سنوات عمره لم يطرأ له انه وجسده كيانان منفصلان ، اعتاد لجسده يكون بأمرته ، ريثما واجه احتمال الموت لتأتيه الخيانة من ركبتيه .
ـ فتّشه!
احدهما يأمر الاخر .
« ما الذي سيجدونه ؟! »
منكفىء على وجهه . الضوء الاصفر يغمره كله . الآخر ينحني عليه .
« لو اعرف ما يريدونه!! »
كفّان عدائيتان تجوسان جسده . للرجولة حساباتها الاخرى . للمواطنة والهوية . .
ـ لا يحمل سلاحاً .

الآخر يخبّر ، فيعاوده الاول :
ـ فتّش له جيوبه!
منكفىء ، والصيغة الزاجرة :
ـ انقلب على قفاك!
« يحتقروني وهم لا يعرفوني!! »
هذا الشعور الكريه بالدونية .
ـ انقلب بسرعة!
جسم صلب يركله اسفل ظهره .
«اهو حذاء ؟!»

* * *

الأمر الأكيد لديه ان ما يتعرض له ليس مهمة أمنية روتينية .
« مراكز التفتيش محددة معروفة »
المكان . الوقت . اضافة الى ان الشابين ـ رغم صلافتهما والقسوة المترتبة على سلوكهما ـ بقيا يرتجلان اجراءاتهما ، مما يثبت عدم احترافهما مهنتهما .
« مطلوب قدرة كافية من التحمل! »
كان بامكانهما يفتشانه بالدقة الامنية المطلوبة دون ان يمرغاه بالتراب . هل جرى افتراضه مجرماً خطيراً ؟! . . أم عدواً من اعداء الثورة ؟!
« لا بد من الصبر! »
يقفان غير بعيد عنه . ينشغلان يدققان محفظته وجواز سفره ، مستعينين بمصباحهما اليدوي ذاته .
« ماذا عني ؟! »
شعوره بالمهانة يتكدس في صدره اكثر . يؤلمه يترك هكذا ملقى على ظهره ، في الوقت الذي تُتداول فيه اوراقه . هل يسألهما :
ـ مسموح لي انهض!

ويخشى لو فعل يواجه بمهانة اخرى متوقعة .
ـ ماهذا ؟!
احدهما يسأله . يحدق الى اليد الحاملة للشيء ، فلا يرى .
«بماذا يجيب ؟!»
ضوؤهما عندهما . واقفان . وهو بمستوى ارضي .
ـ لا ادري!
يجيب بحيرة ، ويكمل :
ـ . لا ارى!
ليتطوع احدهما موضحاً بسخرية تنز حقداً :
ـ ما هذا الذي في محفظتك ؟
يبذل جهده يستجمع افكاره .
ـ نقود على ما اعتقد .
السخرية الحاقدة باقية ، مشوبة باستغراب مفتعل :
ـ نقود . . بهذه الكثرة ؟!
سليمان لا يفهم ما المراد منه ، اضافة الى انه يُستجوب وهو ملقى في التراب على ظهره .
ـ ليست كثيرة ، إنما . .
لا يجد الكلمة المناسبة ، فيواجه بسؤال :
ـ إنما . . ماذا ؟!
الكلمة التي يراها مناسبة :
ـ متنوعة .
الآخر يستغرب منه اجابته :
ـ متنوعة ؟!
مسؤول يوضح اكثر .
ـ مجموع المبلغ ليس كبيراً .

ملقى في التراب مازال . حسابات مثل هذه الصدفة لم تكن طرأت له على بال . الشابان ينشغلان يتبادلان همسهما .

«حتى متى ؟!»

كأنهما ازاء موضوع خطير فعلاً ، طبيعة الحالة الصدفة ، وما قد يترتب عليها من سوء فهم آخر يضطره يواصل موضحاً :

ـ انا منذ سبع سنوات مغترب في الكويت . . طوال هذه المدة لم ادخل العراق . . عصر اليوم فقط دخلت عن طريق صفوان .

الشابان يبدوان غير منتبهين لما قاله . كانا منشغلين يتداولان محفظته . مسؤول يختصر عليهما جهدهما .

ـ جواز سفري معكما ، بامكانكما التأكد من صحة كلامي .

ـ . . .

الشابان يبدوان غير منتبهين . .

ـ . . انا اعمل موظفاً في احدى الشركات الكويتية ، وهذه النقود ليست سوى . . ليقاطعه احدهما بسؤال يتضمن صيغة اتهام قطعي :

ـ من هي الجهة التي سلمتك هذه النقود الاجنبية ؟!

«اجنبية ؟!»

سؤال مفجوع مشبع بقلق غامض يستحوذ على ذهنه .

«الامور لن تتوقف عند حدودها الاعتيادية!!»

واجابته الجاهزة على سؤالهما :

ـ هذه النقود لي .

ولأنهما لم يعقبا مباشرة أكمل :

ـ . . مرتبي الشهري كموظف في الكويت . .

صوته ، كما خُيّل اليه ، غريب على اذنيه . بدا وكأنه يحاول اثبات صدق ادعائه لنفسه . وهما لم يعنيا . . لم يسمعا . . لم . .

ـ . . لو سمعتم!

ردد راجياً لفت اهتمامهما ، لولا ان بادره احدهما زاجراً :

ـ افتح حقيبتك!

* * *

احساسه بمهانته تجاه نفسه يعود ينتابه .

« ما عهدتني بهذا الاضطراب! »

في البدء ـ امتثالاً لأمر فتح الحقيبة ـ سُمح له بالنهوض عن الارض . جسده كله معفر بالتراب . هل يتجرأ يسأل :

ـ انفض التراب!

السؤال ـ مهما كان ـ مهانة .

ـ ماذا تفعل ؟!

صرخ به احدهما متوعداً ، فجاءت اجابته مغلوبة على امرها :

ـ ابحث عن مفتاح الحقيبة .

تعقيبهما يؤكد شكهما :

ـ حقيبة بمفاتيح واقفال!

الرد ، من جانبه ، غير وارد .

« اللعنة!! »

ملابسه بعدد لا يحصى من الجيوب . اضطرابه . رعشة يديه . المفتاح دقيق . ما خطر له . . وهذان الشابان الطارنان لا يمهلانه فرصة يركز افكاره .

ـ ان لم تجد مفتاحك . .

الصوت الزاجر يتوعده ، في اللحظة التي . .

ـ وجدته .

شعور هامشي باخلاء الطرف .

« لعلهما يخففان من عدائهما! »

بيته على مسمع الصوت . اهله يتوقعون وصوله ، ينتظرونه . ماذا لو

استبطأوه . .

فخرج ابوه . . او اخوه بحثاً عنه ؟!

« لو . . شأن ثان »

يقعي عند حقيبته . ضوء مصباحهما اليدوي يغمره .

ـ افتحها بسرعة!

لماذا . . ابوه أو اخوه لم يحسبا حساب تأخره ، فيبادرا . . . الشعور بالمرارة بحجم الشعور بالتخلي . وهذان الشابان لا يمهلانه . هل يخبرهما :

ـ كل الذي تحويه الحقيبة ملابس شخصية وهدايا عائلية . .

يشرع غطاء حقيبته . محتوياتها المنضغطة تندفع الى اعلى . نجوى ـ وهي تساعده ـ تعد حقيبته قالت منبهة :

ـ احرى بك تأتي بحقيبة اكبر!

افلت ضحكة مستغربة .

ـ اكبر من هذه ؟!

لحظتها كان مايزال في الكويت ، وما كان ليرد في باله . .

ـ افرغ محتويات الحقيبة!

ـ بسرعة!

يتواليان زجره .

ـ افرغها كلها!

« كما هاجس الاذلال المقصود! »

حين فتشوا له حقيبته في مركز حدود صفوان لم يلزموه :

« على الارض »

اكتفوا سألوه :

ـ وجهتك الى اين ؟!

ـ البصرة . . عند اهلي .

القوا نظرة سريعة على محتويات الحقيبة .

ـ اقفل حقيبتك .

اما هؤلاء :

ـ ما هذا ؟!

يستعينون بتحديد السؤال عن الشيء المعني بتحريك مسقط الضوء .

ـ جهاز تسجيل .

تصدر عن احدهما غمغمة ذات مغزى ، مما يدعوه يضيف :

ـ . . . هدية لأهلي .

محاط بمحتويات حقيبته . حتى لو تركاه لحال سبيله :

« اكمل طريقك »

فهذا الشعور الحاد بالمهانة المقصودة ، واحتياجه الذاتي لفسحة كافية من الوقت يستعيد فيها توازنه الداخلي ، كي يعود مؤهلاً قادراً يلاقي أهله باللهفة والعفوية التي كان عليها قبل اعتراضهما طريقه .

ـ وهذا ؟!

سقط الضوء يتحرك الى يساره .

ـ راديو ترانزستور .

الغمغمة ذات المغزى الخاص تتواصل .

« ما الغريب في الأمر ؟! »

ـ وهذا ؟!

الضوء ينتقل الى يمينه .

ـ كاميرا .

الاشياء بمسمياتها .

ـ وهذا ؟!

« لو اعرف هدفهما من اسئلتهما!! »

يعودان يتبادلان همسهما بينهما . اشياؤه مبعثرة حوله . يتملكه احساس بالعطالة يتركز في يديه . يجمع اشياءه . . أم ينتظر يتلقى امراً ما ؟!

ـ ما هي وجهتك ؟!

للمرة الاولى يواجه بسؤال منطقي . لعل الامور بدأت تتضح . ان كانا يظنان حقيبته مدججة بالسلاح . . او ممنوعات اخرى . .

ـ وجهتك . . الى اين ؟

اراد لاجابته تكون واضحة مختصرة :

ـ بيتي .

ليأتيه رد فعل احدهما بصيغة تساؤل تقريري يتضمن حالة شك :

ـ بعد منتصف الليل!!

ذهوله يشمله . ما كان في باله ان العودة الى البيت مشروطة بساعة معينة .

ـ هناك مانع ؟!

تساءل بضعف ، ولأنهما عادا يتبادلان همسهما ، استطرد كمن يبدي رأياً :

ـ معروف ان الوقت الذي فرض فيه منع التجول . .

لكن مقاطعة احدهما له يسأله :

ـ وما الذي تفعله بكل هذه الاجهزة ؟!

ولّدت لديه احساساً قاتماً بالضياع والحيرة . سؤالهما يتضمن صيغة اتهام قطعي .

« كيف يفكرون ؟! »

ردد مع نفسه بذهول لا حدّ له ، قبل ان يتوجه اليهما بسؤال مخذول :

ـ أية أجهزة ؟!

* * *

بيته على مسمع الصوت .

ـ اعد اشياءك داخل حقيبتك!

ضوء مصباحهما اليدوي يتسلط في عينيه .

ـ اسرع!

صيغتهما الآمرة المتضمنة حقدهما لا تؤكد :

« اجراءاتنا انتهت »

يبذل جهده يستجمع ارادته .

ـ ان كان على الاجهزة . .

ضؤوهما يتهدده في عينيه .

ـ نفّذ الاوامر!!

لو يُمنح فرصة يستوضح :

ـ اذا سمحتما لي . .

ـ لا تجادل!

لهجته تنحو الى التوسل :

ـ انا متأكد . . هناك سوء فهم . .

صبرهما ، كما يبدو ، وصل حدّه . احدهما يعد سلاحه .

ـ اقفل حقيبتك!

خُيّل لسليمان ان اصبع احدهما مهيأة تضغط الزناد ، استعداد داخلي لتلقي رشقة رصاص .

اشياؤه مبعثرة حوله . جزعه يهيمن عليه . أذناه مرهفتان ناحية المدفع الرشاش . اللحظة المشبعة هلعاً تمر . يداه تعملان على تكديس الاشياء داخل الحقيبة . من يضمن له انهما لن يتهورا . الليل وهذا الانقطاع ، وحده معهما . أن تمر بخبرة معاناة مواجهة لحظة الموت . .

« الحال في الكويت تختلف! »

يغتنم فرصة اقفاله حقيبته .

ـ انا غائب عن العراق منذ سبع سنوات ، اليوم فقط . .

فيجابه بالرد :

ـ إخرس!

يتأكد لديه انهما لا يعنيان بسماع ما يقول .

ـ احمل حقيبتك!

صوته على مشارف انهياره :

ـ بامكانكما التأكد . . جواز سفري بحوزتكما!

البندقية الرشاش بحركة استعداد اخرى . اللحظة المغفلة لا تجيء مرتين .

ـ تعال معنا!

« ماذا عن اهله الباقين بانتظاره ؟! »

ـ الى اين ؟!

فوهة البندقية الرشاش تكاد تلامسه .

ـ امش امامنا!

* * *

يسوقانه .

ـ اسرع!

الدروازة تبتعد ، لو انه لم يتأخر لمثل هذه الساعة! . . بيته يبتعد ، لو انه بات ليلته في بيت مصطفى! . . الدرب التي قطعها قادماً يعود يقطعها مُساقاً ، لو انه انتزع فكرة عودته الى العراق من ذهنه ، بالمرة! . . اصدقاؤه احتفلوا بعودته على طريقتهم ، وهؤلاء . .

ـ . . امامنا!

« مفروض باهله يقلقهم تأخره . لماذا لم . . »

أهي الاوضاع ، المترتبة على الثورة ، باجراءاتها المستجدة ؟! . . أم انه التغير وقد طال النفوس ؟!

ـ اين تقف السيارة الجيب ؟

احدهما يسأل الآخر ، والآخر يجيب :

ـ غير بعيد عن الطريق العام .

من حقه يعرف الى اين يأخذانه ، لكن مجازفة ان يسأل ، وفوهة البندقية

تلكزه :

ـ اخرس!

الطريق التي قطعها قادماً يعود مساقاً . سيركبونه سيارتهم الجيب . سيأخذونه الى مكان ما . الحقيبة بثقل متزايد ، والالم . . هل يخطر له يسأل :

ـ نتوقف! . . اريح ذراعي لثوان!

السؤال في مثل حالهما مذلة .

ـ اسرع اكثر!

المشي اقرب الى الهرولة .

«لديهما ما يخشيانه!»

ما عادا يضيئان مصباحهما اياه . الطريق الزراعية تتواصل . ضفدع ما تبدأ تنق عن بعد . صدى الصوت المكتوم ، وهذا الشعور بالانفصال . خُيّل اليه انه واقع تحت تأثير حلم كابوسي عات يرقى حتى مستوى الحس .

« فاستيقظ! »

الخيال الامنية يلتحم بالواقع . المهانة مصادفة . هذان الشابان مصادفة . الليل وطريقهم الزراعية . ضجيج الاصدقاء في بيت مصطفى . جواز سفره . سائق التكسي . .

ـ اين السيارة الجيب ؟!

احدهما يسأل الآخر بنفاد صبر ، فيطمئنه الآخر :

ـ قاربنا نصل .

يحسهما منفصلين عنه ، بعيدين .

« لهذا الزمن او ذاك معطياته الخاصة به »

ـ اسرع!

الحقيبة . وقدماه تتلاحقان . ضفدع ما ثانية تنق ، تلحقها اخرى ثالثة ، فرابعة . الاستجابات ، مع تواليها ، نوع من الصدى الرجعي . تبدو الحياة وكأنها تدب في الخلفية من الجوار . . البارحة كان في الكويت .

٣

ما بين الاغفاءة والصحو لحظات خليط ، يتداخل فيها زمن النوم بزمن اليقظة ، لتتأتّى عنهما حالة من الحضور المعلّق .

في هذه اللحظات المابين يجهد الوعي يشمل الجسد الحاوي له ، فان فعل ، حاول تحديد الزمان والمكان والحالة من خلال استدعاء مكونات الزمن الماقبل .

« كيف ؟! »

سؤال تعجيزي يشمل ذهن سليمان كله .

« هو الحلم! »

كان يصارع مياه شط العرب . يسبح منذ أمد لا أول له . المياه نوع من الجيلاتين الثقيل .

« من اين جاء ؟! »

اصدقاؤه يصطفون واقفين على الساحل المقابل ينظرون اليه دون ان يروه . نجوى هناك ، تقف من ورائهم .

« نجوى!! »

صرخته تظل حبيسة حنجرته . النهار لا لون له . الضفة ليست بعيدة .

« مصطفى!! »

الالم الحاد ينشب فيه من رقبته . المياه الجيلاتينية . .

« يجب!! »
يستجمع قواه الخائرة . ارادته لا بد . . يضرب بامتداد ذراعه .
« آآآ!!! »
ضربته تصادف جسماً صلداً . الالم الناجم عن الضربة المرتدة ليده يتغلغل في وعيه . يحفزه .
« هو الصحو! »

* * *

« اين انا ؟! »
سؤال محيّر يشمله وهو يجهد يفتح عينيه . عتمة كثيفة تحيط به . انفه يتنفس هواء رطباً راكداً .
« ما المكان ؟! »
الارض من تحته حجرية صلبة ، عارية وباردة في الوقت نفسه .
ـ كنت تحلم .
صوت بشري لرجل يجلس قبالته يصله من خلل العتمة الكثيفة ، ويضيف كمن يهدف يطمئنه :
ـ . . . وكنت تئن وانت تحلم .
سليمان يردد مع نفسه مأخوذاً :
ـ انا احلم!
الرجل يتساءل بنوع من المشاركة :
ـ هل تتألم ؟!
سليمان ـ ضمن حالته البينية ـ لا يكاد يسمع ما قيل له . كان يحتاج يستجمع حالته . هو ما يزال يلهث جراء اصطراعه سباحته المستحيلة .
« هو المكان!! »
ذراعه ـ جراء اندماجه الجسدي بالحلم ـ صدمت القضبان الحديدية للباب الكائن عنده .

« . . المكان!! »

الالم المتمركز في رقبته وكتفيه نتج عن انكفاء رأسه على صدره اثناء نومه :

« من اين ؟! »

يعدّل وضعه . يتحسس رقبته . وخزة حارقة تنبعث من مؤخرة رأسه .

« . . اين ؟! »

ان كان على الظواهر العضوية فهو يقدر يربطها بتفاصيلها ، كموقف مدرك أو غير . . ليس مهماً ، انما . .

« كيف هنا ؟! »

الحيرة التي تشمله تتحول الى شعور مهيمن بالفجيعة على اثر الحضور الكلي للحدث في ذاكرته .

« المسؤولية المتواترة!! »

رحلة كويت بصرة . الاصدقاء . الاحتفاء . صاحبكم كان . . سيارة الاجرة . في صحة باب هواكم . . الحقيبة . الدرب الزراعية . هاجس الترصد . الدروازة . قف . ارفع . امش . .

ويبقى السؤال المحيّر :

« انما . . كيف هنا ؟! »

يتوهج بمواجهته ضوء راعش . عود ثقاب . عتمة المكان تتكشف عن حجرة واسعة عارية الجدران ، معززة بباب ذي قضبان حديدية متصالبة .

« غرفة اعتقال!! »

عند الاركان تبدت اجساد بشرية لرجال نائمين ، يبدون وكأنهم وجدوا هكذا ملقى بهم على الارض الحجرية .

« معتقلون آخرون! »

يتنبه سليمان الى ان الرجل الذي سبق وحدثه قبل قليل هو الذي يشعل سيجارته . الوهج القريب يتبدى عن وجه شاب في اواسط عشرينياته . حاد

التقاطيع . بعينين نفاذتين ، وحاجبين كثين .

« يبدو معتاداً! »

وهج عود الثقاب ينطفىء . طرف السجارة يتورث بلون الجمر وسط العتمة التي عادت تتكاثف من جديد .

ـ تأخذ سيجارة!

الرجل ذاته يعرض عليه بدعوة تتضمن طعم الالفة .

ـ لا . . شكراً .

اجابه سليمان محاولاً يشحن صوته بوازع من عرفان . كان بدأ ـ قليلاً قليلاً ـ يستعيد حضوره . . الآخر ، وهو ينفث دخان سيجارته ، يقول مخبَراً :

ـ انا حاكم .

حواس سليمان تتنبه ، في الوقت الذي واصل الآخر موضحاً :

ـ . . اسمي حاكم سلطان .

« مَا المانع ؟! »

فكر سليمان يعرفه من جانبه بنفسه ، لولا مبادرة حاكم :

ـ انت غريب على البلد .

قالها بتقريرية دالّة ، واستطرد :

ـ . . والدليل انك تصرفت برعونة .

اللهجة التقريرية لا تهدف تهين بقدر ما تهدف تؤكد .

ـ رعونة!!

النعت يعبر الى ذاكرة سليمان يحفّزها اكثر . يتذكر وخزة الالم الحارق التي احسها في مؤخرة رأسه . يده ترتفع . تتحسس .

« دم!! »

الرطوبة اللزجة تشير ، وهذا الورم . .

ـ لأنك قاومتهم ضربوك بعقب البندقية على رأسك .

حاكم يخبِّر ، واستغراب سليمان يرقي الى حجم الفجيعة .

ـ انا قاومتهم ؟!
الآخر يتم بتقريريته ذاتها :
ـ فلما فقدت وعيك حملوك الى هنا .
الاستغراب يستعصي على ايما امكانية للادراك .
«ان يقاوم»
فكرة لم ترد له على بال اطلاقاً . ليس فيما مضى . . ليس الآن . . طوال حياته وهو . . عدا هذا هناك السؤال الأهم :
« مقاومة من ؟! »
وخزة الالم تنبض في مؤخرة رأسه . لو كان مخموراً فعلاً لوجد امكانية للتفسير . .
استعادة الحدث بتفاصيله الدقيقة ضمن تراتبها الزمني تحتاج حالة صفاء ذهني وقدرة محددة على التركيز ، اما فيما يخصه الآن . .
عيناه تعبران وجه محدثه الى حيث الباب . الوقت غبش . الفجر بلونه الرمادي المنطفي يهيمن على الباحة الواسعة ما وراء القضبان .
«المبنى العتيد لقائمقامية قضاء ابي الخصيب»

* * *

حين ادرك رجال الاستانة انهم مسبوقون ، وان طبيعة العصر ، وهذه الامبراطورية العثمانية المترامية والممزقة في الوقت نفسه يقتضيان اصلاحات لا حصر ـ وكان ذلك مع بدايات هذا القرن ـ لجأ آخر سلاطينهم ، عبد الحميد ، الى اتخاذ اجراءات ادارية واصلاحية حازمة وسريعة ، فأكد على مركزية السلطة من خلال تقسيماتها الادارية ، حيث جرى ربط النواحي البعيدة بوحدات ادارية ، هي الاقضية ، والاقضية بوحدات ادارية أُم ، هي الولايات . وبعد ان اصدر فرماناً يلزم جميع موظفي الباب العالي بلبس الطربوش ، عني بشق بعض الطرق واقامة عدد من الجسور ، وبناء مجمعات عمرانية ، تنتظمها اسواق تجارية وحرفية مسقوفة ، ومنظَمة حسب طبيعة

الحرف والصناعات اليدوية القائمة ايامها ، الى جانب مبنى مدرسة وجامع ، ليعزّز كل مجمع من هذه المجمعات ، التي انتشرت فشملت الاقضية قبل النواحي ، بمبنى مهيب ، يمثل المقر الرسمي لموظفي الباب العالي على اختلاف رتبهم ، بناءً على ما تقتضيه مركزية السلطة . فروعي في كل مبنى ان يُضمّ ادارة للسجن ، واخرى للضرائب ، وثالثة للعسكر ، ورابعة للبريد ، وخامسة ، وسادسة . .

وما دار في بال السلطان عبد الحميد ، رغم ما اتسم به من عودة حازمة للوعي ـ انه سيكون آخر السلاطين .

قائمقامية ابي الخصيب أثر دال على عودة الوعي تلك . معمار شامخ مهيب ، اشبه بالقلعة ، تحتكمه دروازة عملاقة ، تفضي الى ممر حجري ، ينفتح على باحة وساعة ، يقوم على جوانبها الاربعة ، مبنى ضخم ، يتألف من طابقين ، خُصص الاعلى منه مكاتب للموظفين حسب رتبهم ومقاماتهم ، في حين جرى تخصيص الجزء الاوفر من الطابق الارضي ثكنة للعسكر ، ورجال الشرطة ، الى جانب ادارة السجن ، واخرى للشكاوي ، وغرفة واسعة استحدثت لتلبية ضرورات الاعتقال والحجز الطارئين .

* * *

باب الهوى قرية صغيرة ملحقة ادارياً بقضاء ابي الخصيب . من اين له ، وهو يهم يدلف باب الهوى بعد غياب سبع سنوات ، يستوعب فكرة يُفاجأ يُستوقف يُفتش يُساق يُجاء به حيث هنا . . ليعتقل ؟!

« الظاهرة والسبب!! »

وحتى على افتراض :

« لديهم اجراءات واجبة »

فمن اين له ـ وهو الذي عانى مهانته ازاء نفسه جراء ضعفه الجسدي الخارج من ارادته ـ يتقبل فكرة :

« لأنك قاومتهم ضربوك »

« ـ اسمي حاكم سلطان »
« لعله يعرف مالا يعرفه سليمان عن حاله! »

* * *

الفجر يبدأ يتكشف عن مكوّنات الباحة الواسعة امامه . الحركة اخذت تدب . رجال عسكريون ، وآخرون بثياب مدنية .

« لو اعرف السبب!! »

اراد يحتفل بيومه الاول على طريقته . يساهر اصدقاءه ، لينهي ليلته عند اهله ، فانتهى معتقلاً هنا .

« لو اعرف . . »

عدا عن ذلك ، بدا له انه عومل معاملة مجرم خطير ، والا ما كان له يضرب بعقب بندقية على مؤخرة رأسه .

« لو كنت مخموراً فعلاً . . »

تذكُرهُ الاصابة يعيده الى دائرة الشعور بالالم الناجم . يرفع يده ثانية . يتحسس مكان الاصابة . اللزوجة باقية ، والورم .

ـ تؤلمك ؟

حاكم يسأل ، مما يضطره يجيب :

ـ قليلاً .

ـ كن حذراً!

عقب حاكم ، وأكمل :

ـ . . مثل هذه الاصابات خطرة ، هي في بعض حالاتها تحدث شرخاً في الجمجمة ، واحياناً تسبب ارتجاجاً في المخ .

« من يدري! »

ردد سليمان مع نفسه بقلق ، وصوت حاكم يواصله :

ـ . . ليس سهلاً تفقد وعيك جراء ضربة في الرأس!

ليت الامور التي استجدت تكتفي بهذا القدر . . حقيبته . . لا علم له

بها . . محفظته ، لا . . والأهم بين ما صادفه . . اهله . . كيف سيفسرون اختفاءه ؟!

« لا احد حتى الآن يعرف! »

ـ الجماعة . . .

حاكم يستطرد ، مشيراً برأسه الى ما وراء القضبان ، ليتم :

ـ . . يتعاملون مع البشر كما في الافلام البوليسسية!

عينا سليمان تتابعان اشارة محدثه . مجموعة شباب من متقاربي الاعمار ، يربو عددهم على العشرين ، بثياب مدنية متفاوتة . يتجمعون عند الجدار المقابل ، خارجاً .

ـ من هم ؟

سؤال عفوي يفلته فمه ، ليأتيه رد حاكم بصيغة التأكيد :

ـ انت غريب على البلد فعلاً .

سليمان يعقب :

ـ عصر امس فقط وصلت من الكويت .

فيبادره حاكم كمن يسبق عليه افكاره :

ـ كويتي .

اللهجة الواثقة في صوت حاكم تستفزه ، اراد يقول :

ـ انا عراقي .

في الوقت الذي اكمل فيه حاكم مشيراً برأسه للمرة الثانية حيث الرجال في الباحة :

ـ هم ـ بمقتضى الحال ـ شباب وطنيون غيورون متطوعون ، يتولون مهام حماية الثورة من الداخل .

بمحاولة من سليمان كي يدرك :

ـ حماية الثورة ؟!

حاكم يطلق ضحكة خافتة ذات دلالة ، قبل ان يجيب ، وكأنه يردد كلاماً

محفوظاً :

- حمايتها من الدخلاء والمندسين والخونة والجواسيس والعملاء من رجال العهد الملكي المباد .

سليمان يتساءل مع نفسه :

« سخرية ؟! . . أم لا مبالاة ؟! »

ومن غير ان يتلفت الى محدثه يحسه يتناول علبة سجائره . يخرج لنفسه واحدة . يشعلها ، ليعود يوجه سؤالاً :

- كيف قبضوا عليك ؟

سؤال حاكم ينم عن اهتمام مشوب بالفضول . سليمان يلتفت .

- من الطريق .

فتأتي استجابة حاكم بما يشبه السخرية :

- كما العادة .

ليردفها بسؤال :

- ما هي تهمتك ؟

سليمان مبدياً عجزه :

- لا ادري!

قلق مشارك يخالط صوت حاكم لدى تعقيبه :

- ليس كما العادة!

* * *

الباحة تُفصح عن نشاط اكثر . احد الرجال - وهو بثياب عسكرية - يصدر اوامره :

- اصطفوا بنظام!

الشباب يتسابقون يمتثلون .

- نبدأ الهرولة الصباحية!

الطلائع الاولى لأشعة الشمس الصباحية تبدأ تسقط على الجانب الاعلى

من الجدار المقابل . الشباب يتزاحمون يهرولون ضمن حلقة دائرية .

ـ تدريب عسكري طوعي .

حاكم يتطوع يخبّر . سليمان يحرك رأسه ايجاباً دلالة الفهم ، والآخر يتم :

ـ انا ايضاً تدربت . كنت من اوائل الذين تدربوا .

سليمان لا يبدي استغراباً ، والآخر :

ـ . . كنت مسؤولاً عن احد المقرات .

السؤال الحاضر في ذهن سليمان :

ـ كيف قبضوا عليك ؟!

تصدر عن حاكم ضحكة مبتورة ساخرة ، يجيب بلهجة تنم عن استهانته بحاله :

ـ بالجرم المشهود .

وصمت . عيناه تشردان في البعيد . لحظتها ادرك سليمان انه كاد ـ من غير قصد مُدرك ـ يلامس مواجع محدثه .

* * *

الشمس تنتشر في الباحة . انوار الصباح تبدد العتمة التي كانت متكاثفة داخل غرفة الاعتقال . عينا سليمان تعتادان المكان . الاجساد المكومة عند الاركان تتبدى عن رجال مختلفي الاعمار .

ـ هم مجرمون عاديون .

قالها حاكم مخبّراً بعد ان كان لزم الصمت فترة .

ـ عاديون ؟!

تساءل سليمان بفضول ، فجاءه رد حاكم :

ـ لصوص ، نشالون ، مدنيون ، هاربون من الخدمة العسكرية الالزامية . . كلهم جرائم عادية ، عدانا . .انت وانا .

فضول سليمان يتحدد اكثر :

ـ ما هي جريمتنا . . انت وانا ؟
ـ أمن ثورة .
الاجابة تبدو بسيطة واضحة . بقدر ما هي مبهمة غامضة .
« متى تتضح له اموره ؟! »
الباحة خلت من متدربيها . الحركة الاعتيادية ، لأيّما يوم من ايام قائمقامية قضاء ابي الخصيب ، تأخذ مجراها . مسؤولون يتوافدون . الحرس ـ بين فينة واخرى ـ يؤدي تحيته العسكرية لهذا المسؤول او ذاك . مراجعون باوراق وملفات نساء متلفعات بعباءات .
« ماذا لو ان احداً من أهل سليمان فكر يجيء يبحث عنه هنا ؟! . . وماذا سيكون رد فعل التواجه ؟! »
يحدّق في وجه محدّثه . يراه ـ جراء توفر الضوء ـ بوضوح اكثر . قسماته صارمة . تلفت نظره لحيته النابتة حديثاً . حاكم يتابع نظرات سليمان . يرفع يده يتحسس ذقنه .
ـ منذ اربعة ايام لم احلق ذقني .
المعنى يتداعى لدى سليمان سؤالاً :
ـ اربعة ايام في هذا المكان ؟!
حاكم يبتسم .
ـ بالضبط .
يجيب ، ويضيف :
ـ . . اليوم هو يومي الاخير .
تتسلل رنة حزن الى صوته مع استطراده :
ـ . . امس خبروني . . سينقلونني الى الادارة العامة للأمن .
وجوده ـ على مافيه ـ نوع من العزاء . مجاذبة الحديث بحد ذاتها . .
ـ اين يقع مبنى الادارة العامة ؟
ـ في العشار .

ذهاب حاكم يعني الوحدة ، والوحدة وجه آخر للحزن .

ـ ماذا بعد الادارة . . الامن ؟

اهتمام سليمان ان يسأل يدهشه نفسه . بدءا كان الآخر يبادر .

ـ لا ادري!

حاكم يجيب ، قبل ان يستثني بعد تردد قصير :

ـ ربما ادري .

عيناه ، للمرة الثانية ، تشردان .

ـ . . الامر بالنسبة لي واضح . الجريمة ثابتة علي .

* * *

من اين له بهذه القدرة على التآلف ؟! . . والأهم ان يجيء التآلف في خضم المحنة!

من بين زمرة الاصدقاء وحده معروف عنه اكثرهم ميلاً للانطواء على نفسه ، بخيل في منحه ذاته ، وان منحها فهو يفعل ذلك بحساب .

طيلة سنواته السبع في الكويت لم يخرج بعلاقة صداقة بالمعنى الحميمي للكلمة . علاقاته هناك ـ باستثناء شكل ارتباطه بنجوى ـ لم تتعد حدود زمالة عمل أو جيرة سكن .

الصداقة ، بمعنى الاحتياج البشري للثقة بالمساررة والمشاركة ، قدرة فقدها عند مرحلة معينة من عمره سبقت سفره الى الكويت .

« الصداقة الحقة ارتباط عاطفي تُكتب له الديمومة من خلال تشكُله في مرحلة الصبا ، وعلى أبعد تقدير منذ السنوات الاولى لمرحلة الشباب »

اصدقاؤه ذاتهم لا يوافقونه مقولته هذه ، ويحيلون حالته الى منحى انطوائي خاص به وحده ، بيد انه في قرارته لديه قناعات اخرى تؤكده .

مذ كان هنا او هناك بقي القاسم المشترك لأسرار اصدقائه كلها بادق واحرج تفاصيلها ، العاطفية منها ، واللا . . لدرجة اضطر معها مصطفى لأن يسميه مرّة :

ـ انت اشبه بالضمير الذي نحتاجه ونخشاه ايضاً .

«ان كان على الضمير . .»

حاكم ، بذقنه الخشنة النابتة منذ اربعة ايام ، يلتمّ على جسده قبالته ، هذه المصادفة ، غير القابلة للتصديق ، أن يُلقى عليه القبض وهو خطوات من داره .

ـ تعال!

أن يُقاد . يتلقى ضربة ما ، غير مدركة لديه ، يفقد وعيه ، يلقى هنا . .

ـ . . تصرفت برعونة!

الاستفزاز بمعناه الدارج غير وارد .

ـ . . تأخذ سيجارة!

المشاركة بمعناها الدارج هي الواردة .

ـ . . هم مجرمون عاديون . . انت وانا أمن ثورة .

أهو التآخي في المحنة ؟! . . ام هو الادراك القائم لحجم الفجيعة المترتبة على ماذا ؟! . .

ـ . . الامر بالنسبة لي واضح . . الجريمة ثابتة علي .

ذاك عن حاكم ، أمّا عن سليمان . . الأمر بالنسبة له غير واضح ، ليس من جريمة محددة معروفة ، ثابتة ، أو غير . . .

* * *

البارحة . . الشابان والمدفعان الرشاش . . وهما يلاحقان خطواته .

ـ اسرع اكثر!

يسوقانه هرولة ، ريثما وصلا به طريق ابي الخصيب المسفلتة . اقتاداه عبرها باتجاه الدرب الترابية المقابلة لباب الهوى .

ـ هنا!!

ليفاجأ بوجود سيارة جيب صغيرة مختفية وسط الظلمة والظلال المتكاثفة لسعف النخيل ، فتملكه شعور غريب مفاده انه ازاء ثلاثة وليس اثنين .

السيارة الجيب ـ بوقفتها تلك ـ طرف ثالث يتربص به .

ـ اركب!

يزجرانه .

ـ بسرعة!

ولايدركان ان انفاسه جراء الهرولة وثقل الحقيبة . . يتحامل على نفسه وعلى الحقيبة . المهانة التي لحقته . .

« لا فرصة لأي اعتراض! »

يدفع حقيبته الى مؤخرة الجيب . الامل الوحيد المتبقي . . يأخذانه الى مسؤول ما . الامل الوحيد المتبقي جداً . . يتفهم ذلك المسؤول حالته .

« اعيداه الى بيته! »

الامل . . يصدر مسؤولهما امره اليهما . .

« ليس من حقكما ان . . »

بناء عليه . . يعيد الامور الى نصابها . يضع حداً لسوء الفهم . .

« والدليل . . جواز سفري بحوزتهما! »

في طريقه الى باب الهوى ـ قبل قليل ـ كان جالساً في المقعد الامامي ، بمواجهة الطريق .

« ـ تشرب! »

الاضواء الامامية للسيارة التكسي تتكشف عن نخيل متراص على الجانبين ، واشجار الدفلى تتكاثف ، كما لو انها تهم تهاجم .

في طريقه من باب الهوى امراه يجلس مع حقيبته في المؤخرة . ظهره اليهما . السيارة الجيب تنطلق .

ـ ولا حركة!

يهددانه . لعلهما خشيا هربه .

« لو اعرف ما يريدانه بالضبط!! »

مؤخرة السيارة تنفتح على الليل . طريق ابي الخصيب يتراكض متباعداً ،

اشبه بفوهة حلزونية هائلة من ظلام لا قرار له . الاحداث ـ بتواليها السريع غير المعقول ـ تبدو وكأنها تخص شخصاً آخر لاعلاقة له به .

* * *

حين ابطأت سيارتهما الجيب من سرعتها لدى اجتيازها الجسر الخشبي الكائن على نهر ابي الخصيب قبالة نادي الموظفين ادرك سليمان وجهتهما .

« قائمقامية ابي الخصيب »

هاجس بالامل ينبعث في صدره . في مبنى القائمقامية سيجد بين المسؤولين من يستمع اليه . يتفهم حاله .

« فينتهي الاشكال! »

وحين توقفت سيارتهما عند دروازة القائمقامية أمراه :

ـ انزل!

وما ان همّ بالنزول ذكّراه زاجرين له :

ـ احمل حقيبتك!

« يريدون الامور بسرعة تفوق الطاقة! »

ـ تعال!

يقتادانه بعدها الى غرفة على يمين الممر .

« قيادة الحرس »

ـ ادخل!

الغرفة عالية السقف واسعة ، بمكتب واحد كبير ، ورجل حرس برتبة عريف يضطجع على اريكة جلدية قديمة وضعت لصق الجدار .

عريف الحرس يتمطى قبل ان ينهض . وجهه بانطباع دال على الاشمئزاز . ينقل نظراته بين الشابين ، ليستقر بها على سليمان .

ـ من اين تجيئون بمثل هولاء ؟!

* * *

كان في تقديره انه سيجد من ينصفه ، او ـ وهذا اضعف التقدير ـ من

يسأله ، لكن الذي حدث ان العريف تثاقل على اشمئزازه . توجه الى المكتب . فتح درجا . طال حزمة مفاتيح . اقترب حيث يقف الثلاثة ، تنبه للحقيبة .

ـ مع استعداد لإقامة طويلة!!

ردد بسخرية باردة مبدياً استغرابه من حجم الحقيبة ، فعقب عليه احد الشابين بصيغة تشي بالتوعُد ويده تشير :

ـ هذه الحقيبة ـ كما يجب ان تعلم ـ تحتوي اهم الأدلة!

مظاهر النشاط تدُب في جسد العريف . الاحساس بخطورة الحالة . الاهتمام القلق يتضمن سؤاله :

ـ وما الذي نفعله بها ؟!

الشاب الآخر يتطوع يقترح :

ـ ارى ان تحتفظ بها هنا اضافة الى باقي الادلة لحين مجيء الضابط .

ـ وهو كذلك .

ردد العريف بامتثال ، وسارع ينفّذ .

* * *

على اثر انتهائهم من اجراءات حفظ جواز سفره ومحفظته في درج على يمين المكتب أمروه :

ـ ضع حقيبتك هنا!

في الركن وراء الباب .

« يبدو ان لا نهاية لاجراءاتهم! »

وان المسؤول الذي توقع سليمان يقابله موجود في مكتب آخر غير هذا .

ـ تعال!

لن يعارضهم ، انما من حقه يسألهم :

ـ الى اين تأخذونني ؟!

الصيغة المتوعدة تتهدده :

ـ اخرس!
انما من حقه ـ وقد احتمل الكثير من تصرفاتهم غير المسؤولة .
ـ اطلب مواجهة المسؤول هنا!
احدهم يدفعه بقسوة في صدره .
ـ تحرّك!!
الدفعة ما كانت متوقعة . جسده يستجيب مندفعاً . قدماه تتعثران . يختل توازنه . يسقط على الارض .
« كل هذا الحقد!! »
يتملكه شعور حاد بالكراهية المغلوبة على أمرها . هو لم يعرفهم من قبل . هم بدورهم لا يعرفونه . المرارة . المهانة التي لا حدّ . .
«ما الذي يدعوهم يقسون ؟! »
لو كا ارتكب اثماً ما ، خطأ ما ، لو يعرف . . يجمع شتات جسده . ينهض . الهدوء يشمل مبنى القائمقامية عدا صوت :
ـ تحرك!!
يبحث عن صوته :
ـ ساتحرك!
ـ نفّذ بسرعة!
يبذل جهداً جباراً للسيطرة على انفعالاته .
ـ سأفعل!
ليتلقى دفعة اخرى قوية تنقله خارج الباب المفتوح للغرفة ، حيث الممر .
ـ امش!
ـ . . . .
الوضع يجب ان يختلف عما كان عليه في درب باب الهوى المنقطعة مع المدفعين الرشاشين .

« يجب!! »

ان كان امتثل هناك ـ دون معارضة ـ فلأنه خشي تهور الشابين ، اما والحال هنا في مبنى قائمقامية . .

ـ انتم أسأتم الفهم!

ـ اخرس!

دفعة ثالثة قوية .

ـ امش!!

دفعاتهم تتوالى . يأخذونه باتجاه الداخل .

ـ انتم مخطئون بحقي!!

ولأنه حاول يتفادى واحدة من دفعاتهم . .

ـ ابن الـ . .

صرخة مذعورة شقت اذنية ، في اللحظة التي صُعق فيها من مؤخرة رأسه .

* * *

ما بين اللحظة الخاطفة للاحساس بالصعقة الجبارة ولحظة الصحو اللاهث من خلال حلم بالسباحة في مياه جيلاتينية زمن مفقود غير مدرك .

« ـ . . بعقب البندقية على رأسك »

كان حاكم قال له .

« لو اعرف الاسباب الكامنة وراء كل هذا!! »

صباحهم يزداد انتشاراً في باحتهم . السماء صحو . والشمس . . تحين من سليمان التفاتة الى ساعته . . جاوزت الثامنة .

« ـ . . فلما فقدت وعيك حملوك الى هنا »

كان حاكم قال له . من موقعه وراء قضبان غرفة المعتقل شاهد ما حدث في الممر . خطوات ثقيلة تقترب من الباب . عريف حرس آخر يصل حاملاً كيساً ورقياً حاوياً .

ـ افطار المعتقلين .

حاكم يبادر يخبّره ، قبل ان ينهض . يمدّ يديه عبر القضبان . يتسلّم الكيس .

العريف يبتعد ، وحاكم يواصل يوضح بهامش من سخرية :

ـ الأكل اجباري .

ـ . . . .

ولأنه لم يسمع تعقيباً من سليمان يكمل :

ـ . . الامتناع عن الطعام نوع من المقاومة .

بقي سليمان لازماً صمته . كلمات اخرى سابقة قالها حاكم ترددت في مخيلته :

«ـ . . لأنك قاومتهم . . »

الدهشة باقية . والاستغراب . .

«من اين يجيء التعويض ؟!»

٤

الوقت يمر ببطء عجيب . مؤشر الدقائق في ساعة معصم سليمان لا يكاد يتحرك من مكانه . مفروض بهم يطلبونه للتحقيق معه ، انما . . وهذه الحركة اليومية الاعتيادية لساحة القائمقامية . .

كان جالساً لصق قضبان الباب . عيناه على الحركة اليومية للباحة ، لو ان احداً من أهله ، معارفه ، اصدقائه ، قلق من اختفائه المفاجيء فجاء بهدف البحث ، او لغرض ما آخر . . ، لو . . لتحقق احتمال وضع حد لحالته الخطأ .

عيناه ـ خلل القضبان ـ تترصدان كل الوجوه . تدققان فيها . طوال عمره ـ هنا أو هناك ـ لم يخطر على باله يتعرض لخبرة مهينة مثل هذه .

« وراء القضبان »

له ان يحلم . لكن ايّما حلم له امكانياته التي تؤهله يتحقق من خلالها . اراد مقابلة مسؤولهم فأُقتيد فاقداً وعيه .

« ـ ابن الـ . . »

ماذا عن امهاتهم ؟! .

ـ ابتعد عن الباب!

فاجأهُ صوت عريف الحرس منتصباً بقامته امام الباب يصحبه رجل كهل بحدود الستين من عمره ، قصير القامة ، كالح الوجه ، بعينين زائغتين ، تنمّان عن قلق وخوف شديدين .

ـ وافد جديد!

غمغم حاكم من ورائه ، في الوقت الذي اعمل فيه العريف مفاتيحه في اقفال الباب ليفتحه لدى قوله :

ـ ادخل يا هادي!

خطوة هادي الخفيفة ـ وهو يدلف داخلاً ـ بدت وكأنها لا تتناسب مع سنّه .

ـ كن على استعداد!

قال العريف لهادي لدى تأكُده من اقفال الباب ، واتمّ :

ـ . . . سنعود لنأخذك بعد ساعة!

مع انصراف العريف همس حاكم لسليمان مشيراً ناحية هادي :

ـ يبدو معروفاً لديهم .

سليمان يؤمّن على كلام محدّثه بهزة من رأسه ، كل الذي يحدث امامه جديد عليه ، عدا عن ذلك كان قلقاً جراء مرور الوقت دون ان يُطلب للتحقيق معه .

هادي وقد دخل المعتقل توقف في المنتصف . عيناه الصغيرتان الحركتان تدوران على الوجوه بسرعة .

« ليس من سابق معرفة! »

يغمغم مع نفسه كلمات مبهمة ، ليتوجه بعدها الى أبعد ركن ، ينزوي هناك . يبدأ ـ على الفور ـ مواصلة غمغماته المبهمة وحده .

* * *

قبل انتصاف النهار بقليل جاء عريف الحرس من جديد . وقف امام الباب . عيون المتواجدين في الداخل تنشدّ اليه . قال :

ـ الحقيبة الموجودة في غرفة قيادة الحرس . لمن ؟

دون قصد منه ندت عن سليمان زفرة ارتياح .

« اخيراً! »

بادر بالنهوض .

ـ لي .

العريف ـ من غير أيّما تعقيب على رد سليمان ـ ينصرف من حيث جاء . دهشة مشوبة بالاحباط ترتسم على وجه سليمان .

« ما المقصود اذن ؟! »

حاكم يتدخل ، يقول مطمئناً :

ـ لا تتعجل . . الدور لك . . . سرعان ما يطلبونك .

سليمان يعبّر عن استيائه الحائر بصيغة من يحدّث نفسه بصوت مسموع :

ـ حتى الآن لا اعرف سبب اعتقالهم لي!!

ليفحمه رد حاكم :

ـ هم يعرفون .

سليمان يحدق اليه كمن يستفهم ، فيواصل :

ـ . . انت بالنسبة اليهم قضية أمنية تتطلب اجراءات معينة . .

ولا يكمل . العريف يعود حاملاً مفاتيحه .

ـ اين صاحب الحقيبة ؟

وسط استغرابه يبدي سليمان استعداده :

ـ انا .

العريف يعمل على فتح الباب :

ـ تعال! . . . الضابط يطلبك!

هادي يتنبه لما يحدث . يكف عن غمغماته برهة .

* * *

من بين ما يعرفه سليمان كأمر مفروغ منه ان المثول امام ضابط مسؤول خلال ساعات دوام رسمي يختلف عما حدث البارحة .

ـ السلام عليكم!

قالها حال دخوله مكتب الضابط بلهجة جَهَدَ يشحنها رقّة ، ليأتي ردّ فعله شعوراً بتفاهته ازاء نفسه . الضابط لم يرد له تحيته .

العريف ، بعد تأديته تحية استعداده ، يقف خلفه . حقيبته باقية حيث تركها البارحة . الضابط يرفع عينيه عن ورقة امامه ، يسأل دالاً على الحقيبة :

ـ هذه حقيبتك ؟

عمره ـ كما بدا لسليمان ـ لم يتعد الثلاثين ، شيء من حيوية الشباب ، ووسامة ظلت واضحة رغم الفظاظة التي تطبّع بها . دقق في الوجه علّه يصادف رفيق صبا أو زميل دراسة .

« ولا هذا! »

كان عليه ان يجيب :

ـ حقيبتي .

ليواجه بسؤال من الضابط يتضمن دهشة منزعجة :

ـ كيف وصلت الى هنا ؟!

رغم ما ابداه الضابط ، احسّ سليمان بارتياح صغير . سؤالهم يؤكد جهلهم حالته ، معنى هذا فرصته سانحة كي يوضح لهم .

ـ في الحقيقة هناك سوء فهم .

قالها سليمان متردداً ، فواجهه الضابط بغضب خالص :

ـ سوء فهم!! . . ممن ؟!

فرصة سليمان للتوضيح ما تزال سانحة .

ـ من الذين اقتادوني الى هنا .

الضابط بصبر نافد :

ـ من هم الذين اقتادوك الى هنا ؟!

ـ شابان لا أعرفهما .

الضابط بعد تفكير قصير :

ـ عسكريان ؟

ـ لا .

اجاب سليمان ، وأتم موضحاً :

ـ . . لكنهما مسلحان .

ـ همـ مـ . .

غمغمة غامضة صدرت عن الضابط . لحظتها خيّل لسليمان ان مظاهر الاشمئزاز التي سبق ورآها البارحة على وجه عريف الحرس ذاك ، عادت تلوح على وجه هذا الضابط .

ـ أمن ثورة!

قالها الضابط كمن يحادث نفسه موحياً بخطورة الموقف . شعور بالقلق من المجهول يبدأ يتأكّد لدى سليمان .

« سبق وقالها حاكم! »

ضربوك ؟

سؤاله بحسّ السخرية لا الاهتمام .

ـ على رأسي .

الانطباع المشمئز يكبر في وجه الضابط . الوسامة بأقبح صورها .

ـ همـ مـ . .

يكتفي يصدر غمغمته ، مما حدا بسليمان يقول :

ـ كنت بسبيلي الى بيتي عندما اعترضوا طريقي . .

شيء من اهتمام يتبدى في صوت الضابط :

ـ اعترضوا طريقك ؟!

فرصة سليمان سانحة اكثر :

ـ فتشوني ، ثم امروني ارافقهم .

اهتمام الضابط يتوضح اكثر :

ـ لماذا اعتقلوك ؟

الحيرة في اجابه سليمان :

ـ لا ادري!
الضابط وقد تسرّب الشكّ الى صوته :
ـ التهمة الموجهة اليك ؟
الحيرة باقية مع سليمان :
ـ لا اعرفها!
الضابط يعقد حاجبيه . شكه لم يزايله . يصمت مفكراً لثوان .
ـ ماضيك السياسي ؟
حيرة سليمان تشمله كله .
« هذا السؤال بالذات!! »
ولأنه مطالب بالردّ ردّ :
ـ عفواً . . لم افهم!!
الضابط يبدأ يتململ في جلسته دلالة انزعاجه . يحدّق في وجه سليمان باحثاً عما وراءه ، يعيد سؤاله بصياغة اخرى :
ـ الحزب الذي تنتمي اليه ؟
سليمان وقد فهم القصد :
ـ لم انتم الى اي حزب .
الضابط باقٍ يحدّق في وجهه ، فيواصل :
ـ . . في الحقيقة . . انا . .
ليبادره الضابط بسؤال مفاجىء :
ـ كم مرّة اعتُقلت ؟
يسألونه بثقه من يعرف امراً لا يعرفه . ذهوله يشمله .
ـ ولا مرة .
الضابط بصيغة تحذيرية :
ـ من مصلحتك الاّ تكذب! . . نحن نعرف كل شيء عنك!
« كيف لهم يعرفون وهو المنقطع في الكويت منذ سبع سنوات ؟! »

وبما ان الضابط ينتظر اجابته :

ـ لو سمحت لي اوضح لك!

الضابط يهزَ رأسه ، يشجعه يوضّح ، فيستطرد :

ـ . . . انا في حقيقة الامر . .

لكن صرامة الضابط تقطع عليه استرساله :

ـ جاوب على قدر السؤال!

«أي سؤال بالضبط ؟!»

يبقى يتطلع في وجه الضابط بذهول قلق ، ريثما طالبه الاخير :

ـ نحن نهدف نتحرى الصدق والدقة!

سليمان يلهج ممتثلاً :

ـ حاضر .

الضابط يرخي جسده الى ظهر كرسيه .

ـ اين تم القاء القبض عليك ؟

يذكر سليمان انه وضّح قبل قليل :

«وانا بسبيلي الى بيتي . .»

ربما المقصود هو المنطقة .

ـ في الطريق الزراعية الموصلة لقرية باب الهوى .

ـ باب الهوى ؟!

الضابط يبدي دهشته ، وسليمان يضطر يدلّ :

ـ قرية صغيرة ملحقة بقرية السبيليات .

السؤال اللاحق للضابط يدل على تجاوزه معرفة المكان :

ـ كيف اقتادوك حتى هنا ؟

ـ معهم سيارة جيب .

ـ عسكرية ؟

ـ نعم .

الضابط يهز رأسه ايحاءً بالمعرفة .

ـ الجهة التي باشرت امر اعتقالك وحدة خاصة من وحدات أمن ثورة .

قالها كمن يستنتج خطورة الحالة .

« هم يعرفون جهاتهم! »

والسؤال الذي يلي :

ـ كيف تدّعي انك لا تعرف سبب اعتقالك ؟!

ذهول سليمان يعود يشمله باشدّ .

ـ والله لا اعرف!

قسمه ينفلت عفواً عنه . الضابط يحدّق اليه في عينيه .

« لعلّه بدأ يصدّقه! »

تسود لحظات صمت ، تندّ خلالها عن الضابط زفرة ملل ، يعقبها بسؤال يبدو وكأنه تحصيل حاصل :

ـ تقول . . اخذوك من الطريق ؟

ـ نعم .

الضابط كأنه يفحمه :

ـ وهذه الحقيبة ؟

فيأتي رد سليمان عفوياً :

ـ كانت معي .

ولأن الضابط بقي يتطلع فيه اتم :

ـ . . كنت خارج العراق . امس فقط عدت من الخارج . كنت حاملاً حقيبتي . .

عينا الضابط تتسعان ادراكاً :

ـ معنى هذا . . لديهم اخبارية خاصة بك .

المعنى يشمله كله .

ـ اخبارية خاصة بي ؟!

يرددها سليمان بذهول ، ويضيف بصوت هامس راعش :
« لماذا ؟! »
صوت الضابط يصله ، كأنه يباغته بالجرم المشهود :
ـ وتدّعي انك لا تعرف سبب اعتقالك!
الارض تكاد تميد . الدم ينبض في مؤخرة رأسه ـ حيث . . عقب البندقية ـ بوخزات من ألم متواتر .
« كيف يفكرون ؟! »
الضابط يعتدل في جلسته .
ـ اسمك ؟
السؤال الموجه الى سليمان حاد ومنقطع ، مما يؤكد ان تحقيقهم معه سيأخذ مجرى آخر غير الذي بدأوه .
ـ سليمان يوسف .
مع سماعه الاسم يمدّ الضابط يده الى رزمة ملفات امامه . يتفحص الاسماء المدونة عليها .
هل يتجرأ سليمان يخبّر :
« انا بلا ملف »
الضابط ينتهي من البحث في الاسماء . يرفع عينيه الى العريف .
ـ اين باقي الملفات ؟
العريف يأخذ وضع الاستعداد :
ـ جميع الملفات امامك . . سيدي .
الحيرة ، مقرونة بالغضب ، ترتسم للمرة الاولى على وجه الضابط ، سليمان ، بدوره ، يقولها للمرة الاولى :
ـ سيدي . .
لعله أخذها عن العريف . صوته نشازعلى اذنيه . الضابط ينقل عينيه اليه ، مما شجعه يضيف :

ـ . .انا بلا ملف .
غضب الضابط اشده .
ـ بلا ملف ؟!
«ان كان هناك ذنب أو تقصير ، فهو مسؤولية من ؟!»
سليمان لا يجد ما يعقب به ، والضابط يعاود :
ـ كيف اقتادوك الى هنا ؟!
« ما أدراه!! »
كان بوده يستوقف اندفاعة الضابط وانفعاله كي يقول له بهدوء :
ـ هناك سوء فهم!
لكنه سارع يبعد فكرته عن ذهنه . غلواء الضابط وغمغماته المبهمة التي هي أشبه بالسباب الحاقد الموجه لمجهول . .
« امورهم بينهم! »
المهم . . ما الذي يقررونه ؟! . . علام لا يفرجون عنه في الحال ما دامت كل الدلائل تشير الى انه ضحية تصرف غير مسؤول ؟!
تسود لحظات صمت متوتر ، يتناول خلالها الضابط علبة سجائره .
ـ لا بد من وضع حد لهذه الفوضى!
حدّث نفسه بصوت مسموع ، وهو ينتهي يشعل سيجارته . العريف يغتنم الفرصة ، يبادر يقترح بلهجة ولاء :
ـ آتيك بقدح شاي . . سيدي!
عضلات وجه الضابط ترتخي قليلاً .
ـ انا بحاجة الى الشاي . . فعلاً .
ـ امرك سيدي!
ردد العريف بفرح واضح ، استدار خارجاً .

* * *

على أثر انصراف العريف واغلاقه الباب وراءه أعد الضابط كراساً امامه

وقلمه .

« التحقيق يأخذ مجرى آخر! »

همس سليمان لنفسه ، في اللحظة التي واجهه سؤال الضابط :

ـ اوراقك الثبوتية!

وقبل ان تتوفر لسليمان فرصة يستوعب المراد منه أكمل الآخر بغلّ بيّن :

ـ . . نحن نكره السياسة وكل الذين يتعاطونها!

« من المقصود بنحن ؟! »

والضابط يواصل بغلّ اوضح :

ـ . . انتم سبب الفوضى التي تعمّ البلد!

« من المقصود بأنتم ؟! »

بعدها يعود الضابط يكرر طلبه ، وكأنه حسم استطراده العرضي :

ـ اوراقك الثبوتية!

سليمان وقد ادرك المطلوب يفتح كفيه دلالة :

ـ لا اوراق لدي!

عينا الضابط تكادان تجحظان ، لولا ان تدارك سليمان موضحاً واصبعه تشير :

ـ جواز سفري ومحفظتي في درج مكتبك .

ثم تدارك اكثر :

ـ . . سيدي .

الذهول يشمل وجه الضابط .

ـ تعرف عن مكتبي أكثر مني!!

سليمان يحاول يدفع التهمة عنه :

ـ عفواً سيدي! . . هم وضعوها .

الضابط يرفع حاجبيه استغراباً .

ـ من هم الذين يتصرفون في مكتبي اثناء غيابي ؟!
ما كان لسليمان يدرك مسؤوليته تجاه تصرفات غيره .
ـ سيدي . . الشابان اللذان اعتقلاني البارحة هما . .
ـ يكفي!
قالها الضابط زاجراً . يبعد كرسيه قليلاً كي يتمكن من مكتبه ، يفتح درجاً على يمينه . يرفع يده حاملة جواز سفر ومحفظة .
ـ هل هذه اشياؤك ؟
الضابط يسأل ، وسليمان يجيب :
ـ نعم سيدي .
في الوقت الذي تسمع فيه طرقات خفيفة على الباب . الضابط وهو يهتم يتفحص جواز السفر . .
ـ ادخل .
الباب ينفتح . العريف يدخل حاملاً قدحاً شاياً . يضع القدح غير بعيد عن متناول يد الضابط . ينسحب وراء ، عينا الضابط مازالتا تدققان جواز السفر .
ـ مظهرك لا يدلّ على انك شخصية خطيرة!
سليمان يفاجأ كما ليس من قبل .
« من اين لهم اكتشافاتهم هذه ؟! »
اللهجة التي صرّح بها الضابط تبدو اقل حدّة مما سبقها ، واكمل دون أن يرفع عينيه عن صفحات جواز السفر :
ـ سفرات كثيرة . . كلها . . من وإلى دول اجنبية!
« ما الغريب في السفر من وإلى . . ؟! »
راودته فكرة يقول :
« ضرورات عملي تقتضي . . »
بيد انه آثر التزامه صمته خشية مواجهة مضاعفات غير محسوبة ، بينما

استكمل الضابط قراءته جوازه .

ـ اقامة دائمة في الكويت ، ورحلات مرتبة . البحرين . ايران . المغرب . بريطانيا . أهي مصادفة ان تكون كل هذه الارتباطات بدول ذات انظمة ملكية ؟!

ذهول سليمان يشلّ قدرته على تفكير منظم .

« ارتباطات!! »

الكلمات التي تدافعت على لسانه :

ـ سيدي . . رحلاتي . . لم تكن . .

فيقاطعه سؤال من الضابط :

ـ من يتحمّل التكاليف الباهظة لرحلاتك ؟!

صحيح ان لهجته صارت اقلّ حدّة ، لكن خطورة استنتاجاته . .

الكلمات التي تدافعت على لسان سليمان :

ـ في الحقيقة . .

وتسكته اشارة دالّة من يد الضابط ، قبل ان يبادر يضع جواز السفر جانباً ، ليبدأ يدقق في المحفظة .

ـ ما هذه ؟!

الاوراق النقدية بين اصابعه ، وسليمان مطالب يجيب :

ـ دنانير كويتية .

اصبع الضابط تنشل اوراقاً نقدية اخرى .

ـ وهذه ؟!

ـ دولارات .

ـ امريكية ؟!

يداخله احساس ان الضابط يستنطقه بلسانه .

ـ نعم

يحرك رأسه دلالة تفهمه الحالة الماثلة بين يديه .

ـ وهذه ؟!

يستخرج ورقة مطويّة . سليمان من موقفه لا يرى . الضابط ينشر الورقة امام عينيه .

« ما الذي يبحثون عنه ؟! »

انطباع جليّ بالاهتمام يأخذ بأسارير وجه الضابط . يعود يدقق في الورقة ، قبل ان يتطلع ناحية عريفه ، يوجه امره اليه .

ـ اخرج ، واغلق الباب من ورائك . .

العريف بتحيته العسكرية .

ـ حاضر سيدي .

لكن الضابط يستدرك :

ـ لا تسمح بدخول أحد .

ـ امرك سيدي .

« لماذا الورقة ؟! »

العريف ينسحب . يغلق الباب ، والاسئلة التي تتزاحم في ذهن سليمان :

« ماذا في الورقة ؟! . . هل هي ورقته فعلاً ؟! . . هل دسّها قصد ما في محفظته ؟! . . »

مع نفسه . . هو واثق حد اليقين انه بلا ورقة ذات اهمية .

ـ الآن نستطيع نتكلم بحرية .

كما وقع الحالة المستحيلة . هل يقدر يصدّق ما يسمعه ؟! . . الضابط كان ردد كلماته بمساررة ودودة تؤكّدها ابتسامة واثقة .

* * *

بعدها مباشرة أخذت الامور منعطفاً جديداً ، عجز سليمان عن ادراكه ، ومن ثم ملاحقته ،، فالضابط الذي أفاد :

ـ . . . نتكلم بحريّة .

لم يدعه ـ ولو لمرة واحدة ـ يقول أو يوضّح من خلال جملة متصلة معنى

كاملاً .

«لو افهم!!»

كان يصرّ يقاطعه ، او يسكته بإشارة من يده ، متابعاً استنتاجاته واكتشافاته ، التي لم يستطع سليمان معرفة مصادرها . جرى هذا كله وسط جو من الثقة والاحترام افترضهما الضابط من جانبه وحده .

ـ اجلس!

قالها الضابط بلطف غير مفتعل ، ويده تشير الى الجزء الاقرب من الاريكة . سليمان يتردد .. خبرته ـ منذ البارحة ـ علّمته . .

ـ تفضل اجلس!

«هل يصدّق ما يسمع ؟!»

لهجة الضابط بصيغة الطلب ، وليس الامر .

ـ حاضر .

يرددها سليمان صاغراً . يتوجه حيث الاريكة . . يجلس على طرفها .

ـ تبدو مرهقاً!

الضابط يلاطفه كما لو كان يعرفه .

ـ ابداً .

اجاب سليمان نافياً .

«ما القصد ؟!»

الضابط يمد يده الى قدح شايه . يرفعه . ينهض عن كرسيه . يدور حول مكتبه . يقترب من سليمان .

ـ اسمح لي اضيّفك!

«من يسمح لمن ؟!»

سليمان يفاجأ . يهم ينهض .

ـ ارجوك!

صوت الضابط يبقيه جالساً .

«من يرجو من ؟!»
ـ هذا اقل مما يجب!
بغريزته يدرك سليمان ان الضابط ـ في هذا الموقف بالذات ـ لا يفتعل لطفه .
ـ سيدي انا . .
لكن الضابط يسكته باشارة من يده .
ـ مادمنا وحدنا . . لا ضرورة لكلمة . . سيدي . .
يبتسم بمحبة ، ويتم :
ـ . . نحن اخوة .
يستدرك بصوت تشوبه رنّة اسى :
ـ . . محنتنا واحدة!
«كيف ؟!»
قدح الشاي بين يديه ، والضابط يعود يحتلّ كرسيه .
ـ آسف عمّا بدر مني!
يبدو صادقاً في أسفه .
ـ . . انّما انتم تتفهمون طبيعة عملنا الحالي ، والانماط البشرية التي فُرض علينا ان نتعامل معها .
«من المقصود بأنتم ؟!»
كلمات الضابط تتوصل :
ـ . . انا ايضاً سليل عائلة عريقة نالها ما نالها على ايدي الجماعة . .
«من المقصود بالجماعة ؟!»
ـ . . واقل ماقيل فيها . . عائلة ذات اصول اقطاعية!
ماذا لو صرح له سليمان . .
«لا وجه للمقارنة . . ان كان على ذمة القول . . فأنا سليل عائلة فلاحية ، وما النقود التي استحوذت على الاهتمام . .»

في الحين الذي تواتر فيه صوت الضابط :

ـ . . وللعلم لا غير . . انا ايضاً كنت ضابطاً ، ومواطناً مخلصاً أيام عهدنا الملكي ، لكنها طبيعة المهنة ، وضرورات مجاراة الاوضاع . .

« كأن المواقع تغيّرت! »

ان كان هناك سوء فهم واحد في البدء ، فسليمان ـ الآن ـ ازاء سوء فهم مزدوج ، مفروض به . .

ـ الحقيقة انا . .

ـ ارجوك!

الضابط ـ كما هي حاله في مراته كلها ـ يقاطعه ، يسكته بإشارة من يده .

* * *

قال له انه يعرف طبيعة المهمة التي رصد حياته لها . الاقامة الدائمة في الكويت . جواز السفر . الرحلات المكوكية من والى بلدان ذات . . العملات الاجنبية ، واخيراً الورقة الدالّة على انه ـ حتى هذه الساعة ـ يعمل تحت غطاء . . موظف مسؤول في احدى شركات البترول الاجنبية . .

ـ علماً ان مثل هذا الغطاء مكشوف . .

وحين فكر سليمان :

ـ اسمح لي . .

جرى اسكاته :

ـ ارجوك!

وقال له :

ـ الجماعة ، على ما يبدو ، كانوا يترصدون تحركاتك ، فاغتنموا اللحظة المناسبة . .

ـ لكني . .

ـ بناء عليه رتّبوا اخباريتهم . .

التي لا علم له ـ وهو الضابط المسؤول ـ بها ، مجندين احدى وحداتهم

الخاصة لاعتقاله .

ـ لو منحتني فرصة ان . .

ـ ارجوك!

الضابط يختصر عليه جهده . يسكته .

ـ الامور بما وصلت اليه خرجت عن السيطرة ، ومن صالحك الآ احتفظ بك معتقلاً هنا ، في هذا المركز .

لم يسأله سليمان عن السبب ، لكنه اوضح :

ـ لأنك أمن ثورة!

كذلك قال له انه لا يملك صلاحية اطلاق سراحه .

ـ . . انت معتقل من خلال اخبارية خاصة!

الاجراء الاسلم . . يُحرر له صحيفة جنائية روتينية ، ويرسله فوراً الى الادارة العامة للأمن ، قبل وصول من يسأل عنه ، مع اغتنام فرصة كتابة محضر ضبط لا يشير الى الورقة الدالة ولا الى العملات الاجنبية .

ـ . . فاحتمال وصول اي منهم لأخذك يعني تضمين هذه الادلة محضر ضبطك مما يدمر موقفك الدفاعي اثناء المحاكمة .

* * *

جالس على طرف الاريكة . حيرته . انشداهه . قدح الشاي بين كفيّه .

ـ شايك برد!

احساسه بما حوله ما عاد . قدرته على الانتباه . .

« ما المطلوب منه يصدقه ؟! »

الضابط ـ حتى لحظته ـ لم يأت على ذكر حقيبته . ان كانت ادلة الادانة من واقع جواز السفر والمحفظة ، فالحقيبة . .

« مابال الاجهزة!! »

ـ جواز سفرك لا بد من تضمينه محضر ضبطك ، اذ انه وثيقة رسمية تؤكد دخولك البلد . . المحفظة ـ بما فيها من نقود عراقية ـ نرفقها بجواز

السفر ، بصفتها جزءاً من الضبطية .

الضابط يقول مفسراً ، ويضيف :

ـ . . اما الورقة الدليل والعملات الأجنبية . . بامكانك انكارها اصلاً .

وما كان لسليمان يسأل :

ـ والحقيبة ؟!

* * *

الضابط وقد أبدى مالديه من تفهم وتعاون بدأ يطوي الورقة الدالّة . يرفقها الاوراق النقدية المعنية . يعاود النهوض عن كرسيه . يدور حول مكتبه . يقترب من سليمان .

ـ خذها!

سليمان يتناول ، والضابط يكمل :

ـ . . تخلص منها بالطريقة التي تناسبك .

يعود يحتل كرسيه . يفلت زفرة رضا . يسحب كراساً اليه . يعدّ قلمه .

ـ الآن نبدأ اعداد صحيفتك الجنائية الروتينية .

* * *

عندما اقتيد سليمان مخفوراً الى سيارة جيب تقف امام دروازة القائمقامية تنبّه الى وجود الرجل الكهل هادي جالساً القرفصاء في العمق من مؤخرة السيارة . تطلع اليه . قيده في يديه . وغير بعيد عنه يجلس رجل شرطي مسلّح بمسدس بكرة .

« لعله أمن ثورة ايضاً! »

هادي ـ بحاله تلك ـ ما يزال يواصل غمغماته الخافتة مع نفسه . حتى اذا ما التقت نظراته بنظرات سليمان ، لدى ارتقاء الاخير ظهر السيارة الجيب ، التمعت عيناه بنظرة اندهاش طارىء كفتّ عن غمغماته لثوان ، ثم عاود .

السيارة الجيب اكبر حجماً من سابقتها البارحة ، وحين جيء بحقيبة سليمان كي تُشحن برفقته لفت انتباهه وجود ورقة تعريف كبيرة ، مثبتة على

ظهر الحقيبة بشريط لاصق ، كتب عليها بخط عريض :

« القضية : أمن ثورة ـ المصدر : اخبارية مسبقة ـ المرفقات : حقيبة سفر ـ جهة الاختصاص : وحدة خاصة »

الحقيبة ـ بهيئتها تلك ـ بدت لسليمان وكأنها تحتل كامل ارضية السيارة الجيب .

« من اين لها هذه الاهمية كلها ؟! »

ملفّه الحاوي صحيفته الجنائية اضافة الى مظروف ضمّ جواز سفره ومحفظته سُلّما يداً ليد ، من الشرطي الذي رافقه حتى السيارة للآخر الجالس فيها .

تذكر الورقة الدالّة التي اعادها له الضابط . تملكه فضول يعرف فحواها . يداه مقيدتان معاً ، بيد ان ذلك لم يمنعه يرفعهما معاً . جيبه عند صدره . احكم اصابعه . تحسس الورقة ، انتشلها . فضّها .

ورقة مكاتبات عادية خاصة بالشركة ، حيث يعمل . اسم الشركة وشعارها مطبوعان بارزان أعلى الورقة .

« شركة صيانة انابيب البترول الـ . . »

العنوان . ارقام الهاتف . وبخط آلة الطباعة . .

« تقرر منح السيد . . ووظيفته . . اجازة اعتيادية لمدة . . تبدأ من . . »

قرار قيام باجازة . ورقة جرى التعارف عليها في الكويت . يصحبها ايما موظف هنا معه ، بقصد يبرزها لموظفي الحدود الكويتية ، دلالة موافقة جهة العمل على سفر الشخص المعني .

فمه يتبدّى عن ابتسامة باهتة . يطوي ورقته . يعيدها حيث كانت . لم يمهلوه فرصة يوضّح لهم .

« لماذا ؟! »

سؤاله يحتوي حياته كلّها . ما كان منها هناك أو هنا .

« اين يكمن الخطأ ؟! »

الحقيبة . القيد . الرجل الكهل هادي . الشرطي حامل الملف . المبنى المتطاول لقائمقامية ابي الخصيب . الشارع على امتداده . الحركة اليومية الاعتيادية لناس الطريق . الجميع يمرّ ماشياً على قدمين .

« ما هو الخطأ ؟! »

غصّة غير متوقعة تبدأ من قعر حنجرته . تتحرك هناك . هذا الشعور المهيمن بمهانة لاحد لها .

« لماذا أنا ؟! »

الغصّة تكبر . تتطاول ، تكبس عليه انفاسه . طعم بالمرارة اللاذعة يتكاثف تحت لسانه . مطلوب منه يكون اقوى . محرك السيارة الجيب يدور . رجال الشرطة يتبادلون كلماتهم بينهم ، في اللحظة التي اقترب فيها حاكم مُساقاً من واحد شرطة . قيده في يده ، ورغم هذا قفز الى ظهر السيارة بخفة . غصة سليمان تأخذ تنحسر . شعور وليد بالالفة يبدأ يتنمّل في صدره .

« الرفقة!! »

بناء عليه لم يعترض سليمان ، او يحتج لما جلس حاكم لصقه ، عامداً يقرّب فمه من اذنه ، يهمسه :

ـ أهلاً بالكويتي!

٥

على اثـر وفاة الباشـا السيد هاشـم النقيـب اكتشف ورثتـه انه اوصى لعبيده واتبـاعه بتمـلّك المنـازل التي كانوا يسـكنـونهـا ، اضافة الى انـه عوّض كلاً منـهم قطعة أرض زراعية لا يستهان بها .

يوسف ـ ابو سليمـان ـ كـان واحداً من الاتبـاع المقربين ، ولأنه اعاد نمطاً من الحياة اقرب الى المترف ايام الباشا لم يستطع الاحتفاظ بالأرض الزراعية الموروثة ، فكـان ان رهنـهـا في البدء ، ليبيعـهـا بثمن بخس بعد سنتين ، ممـا اضطره لأن يعمل فلاحاً أجيراً لدى الغير لسنوات طوال ، لولا الفرصة التي سنحت مؤخراً ، حيث وُفق ينتظم حارس مخازن تمور .

ازاء الوضع المالي غير المستقر لعائلته اضطر سليمان يبعد عن ذهنه ـ بعد اتمامه دراسته الثانوية عام ١٩٤٦م ـ فكرة مواصلته دراسته الجامعية ، ليلتحق مسؤولاً عن مكبس للتمور تعود ملكيته للسيد صباح السعدون ، ريثما صادفه ـ اثناء تأديته عمله ـ أحد أبناء الباشا ، وقد اكتسب بصفته احد الوجهاء المرموقين لقب بيك .

ـ انت ابن رجلنا يوسف ؟

سأله البيك الذي لم يكن جاوز الاربعين من عمره أيامها ، وهو يجهد يتذكر ملامحه .

ـ انا هو .

اجاب بأدب . مالك المكبس كان بالصحبة .

ـ ما الذي تفعله هنا ؟

سأله البيك ، مما اضطره يجيب :

ـ اشتغل .

الاول يبدي دهشته :

ـ في مثل سنّك ؟!

دهشة البيك لها ما يبررها . سليمان ـ وقتها ـ لم يكن جاوز الثامنة عشرة من عمره .

ـ سليمان شاب مخلص منظَم في عمله .

مالك المكبس يعقّب مطمئناً ، بيد ان البيك يبدي عدم رضاه :

ـ وإن يكن!

ليلتفت الى سليمان متسائلاً :

ـ وأبوك . . اين هو الآن ؟

ـ موجود . . يعمل فلاحاً لدى . .

لكن البيك يقاطعه منزعجاً متسائلاً :

ـ يعمل فلاحاً ؟!

ليضيف مستغرباً :

ـ . . والارض التي وهبها له المرحوم الباشا والدنا ؟!

يُسقط في يد سليمان ، ماله ومال قطعة ارض باعها ابوه منذ سنوات لا يذكرها .

ـ باعها في حينه .

البيك يهز رأسه متفهماً ، يقول لمرافقه مؤكداً على حقيقة :

ـ يموت الباشا فيضيع الاتباع!

المرافق يؤكد حقيقة اخرى :

ـ ما مات الباشا وانتم خلفه!

البيك يعود يهز رأسه متفكراً في الامر . يقول لسليمان آمراً :
ـ تعال ، انت وابوك ، الينا في قصر الخورة مساء غد!

* * *

لكنه لم ينشأ في كنف القصر أيام عزّه ، كما هي حال أبيه ، ولأن البيك ـ في حديثه المقتضب ـ تعامل واياه من موقع السيد المُطاع ، اتخذ سليمان مع نفسه قراره :

«لن اذهب الى قصر الخورة! »

امه كانت السبّاقة بمعرفة خبر لقائه البيك . وحين الحّت عليه تثنيه عن عزمه واجهها بقناعة :

ـ ان كان ابي واحداً من اتباعهم يوماً ما ، فأنا لا . .

على العكس من أبيه ، حيث سُرّ بالخبر .

ـ لفتة طيبة ، ستجيء بخير عميم .

سليمان لم يمنع نفسه يقول :

ـ الخير العميم لا يأتي من صَدَقَة!

استهجن أبوه عليه ردّه .

ـ كيف تجزم بأنها صدقة ؟!

لم يمتنع سليمان يحاجج :

ـ الامر واضح .

ابوه حسم الموقف .

ـ تذهب معي . . أم لا ؟!

ـ لا .

عند عودته الى البيت مساء اليوم التالي خبّره أبوه بكلام مقتضب ايضاً يتضمن شعوراً بالاعتزاز :

ـ البيك يصر تكمل دراستك في بغداد .

ـ يصرّ ؟!

فاجابه ابوه كأنه يؤنبه :
- على نفقته الخاصة .

* * *

رفض سليمان للعرض أو قبوله . . كلاهما مشروع ، وبغداد المدينة الحلم المعشعش في خلفية الذاكرة .

معظم الصداقات الرائعة التي تشكّلت ورسخت خلال سنوات الدراسة الثانوية في ثانوية البصرة العتيدة . . الى بغداد .

استكمال الدراسة ، وهذه الرسائل . . الكرخ ، الرصافة ، الشورجة ، خان مرجان ، السينما ، المسرح ، رحلات سلمان باك ، دجلة ، مطاعم ، فنادق بالعشرات ، اسواق لا حصر ، مكتبات سوق السراي ، عالم آخر زاخر مترام محتدم .

وحين فاتح الصديقين اللذين تخلّفا عن مواصلة بغداد لاسبابه ذاتها ، قال له احدهما ، وكان مصطفى :

- لو ان الامر مرهون برغبتي الخاصة . . أنا أُفضّل تبقى هنا ، وجميل - كما اعتقد - له نفس الرأي ، سفرك يبقينا وحيدين .

جميل يؤمّن بهزّة من رأسه ، ومصطفى يستطرد :

- . . . لكنها فرصتك .

- القضية ليست اغتنام فرصة!

- وحق طبيعي لك .

- حق ؟!

جميل يبدي وجهة نظره :

- الذي نعرفه ان اباك كان واحداً من اتباع الباشا .

مصطفى يتدخل قائلاً :

- العرض المقدم من جانب ابنه البيك نوع من التعويض .

جميل يعقب برصانته المعهودة :

ـ برأيي انك تتعامل مع العرض المقدم من طرفهم على انه دين قابل السداد .

الفكرة تبدأ تجد صداها لدى سليمان .

ـ الاصح . . دين واجب السداد .

* * *

الفكرة التي سكنته :

« دين واجب السداد »

بقيت محرّكه الاساسي طوال السنوات الاربع لدراسته الجامعية .

« لابد! »

بغداد كما رسمها له خياله ، واجمل ، تواجده بين زمرة اصدقاء الثانوية منح غربته طعم الالفة . توجهه الجاد للتحصيل العلمي اضطرهم ينعتونه مشاكسة :

ـ انت حمار شغل!

الجراية الشهرية المقررة له من قبل البيك ـ على محدوديتها ـ كانت ضمن النمط المنضبط لحياته اكثر من كافية ، ولأن اباه وامه ما كانا توقفا عن الانجاب بعد ، ولأن دخل ابيه . . كان يرسل ما يتبقى من جرايته الى البصرة .

* * *

أمه اصرت توفي نذرها فوراً :

ـ قُم إذبح الخروف!

قالت لأبيه دون خشية من غضبه . لها الحق ، هي المرة الاولى التي يتخرج لها ابن ، ابوه يستمهلها دون ان يزجرها :

ـ صلي على النبي يا امرأة!

اخوته واخواته يتمسّحون به عاجزين يعبّرون عن مشاعرهم ، الفرحة التي اربكت ابويهم أربكتهم ايضاً .

ـ أول شيء نفعله . . نذهب الى البيك نشكره!

سليمان يستغرب من ابيه حماسه الزائد . كان الآن وصل عائداً من بغداد . حقيبته مازالت مغلقة . غبار السفر في قطار بغداد بصرة السريع . . مازال . .

ـ انا مُجهد يا أبي!

لكن اصرار الأب :

ـ دقائق ونعود!

سليمان يبدي استغرابه :

ـ دقائق!!

ابوه يبتسم .

ـ البيك موجود هنا ، في القصر ، جاء برفقة ناس مهمين .

عزّ على سليمان يحبط حماس ابيه ، وعز عليه يبادر يركض يشكر البيك في مثل ظرفه الماثل .

قال بمحاولة اخيرة :

ـ اخشى نُحرج البيك مع ضيوفه !!

ـ العكس هو الصحيح .

اجابه ابوه ، وهو يسحبه من يده ، وأتم :

ـ سيفخر بك كواحد من ابنائه .

شتّان بين فهمه للأمور وفهم ابيه . هل يُخبّره ، يقول له :

ـ « هو دين واجب السداد » ؟

ابوه ـ وسط سعادته الغامرة ـ يجرّه اليه ، وصوت امه يلاحقهما قلقاً :

ـ عودا بسرعة!

* * *

أبوه يحثّ خطوه . القصر ـ بجداره الخلفي العالي ـ يسدّ منافذ رؤية شط العرب . الوقت منتصف يونيو ، عزّ الحر ، كما هو مفروض ، لولا هذه

النسمات النديّة المنعشة المنسوبة لباب الهوى ، دون غيره من قرى ابي الخصيب كافّة .

ـ اظنهم يفكرون بتأجير القصر . .

خبّره ابوه وهما يلتفان حول جدار القصر ، بنوافذه العريضة التي تمتد على طول الجدار ، ليواجها بالمساحات المفتوحة المترامية لمياه شط العرب ، بلونها الفضي الملتهب تحت الاشعة العمودية لشمس الظهيرة .

ـ تأجيرهم للقصر افضل من بقائه مهجوراً هكذا .

غابات النخيل تتزاحم على الضفة الاخرى للشط ، وعدد من السيارات الحديثة الفارهة تتزاحم على القرب ، في الساحة الكائنة امام بوابة القصر .

ـ هاهم!

ابوه يهمسه في اذنه . البيك وعدد من مرافقيه الافندية يهمون يركبون سياراتهم .

ـ سيدي البيك!

نداء ابيه ـ بخنوعه العفوي ـ يخزه من صدره . مياه شط العرب بالتهاب اشدّ . البيك يتنبه للنداء . يتريّث . مرافقوه يتريثون . ابوه يحثّ خطوه أكثر .

« عدالة الاشياء!! »

قفزت الى ذهنه ، جملة اعتاد جميل يرددها بخسران منذ ايام الثانوية ، ومن غير قصد مُدرك من جانبه تباطأ خطوه .

ابوه لدى مصافحته يد البيك الممدودة اليه همّ يقبّلها ، في اللحظة التي تعفف فيها صاحبها ليسحبها .

« لماذا لم يجنبه ابوه سلوكه ؟! »

ـ أهلاً برجلنا يوسف!

البيك يلاطف اباه ، ليتساءل مبدياً اهتماماً مناسباً :

ـ . . من هذا الشاب الذي يرافقك ؟

ابوه يلهج :
ـ خادمكم . . ابني سليمان .
الدماء تتدافع في وجهه ، ووجه البيك ينفرج .
ـ سليمان ما غيره ؟
« ما غيره ؟! » كما يفهمها سليمان تتضمن جراية أمدها . . واجب السداد .
ابوه يلهج يوضح :
ـ الآن عاد من بغداد .
البيك يهتم يسأل :
ـ ماذا عن دراسته ؟
ابوه يسارع يجيب :
ـ ببركاتكم وفضلكم أكمل سليمان دراسته .
البيك يردد :
ـ ممتاز . . ممتاز .
ليحدق في وجه سليمان . يقول كمن يداري حرج الآخر :
ـ تعال سلّم علي يا سليمان!
قدما سليمان تتحركان . مياه شط العرب على مدّ النظر . ابوه يفسح له . يد البيك ممدودة اليه . ابوه يهمس له :
ـ قبّل يد سيدك!
مياه شط العرب . . البيك يتدارك الموقف ، يده اليمنى تأخذ يد سليمان ، ويسراه تمنع انحناءه .
ـ بوركت يا ولدي .
صوته بأبوّة فرحة فعلاً . العرق البارد يتفصّد في وجه سليمان .
ـ جميل ان يرى الانسان ناتج عمله .
قال البيك بارتياح يتضمن اعتزازاً ، مخاطباً مرافقيه ، وكفه باقية ماسكة

كف سليمان . أحد المرافقين يعقب :

ـ هو عمل خير . . لا شك .

البيك يصمت برهة . يوجّه بعدها حديثه لسليمان مباشرة :

ـ تدري!

ليواصل بوازع من زهو :

ـ . . مادمنا رعينا تعليمك نرعى توظيفك .

مرافق آخر يوجه سؤاله لسليمان :

ـ ما هو مؤهلك ؟

عرقه البارد يتفصد اكثر .

« لو ان اباه لم . . »

يجارون بعضهم ، ومن جانبه مطالب يجيب :

ـ تجارة .

صوته ـ كما سمعه هو ـ نشاز على اذنيه ، ومرافق ثالث يقول :

ـ عزّ الطلب!

« يجارون بعضهم! »

ـ اسمع يا سيد حامد!

البيك يخاطب محادثه الاخير بتحد مضمّن ، ليكمل :

ـ . . اذا كفلنا لك امانة سليمان وتفانيه في عمله فهل توظفه عندك ؟

السيد حامد يستجيب برضا ينم عن امتثال :

ـ بدءاً من اليوم .

البيك يربّت على كتف سليمان .

ـ مبروك يا سليمان!

« يتبارون بينهم! »

* * *

« من يتجرأ يخيّب ظنّ وليّ دراسته ؟! »

ابوه ـ وهما يودعان البيك وشلته يعودان أدراجهما ـ لا يعرف كيف يعبّر عن سعادته . هل يقدم سليمان يخيّب ظن ابيه ؟!

ـ البكالوريوس والوظيفة المنتظرة!

قالها مصطفى لسليمان كأنه يغبطه ، واستطرد :

ـ . . . دون ذلّ الانتظار على ابواب مكاتب المسؤولين . . وظيفة من مال الله . .

جميل بدوره يعقب :

ـ انت محظوظ يا سليمان!

سليمان يرد على الاثنين :

ـ لكنه ذل من نوع آخر!

الاخران يحدّقان اليه مندهشين ، فيوضح :

ـ احسبهم تصدقوا علي بالوظيفة . كما سبق وتصدقوا . .

فيقاطعه جميل :

ـ انت مازلت انساناً حالماً!

سليمان يستغرب :

ـ حالم ؟!

ظنّه ان اصدقاءه هم الاكثر قدرة على تفهّم مشاعره .

ـ لو افترضنا غير هذا . .

مصطفى تطوّع يرد ، ليكمل :

ـ . . . في كل الحالات انت بحاجة لوجيه يزكيك . أم تراك نسيت انك سليمان ابن الفلاح يوسف ؟!

«سليمان لم ينس ، لكن توالي الاحداث بالصيغة التي . . »

جميل يؤكد :

ـ الذي حدث . . ان البيك اختصر عليك الطريق .

مصطفى يثني :

ـ عدا ذلك . . الوظيفة ليست صدقة . انت موظف بمرتب محدد . والمرتب لقاء ساعات عمل .

بحسن نيتهما يتناوبانه . الامور لا توخذ ببساطتها الظاهرة . لو يدركان معنى . . ينوء انسان ما بأعباء مسؤولية لا يد له باختيارها!

« ليكن! »

المكتب التجاري الخاص بادارة اعمال السيد حامد يحتلّ الطابق الثاني من مبنى حديث يقع بمواجهة جسر المقام في العشار . العنوان والوقت موصوفان ومحددان .

* * *

قال له السيد حامد :

ـ لا تنس انك بكفالة البيك!

« مسؤولية مزدوجة! »

ثم سلّمه لمسؤول قسم تخليص البضائع .

ـ اسمع يا فيليب!

ليدلي الى الاخير بتعليماته الخاصة بتدريب سليمان ، وطبيعة عمله ، واوقات دوامه .

ـ امرك سيدي!

فيليب من التبعية الهندية . قارب الخمسين من عمره ، ورغم هذا نشط ، خفيف الحركة ، لا تعنيه ساعات الدوام . . من وإلى . . ولا حجم العمل . . ان كان كبيراً أم لا ، بقدر ما يعنيه الانجاز بالشكل الأمثل . يجيد الانجليزية بطلاقة ، مما يؤهله للتعامل مع أوراق ومستندات الشحن والتخليص كافّة ، اضافة الى كونه يحفظ كلمات عربية محدودة تكفيه تداوله اليومي .

ـ انت تمام بالانجليزي ؟

سأله فيليب يومها . فاضطر سليمان يجيب :

ـ ليس بالضبط .

عقد فيليب حاجبيه مردداً عربيته على طريقته :

ـ هذا مُشكل!

* * *

فيليب كان على حق ، وسرعان ما وجد سليمان نفسه ضائعاً وسط عالم غريب من اوراق وملفات مليئة بالرموز والارقام ، كلها باللغة الانجليزية . دراسته الاكاديمية شيء . .

« لا تنس انك بكفالة البيك! »

بناءً عليه يجب يكون عند مستوى المسؤولية . في البدء اقتنى قاموس جيب ، وبعد شهرين ـ مع توطُد علاقة عمله بفيليب ـ تطوّع الاخير يعطيه دروس لغة .

في الاسابيع الاولى لانتظامه بعمله كان يلتقي الاصدقاء ليلياً ، بعد ذلك صار عمله يأخذه اكثر فأكثر ، فلا يجد فرصة عدا يومي الخميس والجمعة .

ـ انت حمار شغل!

اصدقاؤه يعابثونه ، وحين ينقمون عليه :

ـ انت مخلص اكثر من اللازم!

«اخلاص أم مسؤولية . . أم طبيعة ملازمة ؟! »

مع قيام ثورة يوليو في مصر تضاعف نشاط ميناء البصرة . البواخر بشكل يومي ، واحياناً يكون نصيب المكتب ثلاث بواخر اسبوعياً .

فيليب آلة لا تكلَ ، وساعات الدوام ـ غير الواردة في حساب السيد حامد ـ تمتد لتشمل جانباً من الليل ، وفي حالات اخرى حتى صباح اليوم التالي .

ـ القسم بحاجة الى موظفين اضافيين!

فيوافقه فيليب :

ـ تمام .

وقد يفاجأون بزيارة غير منتظرة من السيد حامد . .

ـ كل شيء تمام ؟

ليطمئنه فيليب :

ـ تمام .

اصدقاؤه يلحون يلومونه :

ـ انت مجنون! . . هم يستغلونك!

فإن أبدى حيرته :

ـ والحل ؟

جاءه الجواب :

ـ لا مبرر لهذا الاخلاص كله!

يحاول يوضح لهم :

ـ ليس اخلاصاً بالمعنى . . . هو في جانب منه أداء عمل .

لكنهم يفحمونه :

ـ وما الفرق ؟!

ايام الاسبوع تتواصل ببعضها . الخميس على الجمعة .

ـ حتى يوم راحتك!!

ـ ضغط العمل .

ـ خير لك تتخذ قرارك!

ـ قراري ؟!

ـ تترك عملك هذا!

«في البدء شجعوه ، والآن . . »

ـ ابحث لك عن عمل غيره!

«بهذه السهولة ؟!»

عدا عن ذلك هناك حالة التحدي اليومي . حجم العمل المتراكم ، ومتعة التسابق مع الانجاز ، هناك هذا الفيليب الرائق بجسمه الدقيق وشاربه الفضي الكثّ .

ـ شغل تمام ؟

ـ تمام .

ساعات العمل الليلي . السكينة والظلام وهما يهيمنان على منطقة المقام وما حولها ، ولا يعكّرهما سوى صفارات العسس بين الفينة والأخرى . لعلّ الاصدقاء لم يجانبوا الصواب لما نعتوه :

ـ انت حمار شغل!

الايام تتوالى . معطيات ثورة يوليو في مصر . محمد نجيب جمال عبد الناصر . صلاح سالم . . آخرون . هنا القاهرة .

الاصدقاء ينشغلون يتابعون متغيرات مصر . محمد نجيب يشارك ، أو يُشَكّ انه يشارك ، من قريب او بعيد ، بالتآمر على الثورة ، محاولة اغتيال جمال عبد الناصر . الاخوان . .

ـ انتهى عهد الباشوات والبيكوات في مصر .

المذياع يكتسب اهمية خاصة . نشرات الاخبار تكتسب .

ـ عسى ان يجيء دور البيك الذي يخصّك!

يندهش من نسبته اليه :

ـ يخصني ؟!

الاصدقاء يتضاحكون :

ـ ان لم يخصك . . يخص من ؟!

ـ . . .

ذات يوم دخل عليه السيد حامد مكتبه .

ـ انا راض عن عملك .

ـ اشكرك .

ـ انت أمين ومخلص فعلاً .

ـ حسن ظنك .

ـ شيء ما في بال السيد حامد يزمع يصرّح به ، فما هو ؟!

ـ كنت قررت أُعدّل مرتبك ، انما . .

انطباع بالامتعاض يرتسم على وجهه لدى استطراده :

ـ . . البيك ، على ما يبدو ، يريدك تحت امرته .

* * *

« تحت امرته »

التبعية حقيقة واقعة ، موجودة ، ومقصودة .

« اين امكانية الاختيار اذن ؟! »

ـ طلب مني أبلّغك . . تذهب اليه في قصر الخورة .

قالها السيد حامد قبل مغادرته مكتبه ، وكانت آخر العهد به ، في حين ان آخر عهد سليمان بالبيك يوم التقاه برفقه ابيه عند قصر باب الهوى .

ـ « خادمكم . . ابني سليمان »

وحين التقى البيك في قصر الخورة بادره الاخير مرحباً :

ـ أهلاً بولدنا سليمان!

التباسط مدعوماً بهاجس الأُلفة ، وهذه المشاعر المتناقضة .

ـ قبل ايام التقينا السيد حامد . سألناه عنك ، فشكرك لنا .

القصر . الابهة . الخدم . الكرسي المترامي الذي يجلس عليه ، وصوت البيك يتواصل :

ـ قال عنك انك متفان في عملك .

« ليس من بديل آخر »

البيك يكمل بلهجة تتضمن أُلفة اكثر :

ـ قررنا نغيظه . نأخذك منه .

سليمان غير قادر يلمّ اطراف الكلمات .

« نغيظه . . نأخذك . . »

البيك يفلت ضحكة مرتاحة .

ـ الأمر ليس هكذا .

يتدارك ، ويكمل :

ـ . . الحقيقة نحن بصدد إنشاء شركة صغيرة في الكويت ، ويلزمنا من نعتمد عليه . احد الخدم يتقرب حاملاً صينية مذهّبة ، تحوي قدحي شاي .

ـ . . .انت واحد من رجالنا الاكفاء . .

التبعية حقيقة واردة . وكلمات البيك تؤكد :

ـ . . .ونحن أحق بك من السيد حامد أو غيره .

* * *

يتداولونه بينهم . يغيظون بعضهم . يتخذون قراراتهم بالشكل الذي دون ان يكلفوا انفسهم عناء . .

ـ ما رأيك ياسليمان ؟

ما الحكمة من سؤاله عن رأيه مادام القرار قد . . ؟! . . هم أولياء نعمة . أبوه من قبله ، والآن هو . .

ـ ما رأيك يا . .

ابوه ـ على طريقته ـ باع ارضهم التي اورثوها له . فهل يبيع سليمان شهادتهم الباكالوريوس ؟!

لو انه تنبّه للمعنى الكامن وراء ما قاله الاصدقاء :

ـ لا مبرر لكل هذا الاخلاص!

لو ادى عمله في مكتب السيد حامد بما يتناسب مع اجره حسب! . . لو . .

مصطفى ـ على غير عادته ـ قال بنغمة حزينة لدى تلقيه خبر الكويت :

ـ ثقتهم بك ، على ما يبدو ، زادت عن حدّها!

ابوه ردد بتسليم حزين :

ـ عسى ان تكرهوا شيئاً . .

واضاف :

ـ . . على العموم ، الكويت ليست بعيدة .

امه . اخوته . اخواته . فيليب وحده قال :

ـ كويت تمام .

ولم ينجح باخفاء سحابة الحزن التي ظللت عينيه .

* * *

يبدو ان الدين الواجب السداد واجب السداد الى ما لانهاية . الشركة الصغيرة قيد الانشاء ، بإسم شركة صيانة انابيب التبرول ، مما يعني ارتباطاً مباشراً بالمقيمين من المسؤولين ، انجليز او امريكان .

المكاتبات . المراسلات . اللقاءات . . ليجد سليمان ان لغته الانجليزية التي أخذها عن فيليب فقيرة حد الخجل . مما اضطره يتوفر يدرس بتكثيف حاقد ، أمل من خلاله مشاغلة نفسه عن احساسه المتنامي بالغربة والانقطاع .

الكويت ـ كما عرفها في سنينه الاولى ـ مجتمعان منفصلان ، اضطر يعيش على الهامش منهما . الاول مجتمع كويتي عربي خليط يعمّر مدينة الكويت وضواحيها ، وهو بعيد عنه ، والآخر مجتمع اوروبي خليط ايضاً ، يعمّر مدينة الاحمدي ، حيث كان على سليمان يسكن قريباً من مقر شركته .

ايام غربته في بغداد كان تعويض الاصدقاء والناس الذين يعرف يألفهم ، اما وغربة الاحمدي فليس من تعويض سوى رسائله المتبادلة مع اصدقائه ، وقد ضمّنهم فيليب .

علاقته بالبيك اقتصرت على مكالمات تلفونية اسبوعية منتظمة . اصرّ الأخير ـ ربما دون قصد ـ يوقتها مساء كل يوم خميس .

ـ كيف سير العمل ؟

لو كان فيليب لأجاب :

« تمام »

والعمل بشركة صيانة . . يتوسع طردياً بازدياد انتاج البترول الكويتي . عمال ، مزيد من العمال . . كتبة ، مزيد . . مهندسون . .

ـ اتصل بالمسؤول فلان ، بلّغه تحياتنا ، يسهل لك مأموريتك .
العمل عملهم . الشركة شركتهم ، شهادته الباكالو . . .
« انت واحد من رجالنا . . »
ولأن العمل بدأ به صار مركزه .
« السيد المدير العام . . »
لدرجة ان اي غياب عرضي له يعني احتمال إرباك . .
ـ « كيف سير العمل ؟ »
عدا حالات طارئة :
ـ « يجب تسافر لندن ليومين . . »
توقيع عقد توريد آلات خاصة بعمل الشركة .
ـ « الى البحرين ، ليوم واحد . . »
الاوامر تأتي عبر التلفون .
« اما من سفرة موجزة الى البصرة ؟! »
وحين تنبه الى :
« لم أمرض مُذ جئت! »
كانت الاجابة :
« لا وقت للمرض »
وذات يوم وردته في بريده رسالة كان قد بعثها قبل فترة الى فيليب ، دقق في عنوان المرسل اليه .
« مضبوط »
الفكرة الواردة في البال :
« فيليب سافر الى بلده »
تداعت في ذهنه ملامح الوجه الخمسيني . كان فيليب ، وسط انشغاله الكلّي بالعمل ، يشرد بذهنه احياناً .
ـ فيليب . . مابك ؟

وجه فيليب بأسى شفيف ، يجيب :

- صار زمن بعيد عن اهلي!

ليبذل جهده يسيطر على انفعاله . يفتعل ابتسامة مطمئنة .

- شغل كثير . . سيد حامد تمام . .

وحتى يقطع سليمان ظنه باليقين كتب الى جميل يرجوه يذهب الى مكتب السيد حامد .

« اسألهم هناك عن فيليب! »

البريد الذي يلي حمل له رد جميل .

« فيليب مات »

وما توفرت له فرصة يسافر الى اهله .

« من يعوض من ؟! »

* * *

« دينهم ما عاد واجب السداد! »

فرحته اكبر من ان تحتمل . مدينة الاحمدي ، بكل تراميها ، عاجزه تحتويه فرحته .

« هنا بغداد . . اذاعة الجمهورية العراقية »

المذياع يصدح :

« بيان رقم واحد صادر عن مجلس قيادة الثورة . . »

وحده في بيته . وحده والسعادة السحرية ترعش خلاياه كافّة .

« الثورة في بغداد! »

يضحك . يبكي . يرقص . وحده الرقص قادر يحتويه مشاعره الجيّاشة .

« الثورة من بغداد! »

لو كان الآن بين اصدقائه!!

« عهد الباشاوات والبيكوات ولّى دون رجعة! »

ثورة ١٤ تموز كانت صبيحة يوم اثنين ، ومساء يوم الخميس منه رنّ

جرس تلفون سليمان .

ـ آلو!

كان صوت البيك .

ـ كيفَ سير العمل ؟

هل يصدق سليمان اذنيه ؟! . . اين الثورة التي قضت قضاءً مبرماً ؟! . .

وللمرة الاولى من عمر علاقته بالبيك يتجرأ سليمان يسأل :

ـ كيف الحال عندكم ؟!

ليأتيه رد البيك هادئاً :

ـ اطمئن . . نحن الآن في بيروت .

معاناة سليمان ذهوله تخرس لسانه .

* * *

في دخيلته قرر سليمان يفاتح البيك في مكالمته التلفونية اللاحقة بأمر طلبه اجازة من العمل ، مدّتها كذا . .

ـ كل هذه السنوات ، وأنا . .

البيك للوهلة الاولى تفاجأ

ـ اجازة ؟!

لكنه سرعان ماتفهّم الموقف .

ـ لك الحق . الفوضى تعم البلد . من واجبك تسافر تطمئن على عائلتك ، إنّما . . من رأينا لا تتعجل السفر . . اصبر قليلاً ريثما تنجلي الاوضاع!

« هل يدرك البيك ان فهمهما للأوضاع مختلف ؟! »

ـ . . على العموم . .

افاد البيك . وختم مكالمته :

ـ . . نحن نعد انفسنا للمجيء الى الكويت ، وبعدها تستطيع تسافر .

* * *

اعداد البيك نفسه كي يجيء استنزف ما يزيد على السنتين ، كانتا

الاطول والاقسى من عمر سليمان .

وكما كانت الحال مع ثورة يوليو حين تضاعف نشاط ميناء البصرة ، فإن ثورة تموز ـ بما ترتب عليها ـ أدّت الى زيادة الانتاج النفطي الكويتي ، مما زاد ضغط عمل شركة صيانة . .

وسط هذا كله ، ومن خلاله ، انبثقت له نجوى ، لتحقق وجوداً آخر ، أخاذاً زاخراً لا عهد لسليمان به من قبل .

* * *

الهاتف الآتي من طرف البيك :

ـ غداً نصل طرفكم .

مع يقين سليمان :

« ثورة تموز وضعت حداً حاسماً لكافّة اشكال الهيمنة والتبعية ـ ابوية او غير . . ـ تجاه البيك »

فإن هاجسه المقيت :

« دين واجب السداد! »

اصبح ـ بحكم وصول البيك وتسلمه زمام شركته ـ سداداً فعلاً .

« السنوات السبع سداد وزيادة! »

ـ متى تسافر ؟

سأله البيك بعدما اطمأن الى انتظام عمل الشركة ، فكان ان اجابه سليمان بشجاعة النّد :

ـ الآن إن أمكن!

البيك يأخذها بحسن نيّة ،

ـ لك الحق .

ليضيف بكياسة :

ـ اطمئنانك على اهلك حق .

ما الذي يعقّب به سليمان ؟! . . البيك في دخيلته يرى نفسه منصفاً

تجاهه . وأكثر .

ـ متى تعود ؟!

هل يجيبه : الاحتمال غير وارد ؟! . . أم يؤجل اعلان قرار فك التبعية الى حين ؟!

ولأنه لا مناص . . أجاب :

ـ لا ادري بالضبط .

حدّق اليه البيك بنظرة نافذة ، قبل ان يردد متفهماً .

ـ لا بأس .

ـ . . .

المشاعر المحتدمة داخل سليمان :

«بدءاً من الآن أستطيع اختار . . أعود أو لا أعود»

سبع سنوات من اغتراب مسلوب الارادة . البصرة أولاً . الاصدقاء أولاً . الأهل أولاً .

ـ بلغ سلامنا الى رجلنا الطيب . . والدك يوسف!

قال له البيك عند توديعه . لحظتها بحث سليمان في داخله عن مشاعر النقمة ، ولأنها لم تكن أجاب بصدق :

ـ يصل .

بيد ان ما حدث امس . . الدروازة وتوالي الاحداث . . وما كان السلام يصل . . ما كان سليمان يصل . .

٦

كانت الساعة جاوزت الثانية ظهراً بقليل حين تحركت السيارة الجيب . الثلاثة : سليمان ، حاكم ، هادي ، يجلسون القرفصاء مخفورين في المؤخرة . حقيبة سليمان تحتّل الجزء الاوفر من ارضية السيارة . الشرطي ـ حامل ملفاتهم ـ يجلس غير بعيد عنهم ، يراقبهم صامتاً . في المقعد الامامي للسيارة شرطيان . احدهما يتولى القيادة ، يتبادلان حديثاً يدور حول انزعاجهما من المشوار الذي كلّفهما وجبة غدائهما .

الاغصان العارية لشجرة التوت الهرمة عند زاوية الجسر الخشبي لنهر ابي الخصيب تلامس سقف السيارة الجيب . المقهى الشعبي بأرائكه الخشبية المنتشرة تحت الظلال المفترضة لأغصان شجرة التوت يقفر من رواده .

« القيلولة »

هادي يغمغم كلماته الغامضة مع نفسه . السوق الرئيسية لأبي الخصيب تبدو اقرب الى المهجورة . غالبية الدكاكين مغلقة ، عدا القليل منها ، حيث تركها اصحابها مفتوحة لحين عودتهم اليها عصراً .

عند نهاية السوق يقع دكان الحاج منصور . واحد من معارف ابيه . لو انه كان موجوداً . . لو انه رأى « سليمان » بوضعه المخفور . .

قبل ان ينهي الضابط تحرير صحيفته الجنائية الروتينية ادرك سليمان انهم بصدد اخضاعه لصيغ ما ، مجهولة لديه من الاجراءات والتحقيقات ، تطول او

تقصر ، لا يدري .
ـ معنى هذا اني معتقل ؟!
كان قد سأل الضابط حينها ، فرد عليه الآخر موضحاً :
ـ رهن التحقيق .
الصيغة عائمة لديه .
ـ تحقيق حول ماذا ؟!
الضابط يحدّق الى سليمان متشككاً ، كأنه يقول له :
« تعرف وتكابر!! »
ورغم هذا يجاريه سؤاله ، يجيب :
ـ حول التهمة ، او مجموعة التهم المنسوبة اليك .
هل يعقب يقول للضابط :
« لديكم سوء فهم مزدوج ؟! »
ولأنه يدرك لا جدوى ذلك مادام زمام اموره ـ كما افهمه الضابط ـ بين أيد اخرى عليا ، آثر يسأل :
ـ متى ينتهي التحقيق ؟
الضابط يبسط كفيه .
ـ لا أعرف .
ويضيف موضّحاً :
ـ . . هم وحدهم يعرفون .
سؤال سليمان ينفلت عفوياً :
ـ من هم ؟!
والآخر يتطوع يرد :
ـ الجهات التي كانت وراء اعتقالك .
للمرة الثانية سؤال سليمان ينفلت :
ـ جهات ؟!

الضابط ـ للمرة الثانية ايضاً ـ يحدّق اليه متشككاً ، مما يضطره يتجاوز سؤاله ، ليقول مضمّناً رجاءً :

ـ أهلي لا يعرفون أمر اعتقالي!

الضابط يفهم المعنى المرادف . يقول بحافز المكاشفة :

ـ هذا عنصر اساسي من عناصر خطتهم لاعتقالك . عزلك عن كل من تتصل بهم .

سليمان يذهل :

ـ عزلي ؟!

الآخر يبتسم متفهماً ، يدلي :

ـ اجراءات احترازية تستدعيها مقتضيات امنية .

«اجراءات . . مقتضيات . . »

ينتابه احساس حاد بالضياع . يشعر وكأنه محاط من كل جانب بمساحات مترامية من رمال متحركة تترصد به . وأن أية حركة . . أي سؤال . . أي طلب حتى لو اتخذ صيغة رجاء . .

ـ كان بودي . .

صوت الضابط يستعيده . يده تشخص الى التلفون . يتم :

ـ . . لكن هواتفنا ـ كما تعرف ـ خاضعة للمراقبة .

هل يستوقف الضابط . يقول له :

ـ «ليس هذا»! ؟

أم يخبره :

ـ «باب الهوى باقية من غير هاتف» ؟!

* * *

دكان الحاج منصور مغلقة . السيارة الجيب تبدأ تزيد سرعتها سالكة الطريق الرئيسية باتجاه مركز المدينة .

المعالم لم تتغير عما كانت عليه . محطة الوقود بمضختها اليدوية

الوحيدة . المفرق . الشارع المتفرع لمركز الاطفاء .

«التغير طال النفوس وحدها!»

السيارة تواصل . والهاجس الذي ظل يلحّ على سليمان . . ضرورة أن يصل نبأ اعتقاله الى اهله ، أو أحد اصدقائه .

«بادرة إنقاذ!»

الفكرة ـ مادامت مجردة ـ معقولة . يلتفت الى حاكم ، يسأله بصوت خفيض :

ـ كيف تعرف تتصل بأهلك ؟

حاكم يَفهمها مباشرة . يجيب :

ـ في وضعك لا أمل لك .

الكلمات التي تبادلاها تستفزّ الشرطي .

ـ الكلام ممنوع!

لهجته نافذة ، متوعدة .

ـ متأكد ؟!

قال حاكم للشرطي بصيغة سؤال يتضمن روح الدعابة ، قبل ان يستلّ علبة سجائره من جيبه عند الصدر . يداه مقيدتان . يمدهما مع العلبة باتجاه الشرطي .

ـ . . التدخين . . ممنوع ايضاً ؟!

سليمان يندهش ازاء رد فعل الشرطي تجاه علبة السجائر . يده بحركة ـ تبدو لا ارداية ـ تمتد الى العلبة .

ـ بصوت خفيض .

قالها الشرطي مُعطياً إذناً مشروطاً بالكلام . حاكم يتمتم بعرفان :

ـ شكراً .

ليلتفت الى سليمان .

ـ ان لم تكن تدبّرت أمر اتصالك بأهلك قبل اعتقالك . .

قال حاكم بلهجة العارف ببواطن الامور ، واستطرد :
- . . فأنت لن تقدر ما بعدها .
الحيرة تعود تشلّ تفكير سليمان .
- والحل ؟!
ابتسامة اسيانة ترتسم على فم حاكم .
- ليس من حل .
الحيرة تمتزج بالذهول .
- حتى متى ؟!
- حتى يتم البتّ بأمرك .
سليمان يتذكر ما قاله الضابط ، يقول كمن يردد :
- اجراءات التحقيق . .
فيقاطعه حاكم مؤكداً :
- وما يترتب على التحقيق .
سليمان لايجد ما يقوله ، وحاكم يذكّره :
- . . افهم وضعك! . انت أمن ثورة!
كلماته الاخيرة تتضمن معنى :
« حُكم الاستحالة! »
سليمان لا يجد ما يقوله . هادي - وقد استثاره جدل الاثنين - يردد محدثاً نفسه ، بصوت مسموع :
- انا أمن ثورة!!
الشرطي يمتعض من سماعه صوت هادي . يلتفت اليه يزجره :
- الكلام ممنوع!

* * *

أمن ثورة . . مقولة ترددت على مسامع سليمان مرات عديدة خلال ساعات قليلة ، ولم يوفق يفهم أبعاد معناها . . عدا كونها : خطيرة .

يدرك انه كان بمعزل عن ملاحقة الاحداث والمتغيرات المتسارعة في الساحة العراقية خلال السنتين الأخيرتين . . ما بعد الثورة .

الانغماس الكلي في العمل ، مما يستنزف منه جل وقته . الغربة والانقطاع وطبيعته الانطوائية التي جعلته ـ منذ البدء ـ بمنأى عن خوض أيّما تجربة سياسية . . حزبية أو نقابية .

يذكر ان فرحته لدى سماعه : بيان أوّل صادر عن مجلس قيادة الثورة ، كانت بزخم وطعم يختلفان بالمرة عما صادفه من حالات فرح أخرى طيلة حياته .

كان وحده ، الاحداث جديدة . المتغيرات جديدة . المشاعر جديدة . الاسماء التي صارت تتردد من خلال المذياع جديدة ، ورغم هذا وجد نفسه يحبّها . نجيب الربيعي . عبد الكريم قاسم . عبد السلام عارف .

كان وحده . ارتباطه بالعراق من خلال المذياع ، وحتى يكون أكثر قرباً جهد يحصل على صور الثلاثة ، وضعها في أُطر ذهبية . علّقها في الصدر من منزله .

الاحداث تتوالى . نجيب الربيعي يتوارى . يستعيد سليمان نتف احاديثه مع اصدقائه ما بعد ثورة يوليو في مصر ، وامكانية ضلوع محمد نجيب . التاريخ يعيد نفسه . . أم ماذا ؟!

ودّ لو يستفهم اصدقاءه ، لكن جميع الرسائل البريدية ـ من وإلى العراق ـ فتحت بمعرفة الرقيب .

الاحداث باقية تتوالى . عبد السلام عارف يتوارى . الاحداث . . وهذا الفرح الذي بات مشكوكاً به . الصور من منزل سليمان ـ الاحمدي ـ بإطار ذهبي واحد ، يضم صورة زعيم واحد .

«من يضلع في ماذا ؟!»

* * *

السيارة الجيب تقترب من قرية السبيليات . يذكر ان مقهى شعبياً

بسقيفة عريش كان هنا على ناصية الطريق .
« تغيّر الاشياء!! »
جسر خشبي ، ثم باب الهوى . الدرب الزراعية . .
« لا أحد! »
صوت الضابط يتداعى :
« - . . عنصر أساسي من عناصر خطتهم لاعتقالك ، عزلك عن كل من تتصل بهم »
يتذكر صورة داخل اطار خشبي ذي قاعدة ، كانت موضوعة على يمين مكتب الضابط . الصورة بالالوان المائية . عبد الكريم قاسم يبتسم بشفافية رائقة وواثقة في الوقت نفسه .
« هذه الصورة!! » .
فجأة يحضره بيته في الاحمدي . البهو من البيت . الجدار من البهو . الصورة الوحيدة المتبقية . الذاكرة تضاء .
« الصورة هي . الالوان المائية هي . الابتسامة . . »
كانت صورة الغلاف لمجلة صباح الخير المصرية . يذكر انّه اقتنى المجلة بقصد غلافها .
اقتطعه ، ثم اطاره الذهبي .
« - . . عزلك عن . . »
كان ذلك قبل أن تسوء علاقات يوليو تموز ، فتنشب بين الثورتين حروبهما الاذاعية .

* * *

الادارة العامة لأمن البصرة . مبنى حديث مقارنة مع المباني المجاورة . يتألف من طابقين وسرداب . يقع على الناصية من طريق عشار معقل ، في منطقة أم البروم ، غير بعيد عن مبنى متصرفية لواء البصرة .
- وصلنا .

رددها الشرطي مخبَراً ، فصدرت عن هادي ردّة فعل دالّة . إنكمش على جسده ، رافعاً بصره تجاه السماء .

الساعة كانت جاوزت الثالثة عصراً . الناس بحركة ناشطة عند مدخل سوق الخضار . سينما الحمراء القديمة تبدأ تستقبل روادها .

ـ انزلوا!

القيد ليس ثقيلاً ، ولا معطلاً ، انما الناس . . هذا التوزع المقلق لدى سليمان ، ما بين طموح الاّ يراه ايّ من معارفه وهو رهن الاعتقال .

« حالة طارئة!! »

وأن يراه من يعرفه فيسارع يختبر . . قبل فوات الاوان .

* * *

يقفون يصطفون عند باب غرفة الضابط المسؤول . حاكم يهمس مُصرّحاً عن رغبة طموحة :

ـ بودّي ادخن سيجارة!

ويكتفي بالتصريح وحده . هادي ينكمش لابداً في الجدار ، وجهه بتقاطيع حادة تدلّ على انه عاش حياة قاسية . عيناه تدوران في محجريهما قلقتين .

الباب الموارب لغرفة الضابط يكشف عن جانب من المكتب . الشرطي المرافق يتقدم حاملاً ملفات . يدخل . يتناهي الى الاسماع صوت تحية استعداد عسكري .

ـ ملفات المعتقلين الجدد . . سيدي .

ثواني صمت يعقبها صوت الضابط :

ـ حاكم سلطان!

حاكم بهاجس المباغتة كمن يكتشف :

ـ انا!

في اللحظة التي يطل الشرطي . يشير الى حاكم .

ـ الضابط يطلبك!

حاكم يتبادل مع سليمان نظرة مشوبة بالتوقع ، قبل ان يتوارى هو والشرطي عبر الباب الموارب . هادي يلبد في الجدار اكثر . صوت الضابط يسمع من داخل :

ـ انت حاكم سلطان ؟

صوت حاكم :

ـ نعم .

ـ هل لديك اقوال معينة تدلي بها قبل ايداعك ؟

اجابة حاكم تُسمع واضحة :

ـ لا .

لحظة صمت يعقبها أمر من الضابط :

ـ خذه!

ـ أمرك سيدي .

رد الشرطي بإمتثال ، ليخرج بصحبة حاكم .

ـ تعال من هنا!

حاكم ينقاد صامتاً . يجري تسليمه من شرطي الى آخر . حيث يتولى الاخير سوقه بإتجاه ممر طويل على اليمين ، يغيبان في الداخل .

ـ هادي جواد!

من جديد يتعالى صوت الضابط . هادي ينتفض . يتبادل مع سليمان نظرة هلعة ، كأنه يستنجد به . الشرطي يقترب منه .

ـ تعال!

يغيبان في الداخل . شرطي آخر يقف على مقربة . يحدج سليمان بنظرة متطفلة .

« كيف تؤدى مهنة الشرطي ؟! »

الضابط يُسمع من داخل :

ـ انت هادي جواد ؟
صوت هادي برعشة واضحة :
ـ انا .
ـ هل لديك اقوال معينة تدلي . .
هادي مقاطعاً استرسال الضابط :
ـ نعم . . انا بريء!
ردد بلوعة ، وأتم بأعمق :
ـ . . اقسم بالله بريء!!
ليأتي صوت الضابط ناهراً :
ـ غير هذا!!
هادي يتمتم حائراً :
ـ غير هذا!!
الضابط بنفاد صبر :
ـ لستُ القاضي المكلّف باصدار حُكم براءتك أو عدمها!!
الشعور بالضياع يتبدى من صوت هادي :
ـ عدمها!!
نفاد صبر الضابط يتأكّد أكثر :
ـ هل لديك أقوال معيّنة تدلي بها قبل ايداعك ؟!
الضياع لم يتخفف من صوت هادي . ردد مأخوذاً :
ـ ايداعي ؟!
الضابط زاجراً :
ـ انتهى .
ليصدر امره الى شرطيه :
ـ خذه!
لحظتها تنبّه هادي فاستدرك بكلمات سريعة متوسلة :

_ *لدي ما أقوله!*

تنفلت عن الضابط زفرة ملل .

ـ تكلّم!

هادي مستجمعاً صوته :

ـ ابني عبد الرضا يخدم جندياً مكلّفاً في الجيش

الضابط بلؤم :

ـ أي جيش ؟!

هادي مؤكداً :

ـ العراقي .

الشك في سؤال الضابط :

ـ العراقي ؟! . . ام الايراني ؟!

لتأتي اجابة هادي بصيغة من يدافع عن نفسه :

ـ العراقي . . والله العراقي!

شك الضابط مازال :

ـ الاوراق تقول شيئاً آخر!

الشعور بالضياع يعود يشمل صوت هادي :

ـ شيء آخر ؟!

التوضيح يجيء من الضابط :

ـ ورد في ملفك . . حسب اقوالك . . ان ولداً من اولادك عضو في احدى تنظيمات الجيش الايراني!

الامور تلتبس على هادي :

ـ عضو ؟!

الضابط يلزم صمته ، وهادي يبذل جهده يفهم .

ـ لعلكم تقصدون ابني الآخر . .

ـ . . .

ـ . . أحد أولادي من زوجتي الايرانية يدعى صادق . هو ايراني . من مواليد المحمرة . يخدم جندياً مكلفاً في الجيش الايراني .

الضاط يبقى لازماً صمته ، وهادي يتابع بمحاولة لفك اللبس :

ـ ولدي الذي أعنيه . هو عبد الرضا . الابن الاكبر من زوجتي العراقية . من مواليد ناحية السيبة . هو حتى هذه الساعة يخدم في الجيش العراقي .

تعقيب الضابط يصل واضحاً :

ـ ولاء مزدوج!

فهم هادي يستغلق عليه .

ـ مزدوج ؟!

الضابط يصيغ فكرته سؤالاً :

ـ ولاؤك بالاساس لمن ؟!

هادي بعد تفكير قصير :

ـ انا عراقي يا سيدي!

سؤال الضابط يتضمن هزءه :

ـ الى اي حد ؟!

الاجابة تتكسر في فم هادي :

ـ لا أدري!!

الضابط بنوع من الحسم :

ـ اوراقك تقول انك من التبعية الايرانية!

هادي مدافعاً :

ـ والعراقية .

يصمت برهة قصيرة ، قبل ان يستطرد :

ـ . . انا من التبعيتين .

ـ كيف ؟!

سؤال يطلقه الضابط ، كما لو انه سؤال عارض ، ليواصل مغيراً مجرى

التحقيق :

ـ تقول عن ابنك عبد الرضا انه جندي في الجيش العراقي . .

ـ نعم .

ـ ما مدى صلة ارتباطه بك ؟

ـ هو ابني

صوت الضابط وقد عاد اليه نفاد صبره :

ـ ابنك عبد الرضا . . هل كان يزودك بمعلومات معيّنة خاصة بالجيش العراقي ؟

هادي ـ وقد فهم القصد ـ يوشك ينهار :

ـ لا والله يا سيدي!

الضابط مستفزاً :

ـ لماذا ذكرت اسمه اذن ؟!

رد هادي يصل متعلثماً :

ـ أردت . . أن . . أقول . .

الآخر يستعجله :

ـ تقول ماذا ؟!

اللعثمة تتجلى اكثر :

ـ انا وكل اولادي هنا . . في خدمة الوطن .

الاحساس بالاشمئزاز يتجلّى في تساؤل الضابط :

ـ واولادك هناك ؟!

هادي لا يعرف يجيب . وتساؤل الضابط . .

ـ . . في المحمرة . . بخدمة من ؟!

هادي وقد انهار تماماً :

ـ سيدي . .

فتخرسه صرخة :

ـ يكفي!

اشمئزاز الضابط كان وصل حده .

ـ خذه!

قال آمراً شرطيه ، ليستجيب الاخير على الفور :

ـ امرك سيدي!

* * *

حين خرج هادي بصحبة الشرطي كان بعينين غائرتين منطفيتين .

ـ إلى أين ؟!

وجه سؤالاً تائهاً الى الشرطي . عيناه لم تلاحظا وجود سليمان بوقفته تلك .

ـ . . . اين ؟!

الشرطي وهو يسوقه أمامه يجيبه بلهجة تدعو الى تطمينه :

ـ لا تخف!

« التعاطف وارد . . أم ماذا ؟! »

الممر الطويل الذي سبق وغاب فيه حاكم يستقبل كلاً من هادي والشرطي ليغيبا فيه .

« الى اين ؟! »

سؤال آخر طرأ على بال سليمان .

* * *

ما خطر لسليمان ـ وهو يدخل مكتب ضابط المديرية . يدقق في وجه الضابط علّه يصادف رفيق صبا أو زميل دراسة ، كما سبق وراوده أمل ما ، لدى مثوله امام ضابط مخفر ابي الخصيب .

« غير وارد! »

الضابط الجالس الى مكتبه قارب الاربعين . جسمه بامتلاء واضح . ابرز ما في وجهه شاربه الكستنائي الكثّ .

ـ انت سليمان يوسف ؟

الملف مفتوح أمامه . المظروف الحاوي جواز سفر سليمان ومحفظته الى جواره .

ـ نعم

الضابط يحدّق في وجه سليمان . نظرته أقرب الى المحايدة منها الى العدائية .

ـ أين بقية أوراقك ؟!

سؤاله يدلّ على استغرابه . مطلوب من سليمان ـ للمرة الثانية خلال هذا اليوم ـ يجد عذراً لنمط من اجراءات لا يعرف عنها شيئاً .

ـ لا توجد أوراق اخرى .

وحتى لا يثير حفيظة الضابط لسبب ما مجهول لديه يضيف مظهراً تأدُباً :

ـ ضابط مخفر ابي الخصيب هو الذي كتب . .

الضابط من غير أن تُستثار حفيظته يسكته بإشارة من يده ، بعد ان توفر للورقة الوحيدة داخل الملف ، يقرأها بتمعن .

ـ لم يستجوبوك!!

صوته محايد . لا يتضمن سؤالاً بقدر ما يتضمن اخباراً . سليمان لا يجد ما يعقب به . الضابط يكمل :

ـ صحيفتك الجنائية بتاريخ اليوم!

سليمان يلزم صمته ، ريثما وُجه اليه سؤال :

ـ متى اعتقلت ؟

فأجاب :

ـ البارحة .

تساؤل الضابط يشي بخطورة الموقف :

ـ لماذا حوّلوك الينا بهذه السرعة ؟!

ـ . . .

مع انتهائه من قراءة الصحيفة الجنائية لسليمان تندّ عن رأسه حركة تدل على إدراكه الحالة الماثلة .

« لهم فهمهم الموّحد! »

يمدّ يده الى المظروف . يفضّه . جواز سفر سليمان ومحفظته . يبدأ بجواز السفر .

ـ جواز سفرك ؟

ـ نعم

ـ ماالذي دعاهم لمصادرته ؟!

ـ لا اعرف .

يتصفح جواز السفر . يتوقف عند اشارات معينة . يعود يهز رأسه بحركة دالّة على تفهّم الحالة الماثلة .

« هل ستجري نسبته الى العهد الملكي ؟! »

فم الضابط ينفرج عن ابتسامة صغيرة ذات دلالة .

ـ من ذوي الشأن!!

سليمان يعجز عن ادراك المعنى مباشرة . يستدرك تأدّباً :

ـ عفواً ؟!

الضابط لا يتوقف عند استدراك سليمان . يضع الجواز جانباً . يأخذ المحفظة .

ـ وهذه ؟

وقبل ان تتوفر لسليمان فرصة الرد . دس الضابط اصابعه داخل المحفظة ، اوراق نقدية عراقية . يتطلع الى سليمان . عيناه تتضمنان شيئاً من الفة متفهمة .

ـ لماذا صادروها ؟!

الدولارات الامريكية . الدنانير الكويتية . الورقة الصادرة عن شركته . باقية في جيبه . تضغط صدره .

« لوفكروا يفتشون له ثيابه!! »
واجابته :
ـ لا ادري!
تصدر عن الضابط غمغمة تبرم خافتة :
ـ جهل!!
يفكر لثوان ، يقول كأنه يحادث نفسه :
ـ أيّما انسان معرّض يحمل نقوده معه .
ليأتي قراره مفاجئاً .
ـ خذ نقودك!
قال مادّاً يده بالمحفظة تجاه سليمان ، واضاف كمن يخلي طرفه :
ـ . . ربما تحتاجها .

* * *

هذا الضابط غيره عن ذاك . لم يواجهه بأسلوب عدائي في البدء ، ليتحول فجأة الى متعاون ، فينسبه الى العهد الملكي . وتيرة التعامل هنا تكاد تكون واحدة . اسلوب هادىء ، مع امكانية رزينة للتفهم .
« الوضع يختلف! »
بناءً عليه اغتنم سليمان السؤال الموجه اليه :
ـ هل لديك اقوال معينة تدلي بها ؟
فقال برجاء :
ـ لدي طلب!
الضابط ينظر اليه ، ينتظر مواصلته ، مما يحفّزه يواصل :
ـ . . تسمحو لي اخبّر أهلي!
ـ تخبّر اهلك ؟!
الضابط ، على ما يبدو ، لم يفهم القصد ، وسليمان يوضح :
ـ أهلي ، حتى الآن ، لايعرفون بأمر اعتقالي . . البارحة . .

لتأتي اجابة الضابط قطعية واضحة :

ـ هذا . . ليس من اختصاصنا كأمن .

سليمان لا يخفي شعوره بالاحباط .

ـ انا غائب عن العراق منذ . .

لكن اللهجة الحيادية للضابط تقطع عليه استرساله :

ـ الصلاحيات الممنوحة لنا محددة .

ثم يكمل بصيغة اخلاء الطرف ذاتها :

ـ . . نحن لا نملك صلاحية نسمح او لا نسمح .

سليمان لا يجد مايعقب به . شعوره بالاحباط يكبس عليه حنجرته . مقولة حاكم ـ وحدها ـ تبقى ماثلة في ذهنه :

«ـ ان لم تكن تدبّرت امر اتصالك بأهلك قبل اعتقالك . .»

ـ . . انما . .

صوت الضابط ـ لدى استرساله ـ يفتح نافذة للأمل ـ سليمان يهتم يسمع .

ـ بامكانك تتقدم بطلبك هذا الى الهيئة القضائية أثناء محاكمتك .

الأمل مشروط بواقعة كبرى . . محاكمة . هل يتجرأ يقول :

ـ المحاكمة تقوم على جريمة . . وأنا أشكّ . .

على افتراض انه فعل ، ألنْ يُواجه بإخلاء طرف مفاده :

ـ الصلاحيات الممنوحة لنا . .

وحتى يبقى في حدود الممكن يسأل :

ـ متى تقدموني للمحاكمة ؟

اجابة الضابط جاهزة :

ـ بعد استكمال ملف قضيتك .

اشتراطاتهم مرتبطة ببعضها . يتنازعه دافعان . ان يكفّ عن توجيه اسئلته خشية استثارة غضب محتمل من جانب الضابط ، ودافع آخر معذّب

مرتبط بامكانية معرفته مصيره المجهول .

« ليكن! »

الموقف لا يحتمل التردد . سؤاله المتوجس يَعْبُر لسانه :

ـ متى تستكملون ملف قضيّتي ؟

إجابة الضابط جاهزة :

ـ استكمال ملفك مرهون بالجهة التي اصدرت أمر اعتقالك .

امورهم واضحة لهم . وفيما يخصته تبقي الحلقة المفرغة مفرغة . الفرق الوحيد . . انه كلما سعي لمعرفةٍ أكبر اطبق عليه شعور مهيمن بالضياع أكبر .

ـ شكراً .

قالها سليمان للضابط بوازع اعتذار عمّا بَدَرَ منه . الضابط يعود الى سؤاله الأول بصوته الحيادي ذاته :

ـ هل لديك أقوال . .

كان أحرى بسليمان يأخذ عن حاكم فهمه للأمور ، فيقولها حينها :

ـ لا .

* * *

بعدها اقتاده الشرطي المعني عبر الممر الطويل الذي سبق وغيّب كلاً من هادي وحاكم .

« سأراهما أم . . »

يُبقي على تساؤله مفتوحاً . الاشتراطات مرهونة بأخرى . حساب التوقعات غير وارد ، وخير له يسلّم بالأمر الغامض .

الممر الطويل يلتف . يفضي الى ثان أطول . الابواب ـ على الجانبين ـ موصدة . الحذاء الثقيل للشرطي المرافق بوقع يتردد صداه مع الجدران العارية . هناك ، في العمق ، باب حديدي اسود صلد .

ـ ماهي تهمتك ؟

صوت الشرطي يقطع صدى وقع خطواته .

ـ لا ادري!

يجيبه سليمان دون تردد . الشرطي يحدجه بنظرة مشوبة شكاً .

ـ الكل يقول هذا!

«ان كان على الشرطي . . »

صوت حاكم يحضره .

ـ أمن ثورة .

إنطباع بالارتياح يتبدى على وجه الشرطي .

« مدعاة احترام! »

مقولة بأثر سحري . الكل يدرك معناها ، عدا سليمان .

ـ اذا سمحت!

الشرطي يسأله . يشير الى قيده . كانا وصلا الباب الحديد الصلد . سليمان يفهم المراد منه . يضع يديه بتصرف الشرطي . الاخير يعالج القيد بمفتاح لولبي غريب الشكل . القيد يستجيب . يدا سليمان تتحرران . بعدها يتوجه الشرطي بمفتاح آخر الى الباب .

« لعلهما في الداخل! »

الأمل يدغدغ صدر سليمان . الرغبات باتت واضحة محددة . وحين فتح الباب تفاجأ سليمان بوجود سُلّم نازل ، يبدأ من عند فتحة الباب مباشرة .

ـ تفضّل!

الكلمة التي قالها الشرطي لا تحتمل الشماتة .

« ـ حاول ترجع بأسرع ما يمكن! »

صوت نجوى ـ حنوناً ـ يتردد برجع رائق في الذاكرة . امس كانت معه . . تودّعه .

« ـ . . بأسرع ما يمكن! »

عيناه تتحسسان درجات السلم .

« ـ . . ما يمكن! »

رجع الصوت يؤكد حالة نفي .

« وهذا النفي!! »

ضوء اصفر باهت ينبعث من مسافة ليست بعيدة . الرائحة الصدئة للهواء المحبوس منذأمد ما ، تخالطها عفونة رطبة .

« تحت الارض!! »

غمغم سليمان مأخوذاً ، في اللحظة التي أُطبق فيها الباب الحديدي وراء ظهره .

٧

في البدء يلزمه التعرّف على المكان .

« لعلهما في الداخل! »

الامنية باقية معلّقة . الصحبة . صعب عليه يتقبّل فكرة :

« وحدي هنا! »

حتى اذا ما اعتادت عيناه ضآلة الضوء رأى كلاً من هادي وحاكم جالسين على سريرين حديديين مما يخصص عادة للعسكر وُضعا لصق الجدار في الركن ، اضافة الى اسرة ثلاثة مشابهة مازالت فارغة . احساس وارد بارتياح أسيان . حاكم يبادر قائلاً :

ـ أهلاً بالـ . .

فيقاطعه سليمان مصححاً معلومة لديه :

ـ عراقي .

حاكم لم يفاجأ .

ـ افضل لك تبقى كويتياً!

سليمان يتقبّلها كما هي .

« ما دامت قناعته »

السلم بدرجات ضيّقة ، لا تكاد تسع محط القدم ، نازلة بشكل اقرب الى العمودي ، يربو عددها على الخمس عشرة ، تُفضي الى حجرة سرداب عالية

السقف .

« المأوى المعتقل! »

الحجرة مربعة ، بضلع يقرب من عشرة امتار ، لكنها بسبب ضآلة الضوء الصادر عن مصباح كهربائي وحيد يتدلى بسلك قصير عند منتصف مساحة السقف ، بدت اكبر سعة من حقيقتها . في الزاوية الاقرب الى مهبط السلم حاجز صفيح بارتفاع القامة .

« دورة مياه طارئة »

نافذة وحيدة عند مستوى السقف أعلى جدار الضلع الموازي للطريق . سُدّت بساتر خشبي لا يسمح بنفاذ ايّ بصيص من الضوء ، ويسمح بسماع جانب من ضجيج الشارع .

ـ اين حقيبتك ؟

سأله حاكم ، فاجاب :

ـ بقيت عندهم .

افلت حاكم ضحكة خافتة .

ـ كان أحرى بهم يسمحون لك بها!

ثم بدا عليه وكأنه تذكّر أمراً . مال الى وراء مقرباً أذنه من الجدار مسترقاً السمع . رد فعل بالقلق يحس من سؤال هادي :

ـ ماذا ؟!

فاجابه حاكم :

ـ الآن نعرف .

بعدها جمع قبضته وضرب الجدار ثلاث ضربات متتالية ، وانتظر ، خلال ثوان قليلة استجاب الجدار لضربات ثلاث مشابهة .

ـ ما هذا ؟!

ردد هادي ، وانطباع بالدهشة يرتسم على وجهه . حاكم يخبّر :

ـ عندنا جيران .

السؤال المنبعث في ذهن سليمان :
« ترى كم هو عدد حجرات ما تحت المبنى ؟! »
هادي يتوجه الى حاكم بسؤال ينّم عن فضول ساذج :
ـ هل جئت هنا قبل الآن ؟
حاكم لا يندهش .
ـ لا .
اجاب ، وباغت محدثه بسؤال يستفزّ فيه سذاجته :
ـ وأنت ؟!
لتند عن هادي صيحة استغراب رافض :
ـ أنا ؟!

* * *

« الحجرة بزواياها الأربع ، وهذه الصحبة المصادفة! »

في الساعات الاولى لتواجد السرداب لم يستطع هادي إخفاء انفعالاته . كانت خليطاً من الجزع والفزع الذي يصل حد التطيّر ، مما يجعله ـ لدى إغفال حاكم أو سليمان له وعدم تعمّدهما إشراكه الحديث ـ في حالة حوار مبهم ومنفعل مع نفسه .

ـ من يشاركني التدخين ؟
قال حاكم وهو يتناول علبة سجائره من جيبه ، يتفحصها ، ليواصل :
ـ لدينا خمس حبّات .
صيغته في الجمع « لدينا » ولّدت لدى سليمان شعوراً بالارتياح .
ـ تأخذ واحدة!
دعوته كانت لهادي . يده تمتد حاملة سيجارة . عينا هادي تلتمعان . يتردد برهة .
ـ لي ؟
كان قد تنبّه للعرض ، وحاكم يؤكد :

ـ لك .

فمه ـ للمرة الاولى ـ ينفرج عن ابتسامة خجلى . يمد يده الى السيجارة . يأخذها . ينشغل بها ، يتفحصها . يضعها تحت أنفه . يشم تبغها . يطبق جفنيه مهوّماً .

حاكم يمد يده بأخرى تجاه سليمان . سليمان وقد أُخذ بمراقبة رد فعل هادي يهز رأسه معتذراً :

ـ لا ادخن .

ـ لماذا ؟

سؤال حاكم يباغته . يبتسم بحيّرة ، في الحين الذي يستطرد فيه حاكم كأنه يقول حكمة :

ـ «دخن عليها تنقضي! »[١]

سليمان منذ البارحة لم يعرف يبتسم أو يضحك . الآن ، وهو يسمع حكمة حاكم ، يضطر يضحك .

ـ ماذا ؟!

حاكم يضع سيجارته بين شفتيه . يقول بتحدّ يتضمّن طعم الأُلفة :

ـ لو كنت عراقياً فعلاً لعرفت انه مثل دارج بين المدخنين!

سليمان معترضاً بالالفة ذاتها :

ـ حتى لو كنت من بينِ غير المدخنين ؟!

حاكم ينشغل بإشعال عود ثقاب . يدفعه ناحية هادي . الأخير يتنبه . وجهه يجسد شعوره بالعرفان . يُسارع يدس سيجارته بين شفتيه . يقرّب طرفها من لهيب الثقاب .

ـ تدري!

يقول حاكم لافتاً إنتباه سليمان بما يشبه التحدي ، ويستطرد :

ـ . . لو كنت عراقياً فعلاً لعرفت كيف تدخّن!

(١) يبدو ان المثل من تصرّف حاكم .

يطلق ضحكة قصيرة . يواصل :
ـ . .التدخين يرتبط بالهموم ، وهموم العراقيين كثيرة .
« ان كان على الهموم . . »
حاكم يذكّره بمصطفى .
« ـ صاحبكم كان . . اما وقد عاش في الكويت كل هذه السنوات . . »
أحداث البارحة بما ترتب عليها ، أحداث اليوم .
« أين هي الكويت الآن ؟! . . أين هم الاصدقاء ؟! »
الشعار القائل : التدخين يضر . . ننصحك . .
« ما الذي تبقى ؟! »
سليمان ـ ضمن حالة اللامعقول ممثلة بوصوله الى السرداب ـ بحاجة لنمط من السلوك لا معقول ايضاً .
ـ تدري!
قال لحاكم بلهجة حاكم المتحدية ذاتها . فحدّق الأخير اليه .
ـ ماذا ؟
سليمان كان اتخذ قراره .
ـ اعطني سيجارة!

* * *

ـ ثلاثة اسابيع ، ولا سيجارة!
قال هادي بصوت دالّ وهو يمتص نَفَسَه الأخير من عقب سيجارته .
ـ متى اعتقلت ؟
حاكم يسأل ، وهادي يجيب :
ـ ثلاثة اسابيع .
ـ أين ؟
ـ مخفر شرطة السيبة .
يسود صمت قصير يقطعه سؤال آخر من حاكم :

ـ عذّبوك ؟

إنطباع بالقلق يتبدى في عيني هادي ، وهو يحرّك رأسه إيجاباً .

ـ بماذا اتهمت ؟

تصدر عن هادي أنّة خافتة سبقت ردّه :

ـ يقولون عني : إنّي جاسوس للايرانيين .

ردّة الفعل على وجه حاكم .

ـ تهمة خطيرة!

هادي يعود يهز رأسه .

ـ هذا ما قالوه لي هناك .

حاكم وقد اندمج في الحوار :

ـ وأنت ماذا تقول ؟

الدهشة تأخذ وجه هادي :

ـ ماذا اقول عن ماذا ؟!

حاكم بالمعنى ذاته :

ـ هل كنت جاسوساً فعلاً ؟

رعشة الفزع واضحة في استغراب هادي :

ـ كأنك واحد منهم!!

حاكم يتنبه الى أنه أوغل في جدله . ينفرج فمه عن ابتسامة أسيانة . يردد بصوت أسيف :

ـ كنت واحداً منهم .

* * *

توقّع ماهو منتظر . جدّة الصحبة والمكان ، وما كان لحاكم يترك ثالثهما نهباً لتوتره . قال له وهو يقاسمه سيجارتيه المتبقيتين :

ـ على العموم ، نحن الآن متساوون .

هادي يبدي دهشته :

ـ متساوون ؟!
ليأتي التوضيح من حاكم :
ـ التهمة الموجهة الىَ لا تقل خطورة ، ان لم تكن اكثر ، اذ انها ثابتة .
هادي كمن يستفهم :
ـ ثابتة ؟!
حاكم يؤكد :
ـ بالدليل القاطع .
وضحك ، قبل ان يلتفت الى سليمان مُشركاً اياه في الحديث :
ـ الأهم من كل هذا لدينا مشكلة!
سليمان يستجيب متسائلاً :
ـ مشكلة ؟!
الآخر يوضح بصيغة التمني :
ـ لو كنا نملك بعض النقود!
الذي يعجب سليمان من حاكم ان الأخير يتكلم بصيغة الجمع .
ـ النقوذ لاتمثل مشكلة .
قال سليمان . فبادره حاكم لاهفاً :
ـ عندك ؟
ـ عندي .
ـ كم ؟!
يطمئنه سليمان متبسماً :
ـ أكثر مما تحتاج .

* * *

لأنه ـ على حد قوله ـ كان واحداً منهمَ ـ عرف حاكم يتدبر امره معهم .
ـ انا أذهب!
قال ، وسارع يرتقي السلّم ، في الوقت الذي فُتح فيه باب السرداب ،

وسُمع أحد رجال الشرطة مُرسلاً صوته لمن تحت :

ـ الأكل!

الساعة لم تتجاوز السادسة مساء بعد . الليل ـ كما يجب يكون خارج السرداب ـ في أوله . حركة الشارع ـ من خلل الساتر الخشبي على النافذة ـ مازالت محتدمة .

ـ لهم عُرْفهم بتقديم وجباتهم! »

وفي التو تذكر سليمان انه جائع . . كما لم يحدث من قبل .

« فرحة وصول الطعام! »

لعل السبب يعود الى محدودية الاهتمامات المتوفرة هنا ، فيبقى الفعل ـ ايا كان نوعه ـ مُفرحاً . . أم انها معاناة البارحة ونهار اليوم ، لتجيء استكانة السرداب ضمن حالة استسلام معطل ، تتخفف وطأته بتوافر صحبة صدفة تهدف تتآلف . .

ـ ممكن!

صوت حاكم يُسمع من أعلى السلم مخاطباً الشرطي على طريقته ، لدى تسلّمه وجبة الطعام .

ـ ماذا ؟!

الشرطي يستجيب مستفزاً ، فيواصله حاكم كأنه يُساروه :

ـ نحتاج سجائر!

ردُ الشرطي يتضمن رفضاً ليس قاطعاً تماماً :

ـ هذا أمر يخصكم .

حاكم بما يشبه الترجي :

ـ الآ اذا استخدمت نفوذك!

يبدر عن الشرطي اعتراض ليَن :

ـ نفوذي ؟!

ـ هذا دينار . .

قال حاكم متجاوزاً اعتراض الشرطي ، وأنتم بصيغة من أبرم اتفاقاً :
ـ . . تصرف انت .

* * *

الباب الحديدي ينغلق . المفتاح يدور . حاكم ينزل السلم حاملاً وجبة طعامهم .

ـ أخذ الدينار ؟

سليمان يسأل .

ـ أخذه .

أجاب حاكم ، وهو يضع الطعام على الارض .

ـ الامر ليس سهلاً!

ردد سليمان ، فتطلع اليه حاكم مستوضحاً ، مما دعاه يضيف :

ـ . . ان تقنع شرطياً يلبّي طلبك!

حاكم يبدأ يفرد محتويات وجبتهم .

ـ الصعوبة في المرة الاولى ، بعدها تصبح الامور سهلة .

يبتسم مواصلاً :

ـ . . قضية ثقة . اذا عرفت كيف تكسب ثقة الشرطي عرفت كيف تجعله يحترمك .

« كثيرة هي الامور التي على سليمان يتعلمها »

وجبتهم تتألف من ثلاث قطع خبز اسمر صلد ، اضافة الى طاسة حساء عدس .

ـ على فكرة . .

قال حاكم مقرّباً خبزته من فمه .

ـ . . هذا الخبز من النوع الذي يخصص للجنود .

يقضم قطعة الخبز بصعوبة .

ـ . . هو لذيذ ، ومغذ .

يمضغ قضمته مسترسلاً في كلامه :

ـ . . أيام كنت مسؤولاً عن احد مقرات الحرس ، كانت سيارة تموين الجيش . .

كثيرة هي الامور التي على سليمان يتعلمها »

* * *

ما ان تناهى الى الاسماع صوت المفتاح وهو يدور في قفل الباب الحديدي حتى هبّ حاكم مردداً بإرتياح :

ـ التموين وصل!

حين فتح الباب كان حاكم عنده .

ـ الشكر وحده لا يكفي .

قالها بامتنان ، قبل ان يبدي اندهاشه :

ـ ما هذا ؟!

ليجيبه الشرطي :

ـ سجائرك التي طلبتها .

حاكم يوسّع دائرة اندهاشه دون افتعال واضح :

ـ خمس علب ؟!

ومن غير أن يترك للشرطي فرصة التعقيب يصرّح :

ـ تكفينا أربع علب .

الشرطي يغمغم بتسليم راض :

ـ اذا كان ولا بد . .

* * *

البارحة ، في مثل هذه الساعة كان في بيت مصطفى مُحاطاً بضجيج الاصدقاء .

«ـ النهار للأهل . . »

ماكان في حساب التوقعات . . ما كان في حساب غير التوقعات . .

«ـ . . والليل لنا . . »

الليل هنا يختلف . الارتباط بالعالم الخارجي يأتي من خلال الساتر الخشبي المثبت على النافذة الوحيدة ، فان كفّت الحركة الاعتيادية للشارع كفّ الارتباط ، ليهيمن نوع من السكون الثقيلِ الذي لا ينني يذكر . . تحت الارض .

ـ هل سيحكمون عليّ بالاعدام ؟!

تساءل هادي بما يشي بإحتدام قلقه دون ان يخاطب شخصاً بعينه . كان الثلاثة قد أووا الى أسرّة متقاربة .

الساعة جاوزت الحادية عشرة . الهدوء والصمت . . سليمان ـ كما يرى نفسه ـ غير مؤهل يرد . الرد يتطلب معرفة وخبرة ذات خصوصية معينة .

كان مستلقياً علي ظهره . حاول يطبق جفنيه . به حاجة ماسة يستعيد زمنه مع نجوى ، لكن هذا الضوء الاصفر ينفذ الى ما تحت جفنيه . . يصر يستقطب اتجاه نظراته في حالة ما اذا أبقى عينيه مفتوحتين .

ـ لا اعتقد .

اجاب حاكم على تساؤل هادي بعد لحظات من الصمت ، مما حدا بهادي يعقب متشككاً :

ـ قالوا لي . . الاعدام عقوبة التجسس وخيانة الوطن!

حاكم كان مستلقياً على ظهره ايضاً ، ومن غير ان يغيّر وضعه رد :

ـ لكنك كما فهمت منك لست جاسوساً!

هادي كمن يزن كلماته :

ـ هل هذا يكفي ؟!

الآخر يصدقه الاجابة :

ـ ربما .

تند انّة يأس عن هادي .

ـ وربما لا .

الحديث بدا وكأنه انتهى عند هذا الحد . هادي يعود يغمغم كلماته المبهمة مع نفسه .

« لكل طريقته! »

بعد دقائق معدودة صرّ سرير حاكم ، وحين مال سليمان برأسه ناحيته ، كان حاكم جالساً . التقت نظراتهما . عينا حاكم تنمّان عن تصميم آني .

ـ اسمع يا هادي!

قال بصوت عال نسبياً . هادي يقطع حواره الغامض . يلتفت متنبهاً .

ـ قبل كل شيء . . . يجب تهدأ!

عينا هادي تدوران في محجريهما حائرتين .

ـ اهدأ ؟!

حاكم يبتسم له يطمئنه .

ـ لكي تسمعنا بوضوح!

خطر في بال سليمان :

« مرّة اخرى يستخدم صيغة الجمع! »

فيما يخصّه ليس لديه ما يشارك به . وها هي نظرات هادي تتوجه اليه مستنجدة ، مما يضطره يجاري ، يعتدل جالساً أُسوة بحاكم ، يؤمن على ما قاله الاخير بحركة دالّة من رأسه .

ـ التحقيق شيء والمحاكمة شيء آخر .

قال حاكم كما العارف بخفايا الامور . وهادي يردد متسائلاً بقلق طموح :

ـ آخر ؟!

حاكم يؤكد دون افتعال :

ـ تماماً .

هادي لم يستوعب المعنى بعد .

ـ كيف ؟!

ليأتي التوضيح من حاكم :

ـ ان كانوا أدانوك أثناء التحقيق ، فاحتمال براءتك في المحكمة وارد .

تساؤل هادي ما يزال يتضمن طموحه القلق :

ـ وارد ؟!

فيثنّي عليه حاكم :

ـ في أغلب الحالات .

هادي ينقل عينيه ناحية سليمان ، كأنه يستمزجه رأيه . سليمان يضطر يردد دون تردد :

ـ كلام صحيح .

في الوقت الذي استطرد حاكم :

ـ التجسس تهمة خطيرة . لهذا السبب نرى القضاة المسؤولين عن اصدار الحكم يدققون فيها كثيراً ، وأي خطأ او قسر تعرض له المتهم اثناء مجريات التحقيق يعني احتمال براءة المتهم .

من بين كلمات حاكم الاخيرة كلها يتوقف هادي متسائلاً عند واحدة :

ـ قسر ؟!

حاكم ـ كما خيّل لسليمان ـ تعمد يورد كلمة « قسر » كي يصل من خلالها الى هدف ما في ذهنه بطريقة اكثر اقناعاً .

ـ القسر . . يعني ان المتهم اعترف بالجريمة غصباً عنه .

رد فعل سريع بالحيوية يتبدى على وجه هادي ، عيناه تشعّان بالأمل . يقول بصيغة اكتشاف :

ـ انا اعترفت غصباً عني!

الحيوية ـ بدورها ـ تدب في صوت حاكم . يتابع اقترابه من هدفه :

ـ أو ان المحققين اجبروا المتهم على الاعتراف بعد تعذيبه .

هادي مردداً بحماس بيّن :

ـ انا عذبوني كثيراً!

فجأة تغيم عيناه . تحضره حالة ماضية . يضيف بصوت هابط :

ـ . . . ثلاثة اسابيع بين الحياة والموت!

حاكم يتجاوز تعقيب هادي يتم :

ـ أمر آخر . . انهم يأخذون تواقيعه ، أو بصمات إبهامه على اوراق يكتبونها ، دون ان يعرف محتوياتها .

أمل هادي يعود يشعّ في عينيه .

ـ انا لا اعرف اقرأ او اكتب . . كتبوا الكثير من الاوراق ، ثم بصّموني عليها كلها!

يطلق حاكم زفرة ارتياح .

ـ حين تقول هذا الكلام للقاضي يتغير الموقف .

هادي يعقد حاجبيه .

ـ يتغير الموقف ؟!

سؤاله يتضمن نوعاً مغايراً من الشك ، حاكم يهدف يلغيه :

ـ الحكم يكون لصالحك .

تصدر عن هادي احدى غمغماته المبهمة القلق يعود يستحوذ عليه . حاكم يعاود محاولته :

ـ يحكمون ببراءتك .

هادي يردد مقهوراً :

ـ لا اعتقد!!

سليمان يبدي دهشة مشاركة :

ـ لماذا ؟!

هادي ينقل بصره الى سليمان . يقول مجسّداً حيرته :

ـ لأني لا اعرف اقول الكلام هكذا!!

سليمان وحاكم يتبادلان نظرات دالّة على العجز ، وهادي يتم بنغمة هابطة تجسّد شعوره بالضياع :

ـ حين اقف امام احدهم ينشل لساني! . . يقولون كلاماً لا اعرف اردّ عليه!

حاكم وكأنه وجد منفذاً :

ـ حالتك هذه ناتجة عن خوفك!

الرد يجيء متعثراً :

ـ ربما .

ـ وهو خوف ناتج عن طريقة التحقيق التي اتّبعوها معك!

ـ ربما .

التأكيد يجيء من حاكم :

ـ مع القاضي سيكون الامر مختلفاً . . ستتوفر لك فرصة الكلام!

هادي مايزال نهباً لشعوره بالضياع .

ـ لا اعتقد .

ـ اسمع يا هادي!

قال حاكم وأردف :

ـ . . لو عجزت عن الكلام جراء الخوف ، فان خوفك سيكون في صالحك!

يضع عينيه في عيني هادي .

ـ الجاسوس انسان محترف . ذكي . يعرف كيف يراوغ .

ـ يراوغ ؟!

حاكم يتجاوز تساؤل هادي . يتم :

ـ انت انسان بسيط ، على نيّاتك . .

هادي مشككاً :

ـ تعتقد ؟!

في الحين الذي واصل فيه حاكم من حيث انتهى دون ان يعير شك هادي اهتماماً :

ـ انت لن تجد قاضياً واحداً يقتنع انك جاسوس . القاضي الذي ستمثل امامه سيحكم ببراءتك دون حاجة لسماع اقوالك .

ـ لا اعتقد!

حاكم لم يستسلم بعد . يقول :

ـ عدا هذا كله . . هناك حقيقة يجب تعرفها!

يترك جملته معلقة لثانيتين ، ليواصل بعدها بلهجة يقينية واثقة :

ـ . . الزعيم عبد الكريم قاسم ـ حتى يومنا هذا ـ لم يصرّح بتنفيذ أيّ حكم من احكام الاعدام التي اصدرتها المحاكم في عهده .

هادي يلتفت الى سليمان ، فيبادر متدخلاً :

ـ هذا صحيح .

رغم كل الجهد يبقى هادي على اقتناعه اليائس .

ـ لا اعتقد!

سؤال مستفزّ يُصدره حاكم :

ـ لماذا ؟!

زفرة مهمومة تصدر عن هادي .

ـ المشكلة انكم لا تعرفون!

* * *

على أيام الملكية ـ كما عاصرها هادي ـ كانت الامور جميعها ، صغيرها وكبيرها ، ميَسرة بالنسبة اليه .

ـ كان والدي من ملاكي الاراضي المزروعة بالنخيل . تتوزع أملاكه على جانبي شط العرب ، ما بين المحمرة والسيبة .

حاكم يُفلت ضحكة قصيرة .

ـ معنى هذا انك سليل عائلة اقطاعية!

هادي يبدي دهشته :

ـ سليل ؟!

سليمان يتطلع الى حاكم بنظرة عاتبة . حاكم يقول لهادي يستحثّه يواصل :

- المهم . .

* * *

عندما بلغ هادي سن الثامنة عشرة - وكان ذلك مع نهاية الحرب العالمية الاولى - زوّجه ابوه من ابنة عمه في المحمرة ، في الحين الذي كان فيه الابن يميل الى ابنة احد مزارعي ابيه في السيبة .

ولأنه اعتاد طاعة ابيه اضطر يسلّم بالامر الواقع ، وسكن الى ابنة عمّه ، ريثما توفي الاب بعد سنوات ، فتوفرت الفرصة لهادي كي يضيف الى زوجته الاولى زوجة اخرى . . ابنة مزارع السيبة . بناء عليه صار ببيتين ، احدهما في السيبة والآخر في المحمرة .

على ايامه تلك ما كانت المنطقة خضعت لنظام حكومات وحدود دولية ، بالشكل الذي آلت اليه . كان شط العرب مجرد نهر عريض يعبره ، بزورقه الخاص ، من بيته هذا الى بيته ذاك ، أو العكس .

حياة العز والترف التي عاشها ايام حياة والده . عدم توفره لرعاية الاملاك . الشباب والاقبال على الحياة . الطلبات غير المحدودة للزوجة الجديدة . تنافس الزوجتين على الانجاب . . هذه الامور مجتمعة تسببت في شرذمة املاكه .

الاحداث التي كانت عصفت بالتبعية العثمانية وصيغ الارتباط العشائري التي كانت سائدة في المحمرة ايام الشيخ خزعل تمخضت عن قيام دول جديدة ، وجرى اخضاع شط العرب لنوع غريب من التقسيم ، فالناس الذين اعتادوا يعيشون فيه او على جانبيه - بسبب من توزع عوائلهم واملاكهم - وجدوا انفسهم فجأة وقد صاروا شقين . شق شرقي مرتبط بالتبعية الايرانية ، وآخر غربي مرتبط بالتبعية العراقية .

* * *

ـ رغم هذا . . الحياة ما كانت صعبة بالنسبة الينا . . نحن اهالي المنطقة . الحدود لم تكن عائقاً امام الناس . شط العرب بقي ملكاً لأهاليه من مزارعين وصيادي اسماك .

هاجس الفضول يتولّد لدى سليمان .

ـ ماذا عن جوازات السفر ؟

ترتسم على فم هادي ابتسامة اسيانة .

ـ جوازات السفر لم تكن اخترعت بعد .

يفلت زفرة قصيرة ، ويكمل :

ـ حرس الحدود كانوا قليلين ، وهم بمجملهم من اهالي المنطقة .

حاكم يستعجله :

ـ باختصار!

هادي يجيب :

ـ باختصار . . كانت الحياة سهلة ميسرة .

يصمت لثوان . يتوجه بعدها بطلبه الى حاكم :

ـ ممكن سيجارة!

فيستجيب الآخر :

ـ خُذ علبة!

هادي يعالج العلبة ، يأخذ لنفسه سيجارة . يتلذذ بشم التبغ ، قبل اشعاله لها . رائحة الدخان تخالط رطوبة الهواء الساكن للسرداب . الساعة كانت جاوزت منتصف الليل . المبنى يهجع في الصمت ، ليعود صوت هادي يتردد :

ـ في ذلك الحين نشط نوع من التجارة في المنطقة لم يكن معروفاً من قبل . تجارة التهريب . البعض من أهالي المنطقة بدأ يحترف تهريب السلع الضرورية ، مما خف حمله وناسب ثمنه . . الشاي ، السجاير ، الأقمشة . .

حاكم يتدخل مقاطعاً بوازع من مداعبة :

ـ أين موقعك من كل هذا ؟!

الآخر لا يتردد :

ـ كنت من أوائل الذين اشتغلوا بالتهريب .

نفث نَفَساً من دخان سيجارته ، وأتم :

ـ . . ضيق ذات اليد . تزايد عدد الاولاد من الزوجتين . . التهريب تجارة مربحة ، وفيما يخصني كنت ما ازال امتلك زورقي الخاص ، وهذا عامل أساسي بامتهان التهريب .

* * *

خلال هذا وذاك جَدّ أمر عارض ، تعداد السكان . الدولة المعنية تهدف تحصر رعاياها لتزودهم بشهادات رسمية تثبت تبعيتهم لها . الامر الحكومي واضح : على جميع السكان ملازمة بيوتهم ، والالتزام بعدم مغادرتها في اليوم الفلاني ، استعداداً لمجيء موظفي التعداد ، مع مراعاة تزويدهم بالمعلومات المطلوبة كافّة .

بناء عليه لازم هادي بيت السيبة ، ريثما وافته اللجنة الملكفة ، فأفادها بالمعلومات الخاصة بعائلته هنا ، وحين جاء على ذكر عائلته في المحمرة قال له مسؤول اللجنة :

ـ ذلك أمر آخر لا اختصاص للسلطات العراقية به . .

الاّ اذا اراد هادي استقدام عائلته التي هناك كي تستقر هنا بشكل نهائي . وفي هذه الحالة عليه اتباع اجراءات محددة .

هادي ما كان فكّر ينتزع عائلته تلك من جذورها هناك . المسألة ليست بالسهولة المتصورة ، والموظف الذي سلّمه ايصالاً مرقّماً قال له :

ـ راجع دائرة النفوس في قائمقامية ابي الخصيب بعد شهرين .

بعد ستة شهور من تاريخه تسلّم هادي الاوراق الثبوتية اللازمة له ولزوجته وباقي افراد عائلته هنا بصفتهم مواطنين عراقيين خالصين .

ـ ماحدث في العراق حدث في ايران .

أضاف هادي على ماقاله ، وأكمل :

ـ . . تعداد النفوس لا بدّ منه . وحين جرى تحديد اليوم اضطررت ألازم بيت المحمرة بصفتي رب الاسرة .

حاكم بروح مداعبة :

ـ لا اعتراض!

نظرة عتب أليف تبدر عن هادي لدى استطراده :

ـ . . ولأني أعرف الرد مُسبقاً لم آت على ذكر بيت السيبة . بعد اشهر من تاريخه تسلمت الاوراق الشبوتية لي ولزوجتي وباقي افراد عائلتي في المحمرة بصفتنا مواطنين ايرانيين خالصين .

سليمان وقد أدرك الحالة :

ـ صرتَ تحمل جنسيتين!

هادي يهز رأسه موافقاً .

ـ هذا الوضع سبب لي نوعاً من الخوف . . لعل احدى الحكومتين تكتشف الامر فتلجأ الى اتخاذ اجراء معين يهدد مصير عائلتي هذه أو تلك .

حاكم يعقب على طريقته :

ـ خوف مشروع .

هادي يتجاوز تعقيب حاكم .

ـ الناس من معارفي طمأنوني ، افهموني ان لا خطر في الأمر ، بل ان البعض من السكان اغتنم الفرصة فتعمد يتواجد ، ايام تعداد النفوس ، بكامل أفراد عائلته في الدولتين .

حاكم يتدخل :

ـ تمشياً مع المثل القائل : التبعية لدولتين خير من تبعية لدولة واحدة .

هادي يتطلع ناحية حاكم باستغراب ، فيتدخل سليمان :

ـ لا تأخذ كلامه على محمل الجد!

ابتسامة واهنة تأخذ بزاوية فم هادي وهو يردف :

ـ عذر الناس الذين سجّلوا في الدولتين أن بامكانهم اذا ضاقت الدنيا بهم

في هذه الدولة يذهبو الى تلك .
فتصدر عن حاكم كأنها عفوية :
ـ أو العكس .
توقع سليمان من هادي ان يحتج أو يعتب ، لكن الذي حدث هو العكس .
ـ بالفعل .
أكّد هادي على ما قاله حاكم .

* * *

وسط كل هذا بقيت الاحوال مقبولة ومحتملة ، فالعلاقات بين العراق بحكمه الملكي وايران الشاهنشاهية ـ من حيث الجوهر ـ على احسن ما يرام ، لدرجة كانت معها ايران مستعدة تدخل حلف بغداد ـ الذي لعب نوري السعيد الدور الرئيسي بإنشائه ـ لولا أوضاعها الداخلية المستفزة التي ترتبت على حركة مصدّق ، فاكتفت ، وقتها ، بدور المراقب داخل الحلف ، اسوة بالحليفة الأم أمريكا .

في تلك الايام بدأت التباشير الاولى لنوع جديد من التهريب لم يكن معروفاً من قبل في المنطقة . . تهريب الايدي العاملة من ايران الى الكويت عبر العراق .

خاصّة وان ازدهار صناعة استخراج النفط في الكويت وما رافقها من نشاط تجاري وعمراني ادى الى مضاعفة الطلب على الايدي العاملة متدنية الاجر . وكانت ايران مؤهلة لتلبية الطلب بسبب تردي الاحوال المعيشية لغالبية السكان ، لدرجة اصبح معها الوصول الي الكويت حُلماً يراود الكادحين الايرانيين . يبقى ان التسلل الى الكويت يقتضي التسلل عبر العراق من أضيق المناطق المتاخمة . . شط العرب .

بناءً عليه جدّ نوع من التنسيق بين المهربين المحترفين على جانبي شط العرب . الجانب الشرقي يسلّم المتسللين الى الجانب الغربي ، حيث يتولى

الاخير تهريبهم عبر الاراضي العراقية ، فالصحراء المتاخمة للحدود مع الكويت .

* * *

ـ صفقة عمر . . ذلك هو الاسم الذي يطلق على عمليات تهريب من هذا النوع .

حاكم يبدي ملاحظة عرضية :

ـ اسم حركي!

هادي يواصل مباشرة :

ـ العملية الواحدة ، في الغالب ، تضم ما بين ثلاثين الى اربعين «رأس» . .

سليمان يقاطع مستوضحاً :

ـ رأس ؟!

ـ الرأس يعني الرجل .

أجاب هادي وأتم :

ـ . . المهربون كانوا يفرضون عشرة دنانير على الرأس الواحد .

المقاطعة تجيء من حاكم :

ـ عشرة دنانير ليست بالمبلغ الكبير!

ـ الدينار أيامها كان ديناراً فعلاً . اجرة العامل كانت ثلاثين فلساً في اليوم . . وقِس على ذلك .

ـ معنى هذا انك كوّنت ثروة!

ـ لا .

اجاب هادي على تساؤل حاكم ، ثم وضح :

ـ . . كنت شاركت في عملية واحدة ، ثم توقفت .

ـ لماذا ؟!

تندّ عن هادي انّة خافتة لدى ردّه :

ـ خطورة العملية ، وما كانت تتعرض له قوافل المتسللين من مطاردات ومداهمات وأحياناً خيانات .

ـ خيانات ؟!

ـ كأن يشي أحد المهربين بالآخر لدى الشرطة العراقية ، أو يتخلى المهرب عن مهمته في اللحظة الحرجة . .

يلتقط أنفاسه لثوان ، قبل ان يستطرد :

ـ . . ان تعمل على تهريب سلع خفيفة الوزن شيء ، وأن تتصدر قافلة من البشر شيء مغاير تماماً ، عدا هذا . . مسألة السن . . لوكنت في سن العشرين . . الثلاثين . .

* * *

« الدنيا أرزاق »

قالها هادي لنفسه ، واكتفى بالحد الادنى من المغامرة ، ريثما جاءت ثورة تموز ٥٨ ، فانقلبت الاوضاع بالنسبة اليه رأساً على عقب .

بالأمس عاش الملك ، واليوم . . الاحداث تتوالى وهو عاجز يتابع يستوعب ما يدور . الناس عامة غيرهم امس . لغتهم غير . الكل صار يتعاطى السياسة . الكبار من ملاكي الاراضي صاروا صاغرين مخذولين بعد ان كانوا صولة ودولة . العلاقات بين العراق وايران بدأت تسوء . شط العرب بعد ان كان وقفاً على قاطني ضفتيه صار محل نزاع بين دولتين . عبور شط العرب ـ وقد كان عملاً يومياً لدى الناس العاديين ـ تحول الى مخاطرة وخيمة العواقب . زوارق عسكرية تجوب النهر ، وعلى شاطنيه جرى تحشيد قوات ضاربة مدججة بالسلاح الثقيل .

حزّ في نفس هادي ان صيادي السمك كفوا يطلبو رزقهم المعتاد ، وحزّ في نفسه اكثر انه بولدين شابين مجندين . عبد الرضا في الكتيبة المرابطة عند منطقة الدورة العراقية ، وصادق في الفرقة المرابطة حول مصفاة عبادان الايرانية . الاخوان ـ من وجهة نظر ابيهما هادي ـ يتواجهان . . ماذا لو

نشبت الحرب ؟!

الحرب التي نشبت اذاعياً اشتدت وطأتها اذاعياً ، هنا أو هناك . . واشتدت على هادي بعائلتيه ، هنا أو هناك ، وطأة العوز .

* * *

- ما خطر ببالي في يوم من الايام ان الاحوال ستصل الى ما وصلت اليه!

سليمان وحاكم يصغيان .

- . . أُغلقت المنافذ امام المصدر الاساسي للرزق . . التهريب .

يلوذ فترة قصيرة بالصمت .

- . . الأهم من كل هذا ان المنازعات حين قامت بين الدولتين كنت في بيت السيبة ، مما سبب بقائي هناك ، ومنعني عن الذهاب الى بيت المحمرة .

صوته يتعمّق حزناً .

- زوجتي الأولى . . أبنائي . . بناتي . . ما عدت عارفاً كيف أطمئن عليهم!

يتهدج صوته اكثر :

- بعد اشهر من الازمة وصلتني اخبار تفيد ان عائلتي في المحمرة لا تجد ما تأكله . . الكلمات تنحشر في حنجرته :

- . . الأب الذي يسمع ان اولاده . .

ولا يكمل . . يلوذ بالصمت لثوان . حاكم وسليمان يتبادلان نظرات مشاركة .

- . . في لحظة من اللحظات يجد الانسان نفسه مجبراً يركب الخطر .

يعالج علبة سجائره . اصابعه - جرّاء انفعاله - ترتجف . حاكم يتطوع يشعل له سيجارته .

- . . للصبر حد ، للخوف حد ، للتردد حد . . كانت لدي قطعة أرض صغيرة متبقية قريبة من منزل السيبة ، بعتها - بسبب العجلة - بثمن بخس . .

* * *

الأخبار القادمة من المحمرة تزيد من قلقك اكثر فأكثر . شوق الاهل ، وهذا الجزء المترتب عن حالة الحرب القائمة . الارض التي بيعت وفّرت مبلغاً ما من المال كافياً لسد العوز . ان تكون أباً فأنت مسؤول ألاّ تترك اولادك يبيتون دون عشاء . الغياب طال ، وامكانية اللقاء المنتظر ترجف القلب . هم هناك ، في المحمرة . وانت تقف على الضفة الغربية تكاد تدرك وجودهم على مسمع الصوت . اضواء عبادان والمحمرة تملأ سماء ليل الضفة الشرقية ، تراها وانت هنا . ما الذي يمنع ؟! . . الشط ؟! . . انت ابن الشط ، وُلِدتْ عنده . عشت فيه . ياما عبرته ، وفي حالات سابقة كنت تعبره في اليوم الواحد اكثر من مرة . النقود في الجيب . الزورق مازال . . تدري ان غيرك قد حاول ، وان كثيرين عرفوا يعبرون ، وغيرهم لم . . انت بحاجة اكبر ، بدوافع أكبر . .

ـ ليكن!!

وكان ان اختار أحلك ساعات الليل ظلمة . الساعة التي تسبق الفجر . زورقه الصغير يطاوعه . ينفلت . الضفة الاخرى على مرمى زورقه . فسحة من الزمن يكون بين زوجته وأولاده . لكنه ، وهو يكاد يتوسط الشط ، فوجىء بأضواء كاشفة تتسلط عليه .

ـ من هناك ؟!

زورق طراد لدورية عسكرية عراقية .

* * *

ـ كنت مذهولاً تماماً . الجنود ـ في لمح البصر ـ يحيطون بي في زورقي ، وقبل ان أتنبه لما يحدث لي كانت القيود في يدي . اردت اقول لهم . .

حاكم يقاطع بلهجة العارف المطمئن :

ـ في حالة مثل حالتك لن يحكم عليك القاضي بأكثر من غرامة نقدية ، او اطلاق سراح بكفالة شخصية .

هادي يحدّق فيه مشدوهاً ، ليتوجه بسؤال مستغرب ورافض في الوقت نفسه :

ـ ما الذي تقوله ؟!

حاكم يضطر يوضح :

ـ اقول . . مادامت التهمة الموجهة اليك قائمة على اساس عبورك للشط . .

اللوعة المريرة في صوت هادي مقاطعاً محدّثه بصيغة قطعية مشحونة عتباً :

ـ لو كانت التهمة الموجهة الي قائمة على اساس عبور الشط لما كنت هنا اطلاقاً!!

ولم يضف كلمة اخرى . استدار بوجهه الى الجدار ، لتصدر عنه آهة مخنوقة . خيّل لسليمان ان جسده ينتفض ، وانه يبذل جهداً جباراً للسيطرة على انفعالاته .

« من يعرف ماذا ؟! »

يومهم الاول ليس غير . الايام القادمة حبلى . . .

« لا أحد يجزم! »

أطبق جفنيه . الساعة قاربت الثانية صباحاً . كان في باله منذ بدء الليل يبعد افكاره عن كل شيء عدا نجوى . كان بحاجة ماسة يستعيد زمنه معها ، لولا ما جرى من هادي ، وهذا الضوء الأصفر ينفذ ما تحت جفنيه ، يشتت قدرته على التركيز . .

٨

منذ عهود موغلة في عمره ، بدءاً من أيام دراسته الثانوية ، فمكبس تمور السعدون ، فالجامعة ، اضافة الى سنواته السبع في الكويت ، كان سليمان يجهد يجد وقتاً خاصاً به لذاته ، اما والحال هنا في سرداب الادارة العامة للأمن فالوقت كلّه فراغ معبأ بالانتظار .

الاسبوع الاول ـ مع الصحبة الطارئة لحاكم وهادي ـ كان محتملاً بهذا الشكل او ذاك ، متضمّناً هاجس التعرف والاكتشاف ، ومحاولة التلاؤم مع المكان والحالة القائمة ، بما فيها اكتساب ثقة الافراد من رجال الشرطة ، تسهيلاً لتوفير احتياجات يومية ضرورية . بعد انصرام الايام الاولى اخذ الزمن ينهج رتماً متباطئاً مملاً .

ـ متى يطلبوننا للمحاكمة ؟!

سؤال بدأ عابراً ، لكنه ـ مع توالي الايام وايغالها في رتمها الذي تباطأ أكثر فأكثر ـ صار سؤالاً ملحّاً حاضراً حواراتهم المتبادلة والمنقطعة .

ـ منسيون!!

ـ كأننا لسنا من بين المعتقلين!!

ـ لا أحد يسأل عنا!!

مع انقضاء شهرين تولّد لدى الثلاثة نوع من اعتياد الوضع ، وما عاد السؤال ذاته يلحّ بالحدّة ذاتها ، وبالمقابل تبدّت مظاهر عادات مستجدّة

ترتبت على حالة الركون والوقت الفائض .

ـ تأخرت وجبة العشاء!

ـ أنت جائع!

ـ ليس بالضبط ، انما اردت آكل كي أنام .

الآخر يبدي اعتراضاً :

ـ لكنك استيقظت من نومك الآن!!

فتأتيه الحجة بصيغة سؤال تعجيزي :

ـ هل تقترح عملاً آخر أقوم به ؟!

النوم المتصل بالنوم صار عادة . الاصغاء الى الاصوات النافذة عبر الساتر الخشبي خلل ساعات النهار وصدر الليل صار ـ بالنسبة لمن يعجز ينام ـ عادة اخرى .

ـ هم يحيون حاية اعتيادية!

فيواجه بسؤال رافض :

ـ وما الذي تتوقعه منهم ؟!

يصمت الآخر برهة يقول بعدها كما التمني :

ـ لو تحدث ثورة اخرى!!

ـ او انقلاب!!

ـ لأطلقوا سراحك .

ـ وسراحك .

ليدخل عليهما صوتهما الثالث :

ـ وسراحي ايضاً .

أحلام اليقظة ، والحديث عن التوقعات ممكنة الحدوث او المستحيلة صار عادة .

ـ لو أرسلوا بطلبي الآن . .

التمني يصدر عن حاكم . يواصل :

ـ وطلبوا مني أوقع على أوراقهم . .

سليمان يقاطع متسائلاً :

ـ توقّع على أوراقهم ؟!

حاكم يهدف يوضح :

ـ أوراق إخلاء طرف .

هادي يبدي دهشته :

ـ طرف ماذا ؟!

يعقد حاكم حاجبيه مفكّراً برهة ، قبل إجابته :

ـ لا أدري! . . إنما هي اجراءات روتينية عرفتها ايام كنت مسؤول مقر حرس . الاثنان ، سليمان وهادي ، يتطلّعان اليه بانتظار ايضاح أوفى ، مما يضطره يستطرد :

ـ . . . الوضع بالنسبة لي يختلف عن وضعكما .

ينقّل نظراته عليهما . . هما لم يفهما بعد . يعود يوضّح :

ـ . . . فما يخصني كانت لدي عهدة . بنادق رشاشة . وفيما يخصني تصرفت في هذه العهدة . بعتها . من هنا تأتي ضرورة إخلاء الطرف .

ينقل نظراته بينهما . سليمان يختصر عليه :

ـ المهم!

العتب في رد حاكم :

ـ المهم . . سؤالكما عن تفاصيل لا ضرورة لها قطع عليّ تسلسل أفكاري!

سليمان يتدخل ، يوصل ما انقطع من حديث حاكم :

ـ كنت تقول . . وطلبوا مني أوقّع أوراقهم . .

حاكم يعود الى صيغة التمني :

ـ ثم امروني بالخروج . . أنت حرّ . . لبادرت ـ على الفور ـ سهرت عشر ليال متواصلة دون نوم!

هادي يغمغم مستغرباً :

ـ عشر ليالٍ ؟!

ـ كي أرد الصاع صاعين . . نحن لم نشبع نوماً هنا حسب ، لكننا مُتنا نوماً .

هادي يومىء برأسه موافقاً ، وسليمان يتساءل :

ـ سهر لمجرد السهر ؟!

حاكم يفلت ضحكة قصيرة .

ـ سيكون سهراً مستوفياً شروطه كافّة ، بدءاً من . .

فيقاطعه هادي متذكراً أمراً :

ـ أول شيء تقوم به ـ كما اعتقد ـ انك تذهب الى بيتك!

تعقيب حاكم يتضمن اشارة الى خيبة أمله :

ـ في هذه الحالة . . لا سهر . . ولا سواه .

السؤال من سليمان :

ـ لماذا ؟!

ـ بسبب العهد القسم الذي ألزمتُ به نفسي أمام أمي .

الاستغراب يكبر في صوت سليمان :

ـ العهد القسم ؟!

حاكم يفلت زفرة تسليم حائر .

ـ سبق وقلت لكما . . وضعي يختلف عن وضعكما .

* * *

كان حاكم الأخ الأصغر من بين اخوة ثلاثة ذكور . توفي أبوه وهو ما يزال طفلاً رضيعاً لم يبلغ سنته الثانية .

ـ لا أذكر عن أبي حتى شكله . أمي تقول عني انّي الوحيد بين اخوتي . . نسخة طبق الأصل عن أبي .

هادي يغتنم الفرصة يغمغم :

ـ رحمه الله .

حاكم يكمل :

ـ رغم مرور كل هذه السنوات على وفاة ابي ، ظلّت أمي وفيّة لذكراه . ما أن يرد ذكره عرضاً الآ ودمعت عيناها . كانت على أيامهما تعيش معه حالة عشق عجيبة .

يصمت لثوان كأنه يراجع نفسه .

ـ لعلّه من المخجل ان اتحدث عن امي هكذا ، لكنها الحقيقة .

تتبدى على فمه ابتسامة حنونة .

ـ من يصدق . . ان ابي ـ على زمنه ذاك ـ لم يتوان يعلّم امي الرقص .

نظراته تضيع في البعيد . هو التذكار .

ـ . . كان ابي يستغل ليلة الخميس على الجمعة ، فيأتي بزجاجة عرقه ومتطلبات مزّته . يساهر امي حتى الصباح . يغلقان باب غرفتهما عليهما . يمارسان العشق .

رنّة الحزن تتسرب الى صوته :

ـ بعد وفاته تحولت أمي إلى ما يشبه الراهبة . نذرت حياتها لأولادها ، وذكرى زوجها .

سليمان يبدي ملاحظة :

ـ لا بدّ ان تكون جميلة!

حاكم يستجيب بشيء من الحماس :

ـ كانت جميلة الجميلات . . بدوية من برّ الناصرية . تنتمي الى احدى العشائر الرحّل التي اعتادت تَفد البصرة في موسم جني التمور . التقاها ابي فتحابا . في الشتاء التالي سافر الى برّ الناصرية بحثاً عنها . ولأن أهلها رفضوا يزوجوه إياها خطفها عنوة وجاء بها الى البصرة ليتزوجها .

سليمان يبدي ملاحظة ثانية :

ـ تماماً . . مثل فرسان القرون الوسطى!

هادي يحدّق الى سليمان مستغرباً عليه كلماته ، وحاكم يستطرد من غير ان يتلكأ عند ملاحظة سليمان :

- جدّي كان متزمتاً . وقف ضدّ الزيجة منذ البدء . اعتبرها حراماً . طرد أبي من الدار ، وحرمه من الميراث .

سليمان يبدي ملاحظة جديدة لاتخلو من روح دعابة :

- تبدو سليل مشاكل!

حاكم ، بدوره ، لا يتلكأ عند ملاحظة محدثه .

- ألتحق ابي بخدمة واحد من وجهاء آل ابراهيم في جيكور ، وانتقل مع زوجته يعيش هناك .

- والآن ؟

سؤال رزين يصدر عن هادي ، ليجيبه حاكم :

- مازلنا هناك .

* * *

السنوات التي مرّت لم تزحزح أبا سلطان عن موقفه . بقي على قناعته . .

- زواج الخطيفة غير شرعي!

وحين توفي سلطان اضطرت ام حاكم تذهب اليه .

- ماذا بشأن احفادك ؟!

الآخر قابلها بجفاء .

- أي أحفاد ؟!

يحز في قلبها ، ورغم هذا تصرّ :

- من ابنك سلطان!

ينهي اللقاء بجفاء اشد :

- سلطان ليس ابني!

شعورها بأنها منبوذة . في البصرة أو في الناصرية . المسؤولية القائمة

ازاء إعالة وتربية ثلاثة أولاد . كل هذا يتعمق بحدّة من خلال الاحساس بفقدان الأليف . . حيث لا أمل .

في لحظة من لحظاتها تلك قررت الأرملة الشابة تأخذ أولادها ، ترحل بهم إلى برّ الناصرية ، ولتكن المواجهة هناك .

* * *

- وهي تنتهي من حزم امتعتنا استعداداً للرحيل جاء اليها من يخبّرها ، ان الوجيه الذي كان وليّ نعمة زوجها يقترح عليها تبقى حيث هي ، شرط ان تعمل حاضنة لولده الاصغر ، ريثما يشب ابنها الاكبر نوري .

سليمان بنوع من فضول :

- وأين هو نوري الآن ؟

- عريف اطفائي في مركز اطفائية البصرة .

- والأخ الآخر ؟

- وليد . . يعمل سائق تكسي على خط بصرة أبي الخصيب .

السؤال لهادي :

- وأمك!

- باقية محتفظة برشاقة قوامها . . حين تراها لا بدّ تقول عنها انها كانت ذات جمال أخاذ . هاجس المسارة في صوت سليمان :

- ماذا عن حاكم نفسه ؟!

* * *

بسبب من كونه الاصغر توفر له مالم يتوفر لأخويه . نوري . . الدراسة الابتدائية ، ثم الالتحاق بالعمل ، كي يساعد امه . اعباء العائلة . .

وليد . . بالكاد أكمل الدراسة المتوسطة ليواجه مسؤولية العمل . . وحده حاكم توفرت له فرصة يواصل دراسته دون ضغوط من ظروف معاشية . . بيد انه ، باعترافه ، لم يُحسن استغلال فرصته هذه ، وجعل من الدراسة اهتماماً ثانوياً مقارنة مع اهتمامات اخرى .

مُذ اجتاز الدراسة الابتدائية الى المتوسطة ـ وكان عمره ثلاثة عشر عاماً ـ التحق بشلّة من الشباب الصغار . .

ـ كنّا أشبه بالعفاريت . نادراً ما ننهي اليوم الدراسي بحصصه المقررة . في الغالب نتسلق سور المدرسة .

ننفلت الى الشارع ، ومنه الى البساتين .

ـ هواية غريبة!

يعقّب سليمان مُبدياً دهشة . حاكم يتم :

ـ . . الخضروات او الفواكه لحظة قطافها الأول كانت غرامنا . نسطو على الحقول مهما كانت حصانة الاسلاك الشائكة المحيطة بها . أكبرنا كان مسلحاً بأداة قطع الاسلاك . نجني الثمار الطازجة . نتلذذ بإلتهامها .

ـ لهو أطفال!

قال هادي ، فأكد عليه حاكم :

ـ في حينها . . إنما . .

* * *

خلال غزوة من غزواتهم رآهم احد المزارعين . شخّص بعضهم . اليوم التالي كان عند مدير المدرسة . المدير استدعاهم . الانكار لا يفيد . اعلان التوبة لا يفيد . العقاب لا مفرّ منه .

ـ العقاب كان قاسياً يومها . . العصا . . الفلقة .

ينقّل نظراته بين هادي وسليمان ، قبل ان يطلق سؤاله :

ـ أتدرون ما الذي حدث بعد ذلك ؟

فضول هادي يسبق فضول سليمان .

ـ ما الذي حدث ؟!

حاكم يجيب :

ـ بعد حوالي شهر من الحادثة فوجىء المزارع المعنى بحقله وقد دمرت اشجاره المثمرة . جنّ جنونه . ذهب الى الشرطة ضدّ مجهول . جاء الى مدير

المدرسة . الجريمة خطيرة . والاولاد لا يجرأون . ربما تكون لك عداوات خاصة بك .

ترتسم على فمه ابتسامة صغيرة .

ـ . . بعد اشهر عديدة أفلت لسان اكبرنا ، لنعرف انه نفّذ عملية تدمير الحقل وحده انتقاماً .

سليمان يتدخل :

ـ هل احسستم بالذنب وقتها ؟

ـ بالذنب ؟ . . لا . .

اجاب حاكم ، واستطرد :

ـ بالتقصير ؟ . . نعم .

* * *

كانوا شلّة متآلفة متكاتفة عرفت كيف تطوّر اساليب عملها ، فتحول الصبية ـ تدريجياً ـ من السطو على البساتين الى سرقة البيوت التي تركها اصحابها لأي سبب طارىء . كانوا يتحينون فرصة خلو البيت من اصحابه . .

ـ ليس ضرورياً ندخله من بابه ، قد نأتيه من خلال السطح ، او عن طريق تسلق شجرة قريبة من الجدار .

ـ خفّة حركة!

فيتجاوز حاكم تعقيب سليمان . يكمل :

ـ مثل هذه العمليات تصادف أحياناً حصيلة ما من أموال نقدية أو حلي ذهبية ، مما ساعد على توفير بعض السيولة ، جرى استغلالها للعب القمار وشراء السيجاير .

ـ الانحراف يأخذ منحى آخر!

حاكم لا يتوقف عند رأي سليمان . يواصل :

ـ الحال لم تستمر . اعضاء الشلّة تشتتوا خلال السنتين اللاحقتين . . الصبي الذي يكبرهم سنّاً ، وهو العقل المدبر للشلّة ، كان تورط بعملية

سطو ليلية منفردة ، حيث ألقي عليه القبض ، وانتهى الى السجن . باعترافه ، لم يتجرأ حاكم ، طوال السنوات اللاحقة يفكر بالسطو ، او بالتخطيط له .

ـ الامر يحتاج مقدرة وخبرة ـ عدا هذا . . فكرة دخول السجن ما كانت ترد على البال كنتيجة لما كنّا نقوم به .

سليمان يتدخل :

ـ اين كان التوجّه اذن ؟!

حاكم يبتسم .

ـ الامتناع عن السطو وارد .

ويستثني :

ـ . . لكن الامتناع عن لعب القمار غير وارد .

هادي يشارك مستوضحاً :

ـ القمار بحاجة الى مال!

ـ في البدء كنت أبتدع جملة من الأكاذيب كي أبتز النقود من أمي بحجّة مصاريف المدرسة ، لكني مع الممارسة حققت نوعاً من الاكتفاء الذاتي .

الاستغراب مع هادي :

ـ لم أفهم!

ـ قمارنا ذاك لعب ورق ، بقدر ما تمارسه تصير خبيراً به .

نظرات هادي تدلّ على انه لم يستوعب بعد . حاكم يستطرد :

ـ . . الغش في لعب الورق نوع من الفن . يعتمد على ذكاء اللاعب وخفّة يده قدر اعتماده على سذاجة اللاعب الآخر وامكانية استغفاله .

هادي يومئ برأسه دلالة استيعاب مشكوك به ، وسليمان يختصر :

ـ ماذا بشأن الدراسة ؟

ـ سنة رسوب ، وسنة نجاح ضعيف .

أجاب حاكم ، وأفاد :

ـ . . لا أخفي عليكم . . كنت لا أحتمل أخيّب ظنّ أمي . انا بالنسبة

اليها فرصة العائلة ان يتبوأ احد افرادها مركزاً او وظيفة حكومية مرموقة .

هادي بسؤال مفاجئ :

ـ تحبّ امك ؟

لتأتي إجابة حاكم صادقة :

ـ اكثر من اي شيء في الحياة .

سليمان على الخط :

ـ هل عشت تجربة حب ؟

ـ عشت .

رد حاكم ، وواصل بعد تفكير قصير :

ـ . . لكن حبَّ الأم شيء مختلف .

يفلت زفرة أسيانة .

ـ كنت احبها واخشى اغضابها في الوقت نفسه .

عيناه تشردان ثانية : صوته يتعمق :

ـ عطوفة ، حنونة ، تفيض رقة ، الى جانب كونها ـ اذا جدّ الجد ـ قوية الشخصية ، مسيطرة .

يعود بعينيه من البعيد . يتطلع في سليمان كأنه يقصد يخاطبه :

ـ حين تحدق اليك في عينيك يتملكك احساس انها تكشفك . تعرف خفاياك واسرارك .

* * *

شيء من المذاكرة بإلحاح من الأم ، الى جانب محاولات متنوعة من الغش اثناء الامتحانات ، فيأتي النجاح على حافة الرسوب .

كان ذلك فيما يخص سنوات النقل الاعتيادية ، ريثما وصل حاكم السنة النهائية من دراسته الثانوية .

ـ عمري صار ثلاثة وعشرين عاماً ، كنت مقارنة بزملاء صفي اكبرهم سناً .

شيء من المذاكرة ـ على الطريقة إيّاها ـ في مثل ظرف امتحانات بكالوريا الثانوية العامة لا يفيد . الغش بمحاولاته المتنوعة غير وارد .

ـ انا وأمي وحلمها بالوظيفة والمركز المرموق . . كلنا صرنا أمام أمر واقع . مسألة وقت ، أشهر معدودة ، ثم اواجه المصير المحتوم . . التجنيد الالزامي .

كانت المرة الاولى التي يُواجه فيها بقلق حقيقي . ليس شعوراً بالذنب او التقصير ، بقدر ما هو احساس بالمحاصرة .

ـ التجنيد الالزامي يعني ان تُسلّم نفسك . يُحلق شعر رأسك . يجري إرسالك الى وحدة عسكرية غالباً ما يكون مقرها في الشمال .

انقطاع جذري عن العائلة . لا أمل بعطلة او اجازة تسمح بسفرة عودة لزيارة الأهل قبل انقضاء سنة على الأقل .

ـ قلق الانتظار ، ولا مفر!

أن تهرب ، يعني أن تعيش مطارداً مهدداً طوال حياتك . أفراد الانضباط العسكري يجوبون الاسواق والاحياء . يعرفون طرائدهم بالغريزة . ما ان يشك الواحد منهم بك الآ واقترب منك بأدب . يطلب منك تُطلعه على ما يفيد انك انهيت سنوات خدمتك العسكرية .

ـ في أيامي العصيبة تلك التقيت احمد . .

سليمان مقاطعاً مستفهماً :

ـ احمد ؟!

حاكم يستدرك موضحاً :

ـ زعيم شلتنا أيام الدراسة المتوسطة .

هادي كأنه يشارك في التوضيح :

ـ كان أنهى محكوميته .

حاكم يضيف :

ـ وخدمته العسكرية ايضاً . فوجئت به رجلاً طويلاً عريضاً بشاربين

كثّين . السجن للرجال .

سألته عن أحواله . الحال ميسّرة . دعاني أشاركه شرب زجاجة بيرة . لحظتها خجلت أعتذر لأحمد بصفتي لم أكن قاربت الخمرة .

هادي بفضول :

ـ شربت ؟!

حاكم يجيب السؤال على طريقته :

ـ كانت ليلة ولا كل الليالي .

سليمان يستعجل :

ـ يعني ؟!

حاكم يجيب على سجيته :

ـ حياتي اللاحقة برمتها أخذت تتشكل بدءاً من تلك الليلة .

صوته يتلون حنيناً :

ـ أحمد بالذات كان بالنسبة لي المثال المحتذى . المرة الأولى في حياتي أُصادف رجلاً يتطوع يرعاني ، وينفق علي بكرم يخجلني دون انتظار لرد جميل .

سليمان يتدخل مقاطعاً :

ـ وماذا عن حساب النتائج ؟!

ترتسم على فم حاكم ابتسامة متفهمة .

ـ الأمور في مواقيتها .

ويكمل :

ـ فيما يخصّني لم أكن صبياً غراً . كنت حريفاً ضمن تخصصي واحمد حريف في حياته . الجميل في علاقتنا انه لم يطلب مني اشاركه اهتماماته . لم يصرّح عن عمليات السطو التي كان يزمع يقوم بها . كان شهماً بكل مافي الكلمة من معنى .

ـ المهم!!

تساؤل سليمان يتضمن شيئاً من نفاد الصبر . حاكم يتطلع اليه بنظرة مشوبة عتباً ، قبل ان يتم :

- قدح بيرتي الاول اطلق لساني . فتحت قلبي لأحمد . حدثته خيبة امل امي بي . عما أعانيه من شعور حاد بالاحباط . كان يسمعني باهتمام حقيقي . عيناه تشاطرانني حزني . زجاجة البيرة استدعت ثانية . اشركته قلقي بخصوص التجنيد الالزامي . طلب زجاجتي بيرة لاحقتين .

ربّت على كتفي . قال ان العسكرية تصنع الرجال ، وان صعوبتها في أيامها الأولى حسب .

بعد الزجاجة الرابعة فقد حاكم قدرته على تذكر الاحداث التي تلت ، ريثما وجد نفسه حوالي الساعة العاشرة صبيحة اليوم التالي نائماً في فراش وثير .

- وكانت سميرة - بجسدها الشاب المتفجر - تنام الى جانبي . تغط في سبات عميق .

الفضول من هادي :

- سميرة ؟!

حاكم يسترسل :

- الاسم عرفته لاحقاً ، انما هي من أجمل ما رأيت من نساء .

سليمان مداعباً :

- كم من النساء رأيت ؟!

يحدجه حاكم بنظرة مستغربة ، يواصل من حيث انتهى :

- بشرتها خمرية صافية . شعر طويل فاحم . . عينان سوداوان واسعتان . جسد نصف ممتلىء ، بزوايا محددة مثيرة . صدر . .

سليمان يقاطع بالمنحى ذاته :

- يبدو ان انقطاعك الطويل داخل هذا السرداب اضفى على صورة سميرة الكثير من المبالغة التي لا . .

يدخل عليه حاكم بما يشبه التحدي :

ـ لو أنك عرفتها عن قرب!!

ضحكة ودودة تنفلت عن سليمان :

ـ المهم . . كيف عرفتها أنت ؟!

* * *

فيما يخص ليلته تلك . . كان حاكم في حالة تجلّ فوق العادة بعد الزجاجة الرابعة ، مما اضطر احمد ـ حرصاً عليه ـ يصحبه معه الى بيت من البيوت إيّاها في منطقة المنزول[١] .

احمد ـ كما عرف حاكم بعدها ـ على علاقة حب مع احدى فتيات ذلك البيت تدعى حليمة .

ـ لم أزر المنزول من قبل . .

قال سليمان ، واستطرد :

ـ . . لكنه ، على مايقال ، عالم غريب قائم على ذاته .

هادي ينقل نظرات فضولية بين الاثنين ، قبل ان يصرّح :

ـ سمعت ان عبادان فيها منطقة كهذه!

حاكم وقد فهم ان الاثنين بلا خبرة ميدانية ذات دلالة يتطوع يوضح :

ـ المنزول عالم شبه منعزل عمّا حوله رغم كونه يقع في قلب مدينة البصرة ، له تقاليده وقيمه التي يعتزّ بها ، مبني من أساسه على علاقات عجيبة .

هادي وسليمان يهتمان يسمعان .

ـ . . عدد هائل من بائعات الهوى ، لكل واحدة منهن رجل فتوّة وصيّ يتولى حمايتها من بطش الزبائن اصحاب الأمزجة الساديّة ، وما شابههم ، وبالمقابل تتولّى المرأة الانفاق على الفتوة ، حيث تقاسمه دخلها من متاجرتها

(١) اسم مسمى لمنطقة الدعارة في مدينة البصرة ، وكانت الدعارة مهنة مصرحاً بها على أيام الملكية .

بجسدها .

ـ تحالف غريب!

يعقب سليمان ، فيؤمن عليه حاكم :

ـ ومصير مشترك .

ثم يردف :

ـ حين تدخل احد بيوتهم تقابلك المسؤولة الاكبر سنّاً ، عاهرة مُحالة على المعاش . لديهم عُرف معين . يعاملونك بناءً على خبرتك . فان كانت مرّتكَ الاولى حرصوا يعلّمونك ألف باء الجنس ، وان كنت طالب مِتعة محترف تُرك الخيار لك .

سليمان يهدف يختصر :

ـ هل احببت سميرة ؟

حاكم يستجيب على طريقته :

ـ في البدء . . لا

تندّ عنه زفرة أسيانة . يُعالج علبة سجائره . يدفع واحدة لهادي وأخرى لسليمان . يشعل . قبل أن يستطرد :

ـ صعب عليك تحبّ بالشكل الاعتيادي امرأة تعرف عنها انها عاهرة محترفة .

ـ إذن ؟!

ينفث دخان سيجارته . يحدّق في جمرة السيجارة .

ـ العاهرة من جانبها يصعب عليها تحبّ كالنساء الأخريات وهي ترضى ، او تضطر تتنازل عن جسدها لرجال مختلفين في اليوم الواحد .

هادي يؤمن بحركة موافقة من رأسه .

ـ صعب جداً!

شيء من مرارة يتبدى من صوت حاكم :

ـ لكنها اذا أحبّت ـ وهذا نادر ـ تحب بتفان واخلاص مُذهلين .

اهتمام بالمشاركة ينبع في وجهي سليمان وهادي ، في الوقت الذي اضاف فيه حاكم :

ـ حين تحب الواحدة منهن تبدأ ترفض جسدها تقدم لأيما رجل حتى وان اضطرت تستجدي لقمتها من زميلة لها .

صوته يوغل بالمرارة أكثر :

ـ . .تبدأ تحلم تتوب .

اهتمام سليمان بالمشاركة يترجم الى سؤال :

ـ تتوب ؟

ابتسامة حزينة متفهمة تأخذ فم حاكم .

ـ تعلن على الملأ انها من لحظتها اقلعت عن مهنة الدعارة ولن تعود اليها ثانية .

ـ تقليد غريب!!

حاكم لا يتوقف عند تعقيب سليمان . يكمل :

ـ . .يبقى أملها تتحول الى امرأة عادية شأن عامة النساء خارج المنزول . . لها بيت بباب غير معرّض يطرقه أيما رجل في أيّما وقت .

يصمت لثوان . يسترجع لحظات هاربة .

ـ . .مما يُلفت النظر . . أيام الجمع بالذات ، حين ينشط سوق البصرة ويزدحم ، يلجأ العديد من العاهرات الى لبس ملابس عادية بالعباءة ، دون التبرج المعهود . . ينزلن السوق . يتعمدن يضعن وسط زحمة عامة النساء .

سليمان يتعمد يختصر على طريقته :

ـ حليمة . . العاهرة التي أحبّها احمد . . هل أعلنت توبتها ؟

حاكم يختصر اجابته :

ـ اعلنت .

ـ تزوجت من احمد ؟

ـ تزوجت .

سليمان وقدقارب يصل هدفه :
ـ سميرة . . العاهر التي احبّها حاكم . . هل أعلنت توبتها ايضاً ؟
وجه حاكم ينطبع بألم مفاجىء . يبدو مُحاصراً من داخله .
ـ اعلنت .
استجابة سريعة تصدر عن هادي متخذة صيغة سؤال :
ـ تزوجتها ؟
إحساس حاكم بالمحاصرة يشمله اكثر . يجيب ضاغطاً فكيّه :
ـ لا .
سؤال يتضمن منحى الادانة يصدر عن سليمان :
ـ لماذا ؟!
إجابة حاكم تجيء مشوبة بغضب حانر :
ـ لألف سبب .
هادي يتابع مصغياً باهتمام . سليمان يحدّق الى حاكم منتظراً ايضاحاً مقنعاً . الأخير يبذل جهده يسيّطر على حدّة انفعاله .
ـ حين أعلنت سميرة توبتها . .
قال بصوت لا يخفي رعشة الاحساس بالذنب ، واستطرد مخبّراً بلوعة :
ـ . . .كنت نزيل السجن المركزي .
هادي يغمغم مذهولاً :
ـ السجن المركزي!!
حاكم يضغط رأسه بين كفيّه . بدا وكأنه على حافّة الانهيار .
ـ انتم لا تدرون!!
وصمت . . سليمان لا يجد ما يقوله ، الاحساس بالذنب ينتقل بعدواه اليه ، لولا اصراره يستنطق محدثّه لما . .

* * *

السرداب . . وهذا الارتباط الناشىء بينه وبين كل من حاكم وهادي . في

البدء كان الاندهاش المشوب بالترقب .

« أنا واحد منهم »

في البدء . . وهذا الاستعداد العفوي لدى حاكم يمدّ يد المساعدة الطوعية لأي منهما ، هو أو هادي . . لا فرق .

« نكران ذات »

حضور البديهة . امكانية التصرف السريع اذا دعت الحاجة . القدرة على تسيير الامور .

« خبرات كافية »

هادي . . سذاجة الكهولة . طيبتها التي تصل حدّ الذهول . فهم الامور بشكل واحد محدود ومحدد في الوقت ذاته . الحيرة العاجزة ازاء المتغيرات .

« ـ مشكلتي اني ببيتين ، بعائلتين ، بوطنين ، بولدين بالغين يخدمان جنديين مكلّفين في جيشين متواجهين . . »

نوع من التآخي الانساني وليد الظرف .

« سنّة الحياة . نلتقي كي نفترق ، فيذكر الواحد منّا الآخر بالخير ، لو كُتبت له الحياة »

الصداقة ـ كما خبرها سليمان ـ لها شروطها وظروف تكوّنها . . تآلفها من حيث المنحى السلوكي وتشابه الميول والاهتمامات ، اضافة الى عامل السن ، ومعطيات اخرى تسم كل حالة بسماتها .

سليمان ، وهو الآن . . وجه مختلف . ارتباط ناشيء يمتد نحو الآخر ، يتجذّر به ، دون البحث بأختيارات قائمة او مفروضة .

القلق الجماعي . مسؤولية المشاركة . واقع قائم يستدعي نمطاً من تفاهم دائم . الاهتمامات بتفاصيلها الدقيقة . نوع من وجدان مشترك غير مقصود .

« أهي الصداقة بوجه آخر لم يعرفه سليمان من قبل ؟! »

٩

في الخارج ، وأنت تعيش حياة اعتيادية ، تسعى لتحقيق طلبات... رغبات... أحلام... أمنيات... احتياجات ، أياً كانت التسمية... لا فرق . المهم ، أنك تسعى لتحسين وضع قائم ، إن لم يكن تغييره ، أو أنك تهدف ترضي رغبة أو حاجة مادية أو معنوية ، فإن تحقق الطلب سعيت إلى آخر أبعد ، أو أفضل .

في السرداب الأمر يختلف . الرغبات ، الطلبات ، الأمنيات ، الأحلام ، الاحتياجات... كل هذه البشريات مجتمعة تتأطر ضمن صيغة هدف واحد... المغادرة .

المغادرة في الأشهر الأولى تكتسب معنى الحرية... الحرية أولاً . وكل الذي عداها يأتي بعد وجوبية تحققها . على العكس من الخارج ، حيث تكبر الأمنيات فتؤدي إلى ما بعدها .

أمنيات السرداب ـ مع توالي الأشهر وتكريس حالة اليأس ـ تبدأ تتقزم ، وتصغر ، لتنقطع ضمن حالة إمكانية تحقق ما هو جزئي . فإن تغادر باب السرداب فترى الممر الطويل المؤدي... تلك أمنية .

محدودية المكان ، وانعدام الألوان . جدران أربعة ، سقف ، أرضية ، ولا شيء سوى اللون الكالح للأسمنت بما يترتب عليه انعكاس الضوء الأصفر .

السلّم... اكتسب اللون ذاته ، حاجز دورة المياه ، الساتر الخشبي ، المثبت على النافذة... انتهاء بحساء العدس ، والخبز العسكري الكالح ، بلونه

الضارب إلى الصفرة .

آخر ما يجري تذكّره عن الخارج الممر . وأنت تجيء بمصاحبة الشرطي لم تعن تدقق . حالتك كانت تستدعي غياب قدرتك على التدقيق والمراقبة .

الآن ، وأنت تسترجع الصورة ، تبدو لك التفاصيل واضحة رائقة . امتداد طويل يسمح للعين تتواصل مع المسافة دون أن يصدمها جدار عدواني قريب يلتقي بآخر مثله عند زاوية متربصة . أبواب حديدية سوداء على الجانبين . اللون الأسود له تميّزه ونكهته . الجدران بلون عشبي أخضر ، تشم فيه رائحة دهانه الذي كان طرياً .

ترى بقايا أريكة خشبية محطمة ملقاة في الزاوية الأبعد . السقف لم تتنبه إلى لونه ، أما الأرضية... كانت من بلاط بلونين ، أبيض وأسود . اللون الأسود له...

الأهم من كل هذا ، أنك ـ وأنت في الممر ـ تحس بالهواء يتحرك . تتنفسه وهو يتحرك . حين تأخذه إلى صدرك...

أمنية أخرى... أن يطلبك الضابط ، بصرف النظر عن الأسباب والنتائج . الطلب يعني الممر وأشياء أخرى مضافة .

يعني أن تدخل غرفة مكتب بكل ما فيها من موجودات توحي بتواصل اعتيادية الحياة . منضدة . كرسي . أريكة . خزانة . أرفف . ملفات . جهاز تلفون . حتى الإطار الذي يضمّ صورة الزعيم...

الأهم من كل هذا... وأنت هناك ستجد فرصة تصير قريباً من نافذة تطل على الشارع . الساتر من زجاج . إذن... ضوء الشمس . نصاعة النهار . الإحساس المرني بدفق الحياة بإعتياديتها الرائعة...

* * *

ـ كم من الزمن ؟

سؤال معلّق أطلقه حاكم ، ففهم عليه سليمان .

ـ ستة أشهر .

ليأتي التأكيد من حاكم :
ـ أكثر .
سليمان يطلق نصف ضحكة .
ـ ما الفرق ؟!
هادي ـ وهو ينصت ـ يفلت زفرة ، ويظل على إنصاته . الوقت قيلولة ما بعد الغداء . الهواء الساكن للسرداب يحس ثقيلاً رطباً ، جراء حرارة الصيف في الخارج .
ـ أنت على حق .
قال حاكم ، واعتدل في جلسته .
ـ ... حساب الأيام بالنسبة لمعتقلين قيد المحاكمة غير مُجد .
يصمت للحظات ، ثم يضيف :
ـ ... لو كنا بمحكوميات محددة لكان من حقنا متابعة عدنا التنازلي .
سليمان مردداً بما يعني الاستحالة :
ـ لو كنا...
هادي كمن استفزه التعبير يردد :
ـ لو كنا... لو كنتم...
قبل أن تتخذ لهجته صيغة إدانته نفسه :
ـ لو كنت أكثر فطنة ما غامرت عبرت شط العرب مرة ثانية بعد الذي حدث معي في المرة الأولى!!
سليمان يهتم يسأل :
ـ عبرته مرة ثانية ؟!
ـ وثالثة .
أجاب هادي دون أن يتخلى عن منحى إدانته نفسه . فتدخل حاكم مبدياً دهشة :
ـ تبدو وكأن الشط يمثل لك حالة تعدٍ!!

ليجيء تعقيب هادي حاسماً :

ـ أو سجن .

سليمان وحاكم يتبادلان نظراتهما . الرد المقتضب لهادي ـ بما فيه من دلالة ـ أثار استغرابهما .

* * *

الوحدة العسكرية التي ألقت عليه القبض لدى محاولته عبور شط العرب سلّمته مخفوراً إلى مخفر شرطة السيبة ، ولأنه من سكان السيبة أصلاً فإن العديد من أفراد شرطة المخفر يعرفونه بالأسم .

ـ كيف تتجرأ تعبر الشط في مثل هذا الظرف ؟!

ساروه أحد الشرطة متسائلاً بما يفيد خطورة الموقف . هادي أصدقه الرد :

ـ أردت أذهب إلى بيتي في المحمرة .

الشرطي يقرّب رأسه من هادي ، يهمس له محذراً :

ـ هذا الموضوع إنساه!

حاجبا هادي يرتفعان .

ـ أنساه ؟!

ـ إياك تعترف للضابط أنك أردت عبور الشط . اعترافك يعني ثبوت الجريمة عليك... السجن .

الحيرة مع هادي .

ـ ماذا أقول ؟!

الشرطي يقرب رأسه أكثر .

ـ قل... كنت أنوي أصطاد السمك .

* * *

ـ الضابط بادرني زجرني . قال إن الشط ، في هذه المناطق بالذات ، يعتبر منطقة حرب مقصورة على النشاطات العسكرية ، وإن أي نشاط غير

عسكري يعرّض صاحبه لإطلاق النار دون سابق إنذار .

ـ الضابط قال كلمة حق .

التعقيب يجيء من حاكم ، وهادي يستطرد :

ـ قال لي أيضاً إنهم لم يصدقوا ادعائي باصطياد السمك ، لكنهم سيتساهلون معي على أساس أنها سابقتي الأولى ، وسيطلقون سراحي لقاء كفالة شخصية وتعهّد خطي يلزمني بعدم تكرار المحاولة .

ـ التكرار يعني السجن .

قال حاكم ، فأكّد عليه هادي :

ـ هذا ما قاله الضابط بالحرف .

سليمان يبادر يسأل :

ـ ماذا بعدها ؟

هادي يستجمع ذاكرته .

ـ الكفالة الشخصية تطوع لها أحد الجيران ، وفيما يخصهم أخذوا بصمة إبهام يدي اليسرى على ورقة كتبوها هم .

الاستعجال يصدر عن حاكم :

ـ بعدها ؟

* * *

« ـ بما أنها سابقتك الأولى... »

ألزَموه باللاعبور ، ثم أطلقوا سراحه . جاره الذي كفله ، قال له :

ـ قل لا إله إلا الله .

وأضاف :

ـ عليك بالصبر ريثما تنجلي الأزمة .

بيته . زوجته . أولاده . شهر . شهران . ثلاثة... هو هناك... ساعة واحدة زورق ، ولا أحد يعرف معنى ستة أشهر من قطيعة إجبارية... بامتداد زمن قادم مفتوح .

«ـ ... منطقة حرب»
شط عريض يتطامى كما البحر .
«ـ ... نشاطات عسكرية»
مُذ فطن هادي والشط بالنسبة إليه وجود قائم لا شك فيه . حين كان في المحمرة كان الشط ، وفي السيبة هو الشط . يركب زورقه يكون الشط . هو الشط .
صيادو السمك ـ أيام ما قبل منطقة خرب ـ يرتادونه عرضاً وطولاً ، من أقصاه إلى أقصاه . زوارقهم . شباكهم . في الليل أو في النهار . وليس من يعترضهم...
«ـ من هناك ؟!»
الأمور تعقدت أكثر . الحشود العسكرية على الضفتين أكبر . حرب الإذاعات أشد...

* * *

ـ زوجتي وحدها عرفت بقراري .
ـ أن تعبر!
سليمان يتساءل ، وهادي يجيب على طريقته :
ـ ما كنت قادراً أصبر أكثر .
حاكم بدوره يتدخل :
ـ رغم المخاطر التي تتهددك ؟!
ـ كنت قررت أسلك سلوكاً آخر... أن لا أمنحهم فرصة إلقاء القبض علي... أن أتحاشى زوارق الدوريات العسكرية من الجانبين .
ـ كيف ؟!
يدري أنه تجاوز الستين من عمره . ومادام... فليس لديه ما يحرص عليه كحياة شخصية مؤهلة تمتد في المستقبل .
العرض... أن ينهض بأعباء مسؤوليته كأب رب عائلتين ، والعرض... أن لا

يقبض عليه فيسبب إحراجاً ومتاعب لجاره الطيب الذي كفله ، ولأجل يكفل نجاح مهمته عليه يغير أسلوبه من أساسه .

ـ مفروض بي ألا أترك مصيري مرتبطاً بالصدفة ، فأتحول في لحظة معينة إلى طريدة سهلة مكشوفة .

ـ تفكير منطقي .

ردد حاكم برضا ، في وقت واصل فيه هادي :

ـ كان علي ألعب دور الصياد .

يصمت مستذكراً برهة .

ـ أوصيت زوجتي تعد زاداً يكفيني يومين .

سليمان مندهشاً :

ـ لماذا الزاد ؟!

هادي يبتسم .

ـ الخطة تقتضي .

* * *

قال لزوجته :

ـ كل من يسأل عني... قولي له إني سافرت إلى بغداد بعمل .

ـ متى ترجع ؟!

لهفتها القلقة تسبق سؤالها . ومن جانبه لاذ بالصمت . السؤال لا يقل صعوبة عن إجابته .

ـ أراكم بخير...

الساعة كانت جاوزت الرابعة مساءً حين ركب زورقه . الشط مدّ . اختار يسلك المد . سار بمحاذاة الشاطئ . الضفة المحاذية لمزارع نخيل السيبة نظيفة من أحراش القصب . الشط ، في وضح النهار ، يبدو مترامياً مُباحاً للجميع ، لكن الأهالي يدركون ما الذي تعنيه الأوامر العسكرية . هم يُلزمون يبقون زوارقهم قريبة من الشاطئ . هذا عن وضح النهار ، أما الليل... فأية

حركة لأي زورق تعتبر تحت طائلة القانون .

ولأن الأهالي عامة يخشون طائلة القانون اضطُروا - كأغلبية - يستغنون عن زوارقهم كوسيلة انتقال أو ارتزاق .

- لحين تبدل الحال .

الوحدات العسكرية - بآلياتها الثقيلة والخفيفة - تختفي وراء سواترها الترابية على مبعدة ليست بالكبيرة عن الضفة ، متخذة من التزاحم المتداخل لأشجار النخيل بسعفها المتشابك مخابئ مثالية .

- ضرورات الاستحكامات .

طرادات الدوريات العسكرية قليلة الحركة في وضح النهار ، مادامت الرؤية - على مدّ النظر - واضحة . وشيء آخر... يجب ألا تكون هذه الطرادات أهدافاً سهلة لتصعيد طارئ لحالة الحرب الراهنة .

بناء عليه استحدث مرسى خاصاً للطرادات المعنية داخل نهر السيبة ، في موقع خفي مناسب ، يسبق نقطة التقائه بشط العرب .

* * *

الشمس بدأت تميل للغروب . ظلال النخيل تتطاول إلى مياه الشط الطافحة بالمدّ . هادي باق يواصل انسيابه في زورقه .

- كان يجب أتقدم أكثر .

نقطة التقاء نهر السيبة بشط العرب - حيث قاعدة رسو الطرادات - صارت بعيدة كفاية . ضفة الشط بدأت تزدحم بأحراش القصب .

- يجب أختار مكاناً تتواجه فيه أحراش القصب على الضفتين .

يلجأ إلى مجدافه الصغير . يضرب به صفحة الماء المتطامي . الزورق يندفع كما سمكة رشيقة الحركة .

- الوقت ما كان يحتمل!

الإحساس الحاد بالتوقع . كان وصل بزورقه بمحاذاة حرش قصبي مزدحم . دقق النظر في الضفة الأخرى... إيران .

ـ ليس أنسب من هذا المكان .

الساحل المقابل يزدحم بحرش قصبي كثيف ، لدرجة بدا معها شط العرب ـ في هذا الموقع بالذات ـ أضيق مما هو عليه جراء زحف حشود القصب داخل المياه الضحلة على جانبيه .

عند مدّ النظر بدت خزانات بترول مصفاة عبادان كبيرة مهيبة ، تتوهج أسطحها المعدنية الفضية بأشعة الشمس الغاربة . نقل عينيه في الأرجاء . مساحات الماء منبسطة خالية مما يوحي بالمراقبة والترصد .

ـ الآن!

استعان بيديه كي يوسع ممراً بين عيدان القصب المتشابكة . الزورق ينحشر بصعوبة . عيدان القصب تميل ، تغطس في الماء أثناء مرور الزورق فوقها ، لتعود تنتصب بعد مروره .

ـ يكفي .

وزفر بارتياح . القصب يحيطه من جهاته كلها . يخفيه مع زورقه عن أي دورية متوقعة ، سواء ما كان منها في الماء أو على البر .

* * *

ـ الظلام كان بدأ يزحف على الشط .

قال هادي بصوت يتضمن طعم الحلم . حاكم وسليمان يصغيان .

ـ ... الطعام الذي أعدته زوجتي أم عبد الرضا بنكهة متميزة... جميل أن تحس بالجوع وأنت...

يكف عن الاسترسال فجأة . عيناه تتوجهان إلى الساتر الخشبي على النافذة بحركة غريزية . صوت آذان العصر ، وهو يُرفع من مسجد في الخارج ، يُسمع خافتاً كأنه آتٍ من مكان سحيق . عيناه ـ لدى انشدادهما ـ تترجحان حالة تحقق مستحيلة . بعد قليل يتنبّه إلى أن الاثنين يراقبانه . يبتسم خجلاً ، يكمل حديثاً قطعه :

ـ الليل في أوله . مياه الشط تتطامى على سجيتها ، لا أثر لزوارق

عسكرية بعد . ظلام الشط له خصوصيته . سرعان ما يشعرك بالاطمئنان .
تحس بالماء أنيسك .

حاكم يتساءل بهاجس من فضول :

ـ تحب الشط ؟!

* * *

سكينة المساء . الرياح اللعينة . من موقعه وسط حرش القصب بدأت أذنا هادي تستجيبان لسماع أصوات منبهات السيارات من الجانب الآخر.. عبادان .

يحس نفسه ينشد من داخل صدره إلى هناك . المحمرة على مرمى عبادان . وحتى يصل بيته ما عليه سوى...

الأضواء التي لا حصر لها... لمصفاة النفط العملاقة تتلألأ ، تنعكس على صفحة الماء كما هي حالها منذ إنشائها .

مع الساعة التاسعة أحسّ بالدوي وكأنه آتٍ من تحته . الليل والماء الناقل للصوت . القلق يمازجه التوقع ، وفي التو انتقلت عيناه حيث نقطة التقاء نهر السيبة بشط العرب .

من على ذلك البعد انفلتت ثلاثة زوارق طرّاد تمخر شط العرب جنوباً ، لحقتها ثلاثة أخرى اتخذت اتجاهاً مغايراً .

ـ الصيد الليلي .

وفي التو نشط الجانب الإيراني بعدد من الطرادات مماثل .

ـ مصادفة أم اتفاق ؟!

تساءل سليمان بفضول ، فأبدى حاكم وجهة نظره :

ـ استعراض قوى .

هادي لا يعترض على ما يسمع . يكمل :

ـ من مخبئي داخل القصب طفقت أراقب . الطرادات من الجانبين توجه أضواءها الكشافة تجاه بعضها . تتقارب عند منتصف الشط ، لدرجة توحي

باحتمال التصادم ، لتعود تتباعد .

ـ مستلزمات الحرب الباردة!

هادي لا يتوقف عند تعقيب حاكم .

ـ صوت هدير المحركات يُحس بأشد من خلال الماء...

الطرادات بعد استعراضها لمثيلاتها من الجانب الآخر تتقاسم مساحات المسطح المائي ضمن دورات استكشافية منظمة ، وموزعة حسب مناطق نفوذ .

أحد الطرادات يقترب من حرش القصب ، حيث هادي وزورقه ، الأنوار الكشافة تكاد تتغلغل داخل الحرش .

ـ ماذا لو...

الطراد يمر بموازاة الحرش . الأمواج المتسببة عن مروره تخض زورق هادي بعنف . كما لو أنه جزء من لعبتهم .

الطراد يبتعد صعوداً . بعد دقائق يلحقه طراد ثان . يغيبان في العمق من البعيد . المياه تحت زورقه تبدأ تهدأ . الدوي يخف تدريجياً . يتلاشى . ليعود يتصاعد بعد حوالي الساعة . الطرادان يقفلان عائدين .

* * *

المراقبة تقتضي يقظة وحذراً كافيين . خلال ليلته تلك وحتى شروق شمس اليوم التالي ـ ليستتب هدوء الشط وتهجع طرادات الجانبين في مراسيها الخفيّة ـ توصّل هادي ، من خلال تربصه في مكمنه ، إلى استنتاجين أساسيين .

ـ الأول... طرادات الجانبين تنشط في وقت واحد . الثاني... الجولات الموزعة حسب المناطق تتم ضمن وقت أقصاه ساعة واحدة ما بين جولة الذهاب والإياب .

ـ أمور محسوبة!

قال سليمان مصرحاً عن إعجابه . هادي يبتسم برضا .

ـ مسألة العبور ما عادت صعبة .

حاكم بصيغة اشتراطية :

ـ إذا صدقت حساباتك!

هادي يوافق كلام حاكم بهزة من رأسه .

ـ مفروض بي أقضي نهاري التالي في مخبئي ذاك . الزاد متوفر . فإن جاء الليل...

مساهرته للشط ، ومراقبته ما دار فيه حتى الصباح ، استنزفت عليه قواه . خدر النعاس لا يكبس له جفنيه وحدهما ، لكنه يشمل جسده كله .

ـ ليس أمتع...

مدّ ساقيه على طولهما . مال بجسده إلى وراء . نسيم الصباح ببرودة منعشة . حفنة عصافير تحوّم في الجوار تحاول تجد محطاً داخل حرش القصب .

* * *

الشمس كانت شارفت المغيب حين استيقظ هادي . الزورق في مكانه مازال . حرش القصب في مكانه .

حاول يستعيد حواسه . الألم ينبعث في ظهره جرّاء نومته الطويلة على الجسد الخشبي للزورق . يتحرك يعتدل جالساً . الطموح إلى الضفة الأخرى... إحساسه بالجوع يأخذ عليه جانباً من اهتمامه .

ـ الأشياء في حينها لها نكهتها الخاصة!

الشط كان بدأ مدّه الليلي . ما بين التاسعة والعاشرة ليلاً تصل حركة المد أقصاها . مياه الشط ـ لحظتها ـ تبدو كما المستقرة حيث هي ، مما يسهل انزلاق الزورق فوق سطح الماء بخط مستقيم...

ـ لابد من حساب دقيق لمسألة الزمن .

قبل التاسعة بقليل أحس بهدير المحركات في الماء... تحته .

ـ توقيت منضبط!

طرادات الدوريات تبدأ نشاطاتها الاستعراضية من على الجانبين .

ـ ما حدث أمس يحدث الآن .

بعد نصف ساعة تقريباً سلك أحد الطرادات العراقية مساراً شمالاً مقترباً ناحية الحرش حيث مكمن هادي ، يلحقه ثان عن بعد . طرادان مشابهان ، من الجانب الإيراني ، يسايران الضفة الأخرى .

ـ الوقت أزف!

الطراد يحاذي الحرش . القصب يكاد يشتعل بالأنوار الكشافة . الأمواج المترتبة تخض زورق هادي . بعنف . الطراد الثاني يلحق سابقه .

ـ الآن!!

الطرادات تتوغل صعوداً . هادي يوسّع ممراً لانفلات زورقه من اشتباك القصب . مياه المد طافحة . صفحة الماء تكاد تكون ساكنة . مجدافه في يده . ضربة أولى . ثانية . الزورق يبدأ ينزلق . تدهشه القوة الجديدة التي أحسّها في ذراعيه .

ـ السابقة الأولى يجب تبقى أولى!

الكفالة الشخصية والتعهد الخطي . بصمة الإبهام .

ـ لن أمنحهم فرصة ثانية!

الظلام ليس حالكاً كفاية . احتمالات الانكشاف واردة . حرش القصب من الجانب الآخر يتبدى لعينيه . ضربات المجداف تتوالى .

* * *

صمت هادي لثوان التقط خلالها أنفاسه . حاكم يبادر يدفع إليه سيجارة ، قبل أن يلتفت إلى سليمان .

ـ تدخن ؟

ـ أدخن .

أجاب سليمان ومدّ يده يتناول . ليعود صوت هادي يتواصل :

ـ طيلة السنوات التي عملت فيها بالتهريب لم تواجهني حالة القلق تلك .

شعرت أن جاري الذي كفلني لدى الشرطة يقف خلفي يراقبني... صوته... «قل لا إله إلا الله» يتردد في أذني ، كنت مسؤولاً ألا يلقى عليَّ القبض بأي ثمن .

سليمان يقول باهتمام مشارك :

ـ مسؤولية مشروعة .

هادي يتم :

ـ رغم الاندفاع السريع للزورق أحسسته وكأنه ثابت في مكانه . شعرتُ بالشط وقد زاد اتساعاً عن ذي قبل .

حاكم يردد بتفهم :

ـ عامل الخوف .

ـ كنت أطمح لحظتها أن أصل إلى أقرب ما يمكن من الضفة الأخرى ، ولا بأس بعدها أن يُكتشف وجودي هناك...

فيقاطعه سليمان مستوضحاً :

ـ تقصد... في الجانب الإيراني ؟!

* * *

لو حدث واعترضته زوارق الدورية الإيرانية...

«ـ من هناك ؟!»

إجابته ستكون :

«ـ هادي جواد . من أهالي المحمرة . تبعية إيرانية .»

جاره الذي كفله في الجانب العراقي سيكون بمنأى عن المتاعب ، وسابقته ـ بدورها ـ ستكون سابقة أولى .

«ـ كنت أصطاد السمك» .

ولن يدقق بالنتائج المترتبة . اعتقال . سجن . إطلاق سراح .

ـ الاجتياز أولاً!!

حرش القصب الإيراني في مكانه . رؤيته له تتضح أكثر .

ـ وهذا الزورق لا يكاد يتحرك من مكانه!!

بعد قليل تبدأ طراداتهم تقفل راجعة . سيكشفونه لا محالة . الماء من تحته يستجيب لدوي المحركات .

ـ يجب أجدّف بأسرع!!

أضواء مصفاة عبادان تنعكس في عينيه . الإجهاد يتسرب إلى ساعديه . ينشب في كتفيه .

ـ يجب... أقوى!!

الأضواء تشتبك في عينيه . كيف يصل الإحساس بالتعب حدّ ذرف الدمع ؟!... الحرش القصبي يغيم جراء امتلاء عينيه بدموعه . يطبق جفنيه . الإحساس بحرقة الدمع .

ـ الحياة بثمن باهظ!

دوي المحركات ، وها هو زورقه يندس كما الرمح ـ بسبب سرعته ـ خلل الحرش ، في الحين الذي بانت أنوار الطرادات قادمة من بعيد .

* * *

ـ كمنتُ مع زورقي داخل القصب . الطرادات الإيرانية مرّت دون أن تلحظ وجودي .

ليجيء تعقيب سليمان مضمناً إعجاباً :

ـ عرفت تعبر!

هادي يعبر على التعقيب . يتم :

ـ كنت تعباً ما فوق الطاقة . لهاثي يقطع أنفاسي ، ووخزة من ألم حاد تنخر كتفي .

ـ عامل السن!

قالها حاكم بمشاكسة بريئة . هادي يبتسم بسعة صدر .

ـ بقيت في مكاني حتى الفجر واستتباب هدوء الشط . دفعت الزورق بصبر تجاه الشاطئ . نزلت . التعب ما عاد . وخزة الكتف زالت .

ابتسامته تكبر على فمه .
- كنت ، على غير عادتي ، مليئاً نشاطاً ، قادراً أركض... لو دعت الحاجة .
- فرحة الإنجاز!

* * *

مصفاة عبادان كانت أطفأت أنوارها . المنطقة - حيث هو - تبدو أشبه بالمهجورة .
- الوقت مبكر!
عيناه تقعان على كوخ قريب . الأكواخ هنا مثلها هناك . تحسس جيبه . محفظته في مكانها .
- النقود المتبقية عن قيمة الأرض .
يحزّ في نفسه أنه باع آخر قطعة أرض يملكها .
« - قل لا إله إلا الله! »
الدرب الترابية ما بين مزارع النخيل . بعد قليل تنشط حركة العمال المتجهين نحو مصفاة عبادان . مطلوب منه أن يندس بينهم ، لينفصل عند مفرق الطرق .
- إلى المحمرة!
- ألم تصادفك متاعب ؟
سليمان يسأل ، فيأتي توضيح هادي معلقاً :
- في البدء... لا .

* * *

كانت الشمس بدأت تنشر أشعتها الصباحية على المحمرة ، بأسواقها وأزقتها . الناس بدأوا يمارسون يوماً من أيامهم الاعتيادية ، حين فتحت له زوجته باب البيت . كانت عاجزة تصدّق عينيها .
- هادي!!
صرخت بلوعة يشوبها فرح جيّاش لتطفر - في التو - دموعها من

عينيها ، قبل أن تهرع إلى يده تقبّلها .

لحظتها أدرك هادي زخم المحبة التي يكنّها لها . مال عليها . زفع رأسها . أخذها إليه . أحسها تنتفض عنده .

ـ أين الأولاد ؟

سألها بحنو ، فأجابته دون أن تنزع رأسها عن صدره :

ـ نيام .

وأضافت متسائلة بامتثال :

ـ تحب أوقظهم ؟

صوتها الدافئ يؤكد له أن العيال ـ رغم الشظف ـ مازالوا بسلام .

ـ ليس الآن .

أجاب تساؤلها ، ليماشيها باتجاه باب غرفتها .

* * *

الارتياح في اليوم الأول... الأسبوع الأول... الشهر الأول... مبلغ المال الذي حمله هادي معه بدأ يقل رويداً رويداً ، قلق الضفة الأخرى ، عائلته ساكنة السيبة ، بدأ يتململ ليتزايد مع انصرام الأيام . من أين تتأتى القدرة على التوزع هنا وهناك في الوقت نفسه .

ـ فكرة أن أعبر أتسلل إلى الضفة الأخرى بدأت تلح بشكل جدي .

التساؤل يصدر عن سليمان :

ـ بالطريقة ذاتها ؟!

هادي يفلت زفرة أسى .

ـ كان مفروضاً بالطريقة ذاتها ، لولا مناسبة لقائي لشاهبردي .

السؤال على لسان حاكم حاملاً صيغة الدهشة :

ـ شاهبردي ؟!

ـ مهرب إيراني محترف .

أجاب هادي ، وأضاف :

ـ التقيت به صدفة في إحدى مقاهي المحمرة .

* * *

وهو يشاركه ارتشاف الشاي في المقهى الكائنة وسط زحمة سوق المحمرة قرّب شاهبردي فمه من أذن هادي .

ـ أربعون «رأس» قيد التسليم!

همس بلهجة التاجر الذي يعرض بضاعة ثمينة موثوقاً منها .

ـ ماذا ؟!

تساءل هادي بانشداه . الفكرة بحدّ ذاتها تبعث على رعدة الفزع . أن تغامر فتتولى عملية تهريب متسللين إيرانيين عبر الأراضي العراقية في مثل ظروف حالة الحرب القائمة...

ـ مخاطرة جسيمة!!

أفلت شاهبردي ضحكة قصيرة واثقة .

ـ ربما .

هادي يحدّق فيه مستغرباً .

ـ ... إنما هناك من قاموا بالعملية... ولديهم الاستعداد للقيام بها .

ـ في مثل هذه الأيام ؟!

ـ مثلها وأسوأ منها .

ـ كيف ؟!

سؤال هادي لا يتضمن هاجس السؤال عن الكيفية ، بقدر ما يعني الاستحالة . شاهبردي يفترض الهاجس الأول . يجيب :

ـ إذا أحكمت الخطة ضمنت إنجازها دون عقبات .

هادي لا يجد ما يقوله ، وشاهبردي يواصل بالثقة ذاتها :

ـ عدا هذا هي صفقة العمر الحقيقية .

ـ صفقة العمر!!

هادي يتساءل بحيرة ، وشاهبردي يبت في كلماته :

ـ لا حاجة بك بعدها لأي نوع من أنوع التهريب وغير التهريب .
يشدد على كلمته الأخيرة :
ـ ... بالمرّة!

* * *

وضعه المعاشي المتردي . المئة دينار التي قبضها ثمناً لقطعة أرضه المتبقية أوشكت...

ـ وما عاد ما يباع!

فكرة أن يعمل فلاحاً أجيراً لدى الغير غير واردة . مسألة السن .

ـ كنت بلغت الستين .

ولداه... عبد الرضا وصادق ـ وهما الأكبر في عائلتيه ـ بإمكانهما الالتحاق بأعمال مساعدة ، لولا خدمتهما الإلزامية في الجيشين المعنيين .

ـ مرتّب الجندي المكلّف ـ هناك أو هنا ـ قروش معدودة ، لا تكاد تفي ثمن السجاير .

هادي يكفّ يتكلم . وجهه بانطباع دال على الشعور بالعجز . سليمان يتدخل بوازع من مشاركة :

ـ الهموم تأتي جملة!

إحساس قاتم بقدوم الليل يهيمن على السرداب . ساعة الغروب تتمثل في الخارج . أصوات باعة الخضار في السوق الموازية لمبنى إدارة الأمن تتداخل ببعضها لتخترق الساتر الخشبي على النافذة . الباعة يستعجلون تصفية متبقي بضائعهم . هو الليل...

ـ ماذا عن صاحبك المهرب شاهبردي ؟

السؤال يصدر عن حاكم . هادي يتطلع فيه . فيكمل سؤاله :

ـ ... هل وافقته صفقته ؟!

هادي يبدو وكأنه حوصر . جفناه يطرفان .

ـ قال لي شاهبردي إن الصفقة مضمونة .

يرنو إلى حاكم بما يشبه الرجاء . يستطرد :
ـ قال إنه يتكفل بالجانب الإيراني .
ينقل عينيه إلى سليمان برد فعل من تلقى سؤالاً ، وأردف :
ـ قال إنه سيتولى أمر تجميعهم وتوقيت ساعة عبورهم .
ليفاجئه سؤال حاكم واضحاً :
ـ هل وافقته صفقته ؟!
هادي لا يتوقف عند سؤال حاكم . ردّ فعل بالإحراج ينطبع في صوته :
ـ قال إنه سيتولى توفير الزورق الذي يقلهم إلى الضفة الأخرى .
سليمان وحاكم يلزمان الصمت . الأخير ينشغل بالنظر ما بين قدميه .
ـ قال... حصتك من الصفقة أربعين ديناراً عن كل رأس ، وإن كامل المبلغ سيُدفع...
حاكم يقاطعه بسؤال ذي حسم ونظراته باقية بين قدميه :
ـ هل وافقته صفقته ؟!
ـ وافقته .
أجاب هادي بتسليم مُرغم ، ليستدرك بكلمات راعشة :
ـ الذي حدث... أنهم...
ويكف عن الاسترسال . كان حاكم رفع وجهه إليه . عيناه في عينيه . نداءات باعة الخضار كانت كفّت تُسمع ، هو الليل... كلمات حاكم تتردد يقينية نقية الحزن .
ـ مسألة فيها نظر!

١٠

ـ ليكن في بالك أن العراق ليس كعهدك به!

كلمات قالها لك البيك يوم مغادرتك الكويت . وأنت تسمع رددت مع نفسك :

ـ له الحق مادام عهدهم ولّى ، وحلّت الجمهورية بديلاً للملكية .

الآن ـ وبعد مرور ما يقرب من تسعة أشهر على إقامتك في السرداب ـ أصبح لكلمات البيك معنى آخر مختلف .

« إصدار الحكم وتوقع النتائج... »

يوم وصولك كان استنتاجك المترتب على توجّسك :

« الناس غير! »

الأصدقاء ، وحدهم ، عرفوا يبقون كما هم . ليجيء الفقدان فيشمل الأصدقاء وما عداهم .

« أنت أمن ثورة! »

إحساسك المهيمن أنك جزء من هذا السرداب بتفاصيله المحددة البسيطة ، وأن حياتك بدأت هنا ، لتتواصل بامتداد مفتوح على زمن لا نهاية له . وأن كامل حياتك ما قبل السرداب لا تعدو كونها ذكريات موغلة في البعد تخصّ إنساناً غيرك .

« ـ ... العراق ليس ... »

ولا شيء سوى حسابات الزمن ، وهذه الصحبة باعتياديتها وتوالياتها اليومية . التفاصيل المترتبة على روتين ما هو مشترك .

ـ يجب نحتاط للسجائر... كادت تنفد!

للوقت تقاسيمه الخاصة به ، وإلا فأنت مهدد بنوع من الانهيار العصبي جراء الشعور بتوقف الزمن عند لحظة اجتياز ذلك الباب الحديدي إلى الداخل .

ـ الجو غائم في الخارج... على ما أعتقد!

اليقظة الصباحية الحقيقية تبدأ مع نشاط الحركة في الشارع .

ـ هي السادسة صباحاً!

دوي محركات السيارات ، ونتف من أصوات بشرية متواترة ، ويجيء نداء الباعة الجوالين كما هتاف الفرح .

« الأصوات البشرية لها غناها الخاص! »

السادسة صباحاً لا تعني مغادرتك سريرك فوراً .

« تغادره لمن ؟! »

تظل مضطجعاً على ظهرك . تود تجد فرصة تستذكر نتفاً من حياة أخرى انفصلت عنك . تبقى في سريرك ليس نشداناً لراحة جسدية ، فالزمن كله راحة جسدية ، وإنما بقصد إيجاد نوع من التوزيع المتوازن للوقت الفائض .

« الوقت كله فائض! »

حتى السابعة . ثم دورة المياه ، يليها الاستعداد لوجبة طعام الصباح .

« العدس »

فإن حدث وتأخر موعد وصول الوجبة تملكك القلق .

« ما الذي أخّرهم ؟! »

فائض وقت غير محسوب تحتار كيف تتصرف به .

ـ خذ سيجارة!

في أشهرك الأولى كنت تُقبل على الطعام إقبالك على واجب لابد من أدائه . تأكل . تنتهي بالسرعة المعتادة .

مع مرور الزمن برتمه المتباطئ اكتسبت مجالسة الطعام عادة مستجدة غير مقصودة . صرت تأكل ببطء وكأنك تهدف تشغل وقتك بهذا النوع من العمل .

إثر الانتهاء من وجبة الإفطار ، التي صارت تستغرق زهاء الساعة تتخللها نتف من أحاديث متواترة مع هادي وحاكم ، تلجأ إلى سريرك بمحاولة للنوم .

* * *

ـ لو كنا في السجن المركزي لاختلف الوضع .

قال حاكم ، وأكمل :

ـ ... في المركزي الكثير من المساجين . عنابر وساحات ومبنى إدارة وردهة كبيرة لتناول وجبات الطعام .

الوقت كان حوالي العاشرة صباحاً . حركة السيارات في الخارج على أشدّها . هادي وسليمان يهتمان يسمعان .

ـ هناك يسمحون بالزيارات في الأعياد والمناسبات .

هادي يردد بما يوحي بالأمل المستحيل :

ـ هناك!

حاكم يواصل :

ـ عدا عن ذلك لديهم ورش يتعلم فيها السجناء بعض المهن اليدوية ، بقصد تأهيليهم لما بعد السجن .

سليمان يبادر يسأل :

ـ وما المهنة التي تعلمتها هناك ؟

حاكم لا يفاجأ بالسؤال . يجيب :

ـ كنت بصدد أتعلم صيانة الأدوات الكهربائية .

هادي يستوضحه :

ـ بصدد ؟!

ـ بعد مرور أسبوعين على التحاقي بورشة الصيانة قامت الثورة فأطلقوا

سراحي .

سؤال آخر يطلقه سليمان :

ـ لماذا دخلت السجن ؟!

ينفرج فم حاكم عن ابتسامة حزينة مشوبة بشيء من سخرية .

ـ المحامون الذين تولوا قضيتي...

ـ محامون ؟!

رددها هادي بذهول . حاكم وكأنه لم يسمع ما قاله هادي يتم :

ـ ... قالوا إنها قضية دفاع عن النفس .

ليواجه بسؤال من سليمان :

ـ وأنت... ماذا تقول ؟!

* * *

الانكشاف على الحياة الجديدة التي يعيشها أحمد . البيرة تؤدي إلى أخرى ، والأخرى تشير إلى العرق .

أحمد له نمط حياته الذي يعتاش منه ، إلى جانب شكل ارتباطه بحليمة ، التي ما كانت تتردد تبدي له تعلقاً يصل حدّ العشق .

عالم يمارس نشاطه ليلاً لينام نهاراً . الخمور بأنواعها ، والنساء... فيما يختص بحاكم رضي يرتبط بسميرة منذ الليلة الأولى .

ـ كانت ماتزال صغيرة ، جديدة على مهنتها ، باقية تتمتع بجانب كبير من البراءة التي تكاد تنعدم لدى المحترفات .

ـ وأنت ؟

السؤال يصدر عن سليمان . وحاكم لا يتردد يجيب :

ـ كنت في البدء شاباً غرّاً ، لا أحسن التصرف عند الضرورة ، وكان على أحمد يأخذ بيدي خطوة خطوة .

سليمان يتساءل ثانية :

ـ إلى أي مدى ؟

ـ في أيامنا الأولى تولى أحمد مسألة الإنفاق عليّ .
أجاب حاكم ، واستطرد :
ـ ... إنما لكل شيء حد ، ومفروض بي أتولى أمر نفسي .
هادي يتساءل بهامش من الفضول :
ـ كيف ؟
يصمت حاكم مفكّراً برهة .
ـ المهنة الوحيدة التي كنت أجيدها هي لعب الورق ، وحين عرف أحمد أني موهوب في القمار تبادرت إلى ذهنه فكرة .
سليمان مقاطعاً وقد تذكر أمراً :
ـ علاقتك بأمك ؟
ـ ساءت إلى أبعد الحدود .
قال حاكم . مسحة حزن تتصدر وجهه ، وأردف :
ـ كنت انقطعت عن البيت نهائياً . شاركت أحمد سكنه . شبح التجنيد الإلزامي كان يطاردني .
تندّ عنه زفرة أسى .
ـ ... اليوم الذي يتوجب عليّ فيه التحق جندياً مكلفاً صار يقترب . كنت غارقاً حتى أذني في الحياة الجديدة التي اكتشفتها .
عيناه تغيمان على البعيد ، صوته يندغم بالحلم :
ـ ... كنت أهدف أرتوي من الحياة التي بين يدي قبل أن أضطر أعيش حياة الانقطاع في الجيش .
هادي يتوفر يسمع باهتمام ملفت للنظر . سليمان يتدخل معقباً :
ـ كأنك تعاني حالة يأس!
حاكم متفكراً :
ـ ربما .
ليستعجلهما هادي :

ـ المهم!

حاكم يبتسم في وجه هادي بمحبة . يواصل :

ـ الفكرة التي تبادرت إلى ذهن أحمد أن نذهب إلى أكبر وأحدث فنادق البصرة أيامها ، فندق شط العرب .

يوسّع من ابتسامته .

ـ ... نلعب القمار هناك .

* * *

عندما احتج حاكم :

ـ طيلة حياتي لم أدخل فندق شط العرب!

واجهه أحمد :

ـ أمامك فرصة تدخله الآن .

ـ لماذا هذا المكان بالذات ؟

ـ لأنه أفضل مكان تمارس فيه موهبتك .

بقية من قلق ماتزال تلازم صوت حاكم :

ـ أخشى أن نواجه بمحترفي قمار حقيقيين!

ضحك أحمد باتساع فمه .

ـ ليس في البصرة!

ربت على كتف حاكم ، وأكمل :

ـ في فندق شط العرب بالذات ستجد العديد من الضباط الإنجليز ، ممن يعرفون كيف يسكرون ، ومن ثم يلعبون كي يخسروا .

حاكم يبدي دهشته :

ـ من أين يجيء هؤلاء الضباط ؟!

ـ من قاعدة الشعيبة .

حاكم يهتم يستوضح أكثر ، وأحمد يضيف :

ـ مساء كل يوم سبت يأتي العديد منهم بسياراتهم الجيب إلى فندق شط

العرب ، حيث يسهرون ، يعربدون على طريقتهم حتى فجر الأحد . يعودون بعدها إلى قاعدتهم في الشعيبة .

* * *

ـ الفكرة مثيرة... أن ألعب مع الإنجليز ، فأسلبهم نقودهم .

سليمان يقاطعه :

ـ تسلبهم أم تكسبهم نقودهم ؟!

حاكم يتوقف عند السؤال مفكراً .

ـ لا أدري لماذا استخدمت هذا التعبير!

ـ أنت تكره الإنجليز ؟

تساءل سليمان ، فجاء ردّ حاكم سريعاً :

ـ جداً .

ـ لماذا ؟!

هادي يتابع جدل الإثنين بنفاد صبر باد . حاكم يجيب :

ـ أنا لم أعرف من الإنجليز غير ضباطهم ، كانوا متعجرفين ، يتعاملون مع الآخرين باحتقار .

سليمان وقد تذكر أمراً :

ـ كنت تتعاطى السياسة إلى جانب القمار ؟

ـ على أيامي تلك كان القمار وحده ، أما السياسة فكان علي أن أتعاطاها ما بعد الثورة .

كلمات حاكم تثير اهتمام سليمان .

ـ تبدو وكأنك كنت مرغماً!!

حاكم يتطلع في سليمان مستغرباً ، والآخر يوضّح :

ـ قلت... كان عليَ أتعاطاها!!

تندّ عن حاكم ضحكة قصيرة .

ـ تدقق فيما وراء الكلمات!

ردد بصيغة تتضمن عتباً ، في الحين الذي طفح فيه كيل هادي :
ـ ماذا عنكما... أنت وصاحبك أحمد ؟
حاكم يستجيب . يكمل من حيث توقف :
ـ أحمد أصرّ يشتري لي بدلة جديدة فاخرة ، مع مستلزماتها كافة . لدرجة أني ، بعد استكمال قيافتي ، لم أكد أتعرف على نفسي وأنا أتطلع في المرآة .
هادي وسليمان يصغيان :
ـ بعدها اختار مساء أول يوم سبت ، ولا أدري كيف تدبّر أمر سيارة خاصة ، قال إنه استعارها من أحد معارفه ، ليقودها بنفسه حتى مدخل الفندق .

* * *

ـ كن صبوراً!
قال أحمد لحاكم بلهجة تحذيرية ، وأتم :
ـ راقبني كيف أتصرّف!
ما ان وقفت السيارة عند المدخل حتى هرع إليهما أحد ندل الفندق بلباسه التقليدي ، ليبادر يفتح باب السيارة الذي عند حاكم .
ـ انزل برزانة وانتظرني عند الباب!
همس أحمد لحاكم .
ـ حاضر .
ردد حاكم مندهشاً ، لتتضاعف دهشته لدى سماعه كلمات ترحيب نادل الفندق :
ـ أهلاً وسهلاً سعادة البيك .
ـ أهلاً .
في اللحظة التي وصل فيها أحمد ليخاطب النادل بأنفة :
ـ خذ السيارة إلى الموقف!

النادل مع انحناءة طائعة :

ـ أمرك سعادة البيك .

قبل اجتيازهما مدخل الفندق لمحت عينا حاكم ثلاث سيارات جيب عسكرية متوقفة تحت ظلال شجرة عملاقة على يمين المدخل .

« الضباط الإنجليز! »

ـ راقبني كيف أتصرف!

ـ حاضر .

ردد حاكم بامتثال . كان مأخوذاً إزاء ضخامة قاعات الفندق وأثاثه الجلدي الوثير ، وهذا الكمّ الهائل من المصابيح الكهربائية والخدم .

ـ ما كان في بالي مثل هذا الفندق!!

غمغم حاكم مبهوراً ، فأخذه أحمد من ذراعه .

ـ تعال شاهد صالة القمار!

* * *

وهو يبدأ حديثه عن القمار بدأت عيناه تلمعان بنظرة حالمة ، وأخذ صوته يتناغم . سليمان ـ من خلال ملاحظته ـ يعقب :

ـ تبدو مغرماً بلعب القمار!

ليجيء تأكيد حاكم :

ـ الأصح أني مهووس .

قبل أن يستطرد :

ـ الصالة ، حيث أخذني أحمد ، بعدد وافر من طاولات مستديرة ، مغطاة بمفارش خضراء ، صُفّت حولها مجموعة من الكراسي الجلدية الأنيقة . الخدم ، بثيابهم ذاتْ اللونين ، أحمر وأبيض ، يدورون بين الطاولات ، يلبّون .

تأخذه الذكرى لثوان ، ثم يعاود :

ـ الضباط الإنجليز يتحلّقون حول ثلاث طاولات ، كانوا منشغلين يلعبون

ويشربون في الوقت نفسه .
ـ ماذا عن أحمد ؟
ـ في البدء اقترب من إحدى طاولاتهم . حيّاهم بلغتهم . ردوا على تحيته بغمغمات متواترة دون أن يرفعوا رؤوسهم . وقف قريباً منهم يُراقب لعبهم .
ـ وأنت ؟
ـ كنت معه . راقبت طريقتهم في اللعب . تيقنت أنهم غير محترفين . بعد لحظات تنبّه أحدهم لوجودنا . سألنا إن كنا نحب نشاركهم لعبهم . شكره أحمد بلطف...
سليمان مقاطعاً :
ـ كأنه خيّب ظنك!
ـ إلى حين .
هادي يستعجلهما :
ـ بعد ذلك ؟
حاكم يستجيب :
ـ قادني أحمد إلى طاولة قريبة خالية . أجلسني قبالته . طلب زجاجة وسكي مع ما يلزمها من مازات ، إضافة إلى ورق لعب .
ـ بدأتما تلاعبان بعضكما ؟
ـ إلى حدّ ما... أحمد لا يجيد اللعب كمحترف .
سليمان يعقّب بوازع المشاكسة :
ـ لكنه يحترف أشياء أخرى!
ـ حد الهوس .
أجاب حاكم بحماس ، وأكمل مضمّناً طعم الحلم :
ـ ... أحمد يعرف يعيش ، كان يحترف الحياة بأبعادها كلها .
هادي يتدخل :
ـ والإنجليز ؟!

ـ بعد انقضاء ساعتين أخذت الخمرة تفعل فعلها لديهم . صاروا يصخبون على طريقتهم . صوت الموسيقى يتعالى . نهض أحدهم عن كرسيّه . بدأ يرقُص . شاركه ثان . الآخرون يتحلّقون حول الراقصين مشاركين بالتصفيق والهتاف . أحمد أشار عليَّ أتظاهر بالانغماس في ملاعبته ، خلال هذا انفصل أحد الضباط عن الحلقة . اقترب من طاولتنا . وقف يتابع لعبنا صامتاً . ما كان مخموراً تماماً . أحمد راقبه من طرف عينه . فجأة رفع وجهه إليه . سأله بلطف إن كان يرغب يشاركنا اللعب .

ـ خطة متقنة!

عبّر سليمان عن إعجابه ، في الوقت الذي أتم فيه حاكم :

ـ الضابط الإنجليزي سُعد لبادرة أحمد . سارع ينضم إلينا ، وعلى الفور طلب أحمد زجاجة وسكي أخرى وكأساً إضافية .

ـ كرم الضيافة!

ـ كان يعرف يتصرف .

ردد حاكم قاصداً أحمد ، وأتم :

ـ ... في غالب الأحيان كنت أعجز ألاحق أفكاره .

تأخذه ذكراه برهة . عيناه تشردان . يواصل من هناك :

ـ في الدورات الأولى للعبنا لم أتجرأ أمارس حرفتي . لعل الحظ كان إلى جانب الضابط . بدأت أوراقنا النقدية تتجمع أمامه . ضباط آخرون بدأوا يلتفون حول مائدتنا . لم يترددوا عن تشجيع مواطنهم .

ـ الوضع مُحرج!

قال سليمان ، فاستعاد حاكم نفسه من ذكراه . مؤكداً على ما قاله سليمان :

ـ وخطير!

هادي لا يتوانى يسأل مُبدياً لهفة :

ـ وبعد ؟!

ـ أحمد آثر ينسحب من اللعب ، فوجئت به يدفع كرسيه إلى الوراء ، تطلعت فيه مصعوقاً ، عيناه تتضمنان عتباً مشوباً بالإدانة ، النقود المتبقية قليلة ، لا مفر إذن... وبدأت...

ـ تمارس الغش ؟

السؤال يصدر عن سليمان . حاكم يجيب :

ـ كما لم أفعل من قبل . خفّة يد لا يمكن تتصورها . الضباط الذين كانوا يشجعون مواطنهم تحولوا لتشجيعي . الضابط اللاعب بدأ يفقد برودة أعصابه . صار يقامر بانفعال .

ـ فكان أن أفلس!

ـ بعد دقائق ، ليتحمس ضابط آخر يصر يلاعبني .

ـ عرفت تثبت جدارتك لأحمد ؟!

ـ وأحوز على رضاه وإعجابه .

ـ اللعبة التي كنتم تلعبونها!

ـ بوكر... حتى الفجر .

ترتسم على فم حاكم ابتسامة شفيفة .

ـ رغم خسارتهم أظهروا روحاً رياضية عالية . تمنّوا علينا يلتقوننا مساء السبت التالي . جيوبي كانت منتفخة بالأوراق النقدية . ونحن بصدد نغادر طلب مني أحمد أمنح خدم الفندق اكرامية عشرة دنانير .

* * *

هي الأيام تدور دورتها . أحمد . سميرة . فندق شط العرب . الضباط الإنجليز .

ـ ثم ماذا ؟!

علاقة حاكم بأمه ساءت لحد أنكرت فيه أمومتها له . أخواه... ما عاد يلتقيهما . التجنيد الإلزامي يترصده ، موعده يقترب أكثر فأكثر . وهذه الحياة العجيبة التي دخلها برفقة أحمد .

أحمد... اسم سحري ، باق يردده بإعجاب وإكبار يرقيان منحى العشق الصوفي . أحمد... نمط من صحبة متفانية وفيّة خالصة . تآلفا كما الجناحين للطائر الواحد . أحبّا الحياة على طريقتهما . أخلصا لقيمهما على طريقتهما .

ـ هي الأيام...

السبت التالي ارتأى أحمد على حاكم :

ـ لن نذهب قبل منتصف الليل .

حاكم يندهش :

ـ لماذا ؟!

أحمد يطمئنه :

ـ لكيلا يشعروا أننا ملهوفون نلاعبهم...

جملته باقية معلقة .

ـ الشيء الآخر ؟!

فيوضّح :

ـ أن يتلهفوا هم لملاعبتنا .

الخيار الوحيد لحاكم :

ـ أنت صاحب القرار .

ليكتشف يومها مدى صواب رأي صاحبه . كانا استقبلا بحفاوة كبيرة من قبل خدم الفندق والضباط الإنجليز أيضاً .

ـ لماذا تأخرتم ؟!

سألهما أحد الإنجليز ، فجاءت إجابة أحمد بغموض مقصود :

ـ موعد طارئ .

ـ نسائي ؟!

تساءل الضابط بلهجة تتضمن طعم المغامرة . أحمد يبتسم ، يجيب بغموضه المقصود ذاته :

ـ تقريباً .

الآخر يضحك .

ـ أمر جميل .

قبل أن يتساءل :

ـ لديكم رغبة تلعبون ؟

ـ لا بأس .

أجابه أحمد بحيادية ، وكأنه يستجيب له بناء على طلبه .

* * *

هادي هو الذي بادر هذه المرة ، عالج علبة السجائر ، قدّم واحدة لحاكم ، وأخرى لنفسه ، سليمان اعتذر يشارك .

ـ وبعد ؟

ـ مساء سبت ثالث ورابع...

صوت حاكم يتواصل :

ـ ... وما عدنا ، أنا وأحمد ، بعدها نضطر نستأذن مالك السيارة نأخذها منه على سبيل الإعارة ، كنّا وفّرنا مبلغاً كافياً لشرائها .

يأخذ لصدره نفساً عميقاً من سيجارته .

ـ ... مادام الإنجليز بخير... اعتاد أحمد يقولها ، يعقبها بواحدة من ضحكاته المجلجلة ، ليندهش لها كل من سميرة وحليمة .

* * *

« مادام الإنجليز... »

كان بإمكان مساءات السبت تتوالى ليّنة رخيّة لولا ذلك الحادث غير المتوقع من مساء السبت الأخير لشهر فبراير ـ شباط ١٩٥٨ .

الشتاء في أيامه الأخيرة . الرياح القادمة من صوب الشط باقية تحمل لسعة البرد . في أول الليل أمطرت السماء زخّات متفرقة من المطر ، أما ساعتها والفجر يوشك...

سيارات جيب عسكرية تصطف غير بعيد عن بوابة الفندق ، وعند البوابة

وقف الخادم المسؤول يلبد في معطفه اتقاء هبّات الريح . مطلوب منه يظل يلازم مكانه لحين مغادرة آخر ضابط إنجليزي .

الصالات المتعددة للفندق أقفرت من روادها ، عدا صالة القمار حيث مازال الضجيج على أشده .

ـ يحلو لهم يواصلون حتى الصباح .

هناك ، حيث القاعة بطاولاتها ذات المفارش الخضراء ، توزع الحضور على مائدتين . الأولى كبيرة ، تحلّق حولها عدد من الضباط إياهم ، يواصلون شربهم وعربدتهم المصاحبة لموسيقاهم ، وأخرى جلس إليها حاكم يواجهه ضابط ظهرت عليه آثار الخمرة بشكل جليّ ، ينشغلان يلعبان الورق ، في الحين الذي وقف فيه أحمد مستنداً إلى عمود قرب إحدى النوافذ المطلة على الفناء الخلفي للفندق وقد بدت على وجهه آثار الملل والإرهاق . ثلاثة من الخدم ، يغالبون نعاسهم ، يقفون قيد الطلب . بعد قليل تحرّك أحمد من موقفه . اقترب من حاكم .

ـ متى تكتفي من اللعب ؟!

لهجته المؤنّبة تحزّ في نفس حاكم . يرفع عينيه إلى محدثه :

ـ إن كان علي أنا اكتفيت من زمان...

أحمد يحدّق فيه فيستطرد :

ـ هو الذي يصرّ يستمر!

ـ هو سكران!

فيوافقه حاكم :

ـ جداً... ولهذا يصر يستمر .

الضابط ، بعدما انزعج من تبادلهما حديثهما باللغة العربية ، يتطلع شزراً إلى حاكم . يواجهه بصيغة جافة مرة :

ـ توقف عن الكلام ، وواصل اللعب!

قال بلغته ، وقبل أن تتوفر لحاكم فرصة الرد التفت الأول إلى أحمد ليردد

غاضباً :

ـ أنت أيضاً... ابتعد من هنا... ولا تتدخل في اللعب!

أحمد يرد عليه بهدوء :

ـ أنا أكلّم صديقي .

ليعود يكمل حديثه مع حاكم :

ـ حاول تنتهي منه!

ـ في الحقيقة أنا انتهيت منه .

أجاب حاكم ، وأضاف موضحاً :

ـ ... نقوده نفدت .

الاستغراب مع أحمد :

ـ ما الذي يمنعك توقف اللعب ؟!

الحيرة مع حاكم :

ـ بعدما خسر نقوده كلها لاعبني على ساعة يده ، ثم خاتمه ، وها هو الآن يريد يلعب على...

أحمد منهياً الموقف :

ـ الرجل سكران . أعد له ساعته وخاتمه ودعنا نذهب!

حاكم يمتثل :

ـ ليكن .

يضع ورق اللعب على الطاولة . يدس يده في جيبه... ساعة يد وخاتم ذهبي . يضعهما أمام الضابط .

ـ هذه لك .

الضابط وقد أدرك الموقف تجحظ عيناه .

ـ ما هذا ؟!

صرخ محتجاً ، فأجابه حاكم بهدوء وهو يدفع كرسيه إلى وراء لينهض :

ـ آسف!... أنا مضطر أذهب الآن!

الضابط يضرب سطح الطاولة بقبضة يده . يصرخ غاضباً :
ـ هذا ليس عدلاً!... يجب تواصل اللعب!
حاكم يظل على هدوئه .
ـ السبت القادم نلعب ثانية .
أجاب منسحباً إلى وراء . الضباط الآخرون يكفون عن ضجيجهم . اهتمامهم ينشد إلى حيث زميلهم .
ـ تعال هنا!
صرخ الضابط بأعلى صوته . حاكم وأحمد لا يعيرانه اهتماماً . يبدآن يأخذان طريقهما باتجاه الباب .
ـ تعال يا ابن الـ....
أفلتها الضابط شتيمة حاقدة ، ويده تمتد إلى زجاجة وسكي شبه فارغة أمامه ، ليطوّحها باتجاه حاكم . الأخير يتنبّه . يحيد عن مرمى الزجاجة ، حيث تصطدم بالجدار ، تتناثر شظايا . عنق الزجاجة يستقر بين قدمي حاكم .
ـ إضبط أعصابك!
همس له أحمد في أذنه محذراً ، وأضاف :
ـ الرجل سكران!
الآخرون يهبون واقفين .
ـ ما هذا ؟!
صرخ أحدهم بحاكم ، وكأنه المسؤول عما يحدث . حاكم يجيبه بهدوء :
ـ صاحبكم سكران... قذفني بالزجاجة!!
غضب الضابط ، الذي قذف الزجاجة ، ينفجر بأعلى . بحركة عنيفة من يده يقلب الطاولة أمامه . ليهب واقفاً . يندفع مترنحاً باتجاه حاكم .
ـ تقول عني سكران... أيها العربي القذر!!

يمسك بتلابيبه . أحمد يتدخل . يحاول يخلّصه من قبضة الضابط لدى غمغمته :

ـ اصبر عليه!

الضابط يبقى متشبثاً بثياب حاكم . محاولات أحمد لا تجدي .

ـ عربي قذر!... تعال هنا!!

غضب حاكم يمور . يضع كفّه مفتوحة في صدر الضابط . .

ـ أنت تعرف من هو القذر!!

قال من بين أسنانه ، ليشحن قوّته في ذراعه . دافعاً جسد الضابط عنه . يد الضابط تنفلت . جسده يندفع إلى وراء . يتعثر . يفقد توازنه . يسقط .

ـ أيها الحقير!!

صرخ أحدهم باتجاه حاكم مهدداً . أحمد يهمس :

ـ نغادر بسرعة!

في اللحظة التي بادر فيها الضابط المخمور ينهض من سقطته ، مفلتاً ما يشبه صرخة حيوانية مدوّية ، ليهجم على حاكم ، وقد استل من طيات ثيابه سكيناً بنصل طويل .

ـ يا إلهي!!

صرخة مذهولة صدرت عن أحدهم . حاكم ينبهت إزاء ما يحدث . ذهنه لم يستوعب الصورة بعد . يقف متجمداً مأخوذاً . بادرة غير متوقعة تصدر عن أحمد . بحركة سريعة خاطفة ، تبدو وكأنها لاإرادية ، يقفز ، ليعترض طريق الضابط .

ـ كفى!!

صاح بأعلى صوته . لكن يد الضابط الشاهرة للسكين تهوي على جسده .

* * *

أنة حادة مفاجئة تصدر عن هادي .

ـ أحمد تلقى الطعنة؟!

ردد بحزن متعمق ، فعقب عليه حاكم :

ـ نصل السكين صادف صدر أحمد ، في الفسحة الكائنة ما بين مفصل كتفه الأيمن وثديه .

سليمان يتساءل :

ـ كيف كان رد فعلك ؟!

حاكم يحدّق في وجه سليمان بعينين حزينتين لا تخلوان من عتب .

ـ قد لا تصدق...

أبقى جملته معلقة برهة قصيرة ، قبل أن يعاود بكلمات متهدجة :

ـ ... سمعت نصل السكين وهو ينغرس في لحم أحمد حتى المقبض . كان صوتاً أشبه بصوت تمزيق خرقة قماش بالية .

* * *

ذهول حاكم مازال يشمله .

ـ ماذا يحدث ؟!

صرخ أحد الضباط بلوعة . جسد أحمد يتداعى . حاكم لا يعرف كيف يتلقفه .

ـ أنا...

غمغم أحمد ولم يتم . وجهه كما وجه طفل مفزوع لا يصدق ما يحدث له .

ـ أحمد!!

لكنه أطبق جفنيه . دماؤه كانت بدأت تنزف غزيرة فوّارة من حول مقبض السكين مُصدرة غرغرة مخنوقة .

ـ أحمد!!

تناهى إلى سمع حاكم صوت أحدهم يقول :

ـ نطلب سيارة إسعاف!

وآخر ينصح :

ـ استدعوا مسؤول الفندق!

صوت ثالث يصرّح :

ـ نغادر فوراً!!

حاكم يبدأ يستجمع شتاته . الموقف يتمثل لديه حقيقة واقعة .

« أحمد يموت!!... كيف ؟! »

حقده يمور في صدره كما الطوفان العاتي .

« ما الذي تبقى ؟! »

عنق الزجاجة التي تهشمت تحت قدميه قبل قليل بمتناول يده . الفكرة ـ خاطفة ـ تنبجس في الذهن .

« يجب!! »

ينحني . يطبق بأصابعه على عنق الزجاجة . يطلق صرخته :

ـ تدفع الثمن!!

ليقفز باتجاه الضابط الذي كان باقياً مأخوذاً جرّاء ما بدر عنه .

ـ أقتلك!!

لكنه لم يصل إلى حيث يقف غريمه . ضابطان آخران أسرعا أطبقا عليه من كتفيه . أيادٍ أربعة تكبّل ذراعيه .

ـ يا كلاب!!

الآخرون يتداعون صوبه . حاولوا انتزاع عنق الزجاجة من كفّه . عاد يصرخ بأعلى صوته :

ـ أقتله!!

انتفض . أفلت كفّه الماسكة عنق الزجاجة من قبضة يد أحدهم . حد الزجاجة المهشم يلامس ذراع أحدهم . الدم .

ـ ابن الـ...

بعدها أخذت الكلمات ، متتالية عنيفة ، تنهال على وجه حاكم . صدره .

بطنه .

ـ كلاب!!

لو أنهم يتركون له يديه . الألم ينبعث عاتياً من أنفه . الدم . لو أنهم...

وجوههم حمراء منطعنة بالدم ، بالحقد ، تتزاحم أمام عينيه . فمه يمضغ دمه . إحساسه بقواه يبدأ يتلاشى ، وقبل أن يفقد وعيه ندّت عن يده القابضة عنق الزجاجة انتفاضة خاطفة . شعر بقبضته تتحرر . رفع يده . وجه أحمر في المتناول... وفي جزء من الثانية عرفت يده تشطح وجه أحدهم طولياً .

ـ آي!!

صرخة مدوّية . وجه الضابط ينفتح من أعلى حاجبه ، مروراً بجانب وجهه ، زاوية فمه ، حتى أسفل ذقنه .

ـ قيّدوه!!

وقبل أن تتلاشى المرئيات في عينيه رأى أحشاء لحم وجه الضابط تنفلش بيضاء شحماً ، يعقبها انبجاس الدم .

* * *

هادي تمتم بارتياح دال :

ـ عرفت تثأر لموت أحمد!

صمت حاكم للحظات ، ثم أجاب بحزن تصاحبه حركة حائرة من رأسه :

ـ أحمد لم يمت .

المبادرة تأتي من سليمان :

ـ إذن ؟

حاكم يجيب :

ـ نقلوه إلى المستشفى . بقي فيها شهرين .

سليمان يهتم يستوضح :

ـ ماذا عنك أنت ؟

ترتسم على فم حاكم ابتسامة واهنة . يقول :

ـ إصاباتي كانت سطحية . مجرد لكمات وركلات ، وكسر سخيف لغضروف الأنف .

هادي بفضول جلي :

ـ هذا كل ما حدث ؟!

حاكم يستجيب :

ـ كنت قد فقدت وعيي جراء الضرب ، لأستعيده في معتقل مخفر شرطة معقل ، حيث فوجئت بوجود ثلاثة من خدم الفندق معي .

ـ خدم الفندق ؟!

ـ يبدو أنهم تدخلوا لصالحي .

سليمان يستعجله :

ـ بعد ذلك ؟

ـ خضعت لإجراءات تحقيق ومحاكمة .

سليمان يهم يسأل ، فيسكته حاكم بإشارة من يده ، ويكمل بأسلوب من يهدف يختصر ، ليقطع الطريق على مسائليه :

ـ الضابط الذي جرحته في وجهه أرسلوه إلى لندن لمعالجته ، والآخر الذي طعن أحمد قيل إنه أرسل إلى لندن أيضاً بهدف محاكمته .

يلتقط أنفاسه ، يستطرد بصوت غائر في الحزن :

ـ المهم... أن أحمد بعد ما بقي في المستشفى شهرين غادرها بذراع يمين مشلولة . تقرير الطبيب أفاد... الأوتار الرئيسية المتحكمة بحركة الكتف...

يكفّ عن الاسترسال ، ليتحول إلى سليمان بسؤال مفاجئ :

ـ ما الذي تعنيه لك الصداقة ؟!

١١

«ـ ما الذي تعنيه لك الصداقة ؟!»

سؤال اطلقه حاكم بمواجهة سليمان دون هادي ، وتوقف عنده . فهل يجدي سليمان يختصر عليه اجابته بكلمة واحدة :

«ـ الكثير» . .

منذ سنوات شبابه الأولى ، أيام الدراسة الثانوية تشكّلت صداقاته . . مصطفى ، جميل ، برّاك ، الآخرون .

ـ تماثل في السن ، في الاهتمامات ، الطموحات ، القراءات ، وتلك المشاريع اليومية الصغيرة ، التي تنبثق في ذهن الواحد فجأة ، فيتحمس لها الباقون .

حاكم يعقّب بروح مشاكسة :

ـ ليس مثلنا ، سرقة بساتين ، وبيوت خلت من سكانها!

ـ لكل شيخ طريقته .

قال سليمان مفلتاً ضحكة قصيرة متفهمة ، وأضاف :

ـ . . المنحى العام لشلّتنا كان بقيم مثالية . أمانة . إخلاص . صدق . وفاء .

ـ كل الذي ورد في الكتب السماوية .

هادي يوجّه لحاكم نظرة عاتبة ، كأنه يأخذ عليه مقاطعته المستمرة .

سليمان يؤمن على ما قاله حاكم بهزّة من رأسه ، ثم يسترسل :

ـ عقد الاربعينيات بما ترتّب عليه من تحولات ، حرب فلسطين . الدول العربية مجتمعة صفقة الاسلحة الفاسدة . قيام الدولة اليهودية . .

* * *

« ـ لكل شيخ . . »

الطموح . الامل . الحلم . الاحباط . يقينية ماذا ؟! . . الافق والتطلع الى مجهول . . شلّة الاصدقاء ، والبحث عن هوية جمعية .

مجلّة الهلال . روايات جرجي زيدان . كتابات سلامة موسى . رومانسيات المنفلوطي ، طه حسين ، ريثما قامت ثورة يوليو ١٩٥٢ .

« هنا القاهرة . . عهد الباشوات ما عاد . . »

بدء تشكل ملامح الهوية القومية ، وما كان لارتباط سليمان بالبيك بصفته ولي نعمته ليترك أثراً سلبياً على صداقاته .

« ـ المأخوذ حياءً كالمأخوذ غصباً »

قالها برّاك ذات مرّة مبرراً تسليم سليمان بالامر الواقع ازاء قضية سفره الى الكويت ، لتولي مهام انشاء شركة . .

« ـ هو نوع من ارتباط وراثي قسري . أبوه مع الباشا وهو مع البيك »

رددها مصطفى باسلوبه المرح مُستقطباً ضحك الجميع . كانوا يعرفون نوازعه الحقيقية بصرف النظر عن واقعه القائم .

« ـ مشكلتك انك مخلص اكثر من اللازم! »

كانوا قادرين يقرأونه من داخله .

« ـ انت بالنسبة الينا اشبه بالضمير . . »

كانوا اصدقاء .

* * *

« ـ ما الذي تعنيه لك . . »

مُذ تشكّل وعيه بدرجاته الاولى وجد نفسه بارتباطات قائمة سابقة عليه

لا دخل له باختيارها في أن تكون موجودة أو غير . .

اسمه . ابـوه . امه . اخوته . قريتـه . مدرستـه . القـصـر . الدروازة . مسميات ، علاقات ، موجودات ، قائمة أساساً ، ومطلوب منه ـ بدرجة وعيه المتشكل أيامها ـ ان يتعامل معها ، بما يضمن اتساقه في مسارها العام دون ان يكون شاذاً أو مرفوضاً .

مع سنوات المراهقة وبدء نضوج الوعي يفهم سليمان ان اشكال الارتباط القائمة تتضمن انماطاً من الحقوق والواجبات ، وان الذين يأمرونه أو يوجهونه ، ان لم يقسروه أحياناً ، يفعلون ذلك بدافع الحرص والمحبة ، وتصورهم الخاص لمستقبله .

ليس بصدد تحميلهم تبعات تشكّل حياته ، والهيمنة الكليّة التي ترتّبت على ارتباطه بالبيك ، مادام المصير قد تقرر ، متخذاً مجراه ، بدءاً من فكرة استكمال الدراسة في بغداد ، وانتهاءً بالسرداب هنا .

ما يمكن قوله ان الهاجس المحرك لسلوك سليمان ـ عبر انماط ارتباطه تلك ـ هو احساسه بالمسؤولية ، ووازع اداء الواجب كاملاً ، متجاوزاً باستمرار رغبته الحقيقية في معارضة ما يراد له .

لعل السر يكمن في كونه ورث هذه الارتباطات دون ان تكون له فرصة اختيارها ، او بسبب من يقينه انها مسؤولة عن وجوده أصلاً ، وان واجبه تجاهها يقتضيه . .

ـ السؤال قائم!

فيصمت سليمان مفكراً لثوان .

ـ الصداقة شكل من ارتباط اختياري قائم على حوافز ذاتية سرعان ما تجد صداها واتساقها لدى الآخر .

ـ فقط ؟!

ـ الصداقة كلمة مأخوذة عن الصدق. .

ليواجه بسؤال من حاكم :

ـ في كل شيء ؟!
ـ الصدق المطلق غير وارد .
صداقات سليمان ـ وقد حرص يرعاها ـ ما بين اثنين ـ نوعاً من الصدق المشترك . صدق طوعي ، قائم على رغبة للبوح ، او ناتج عن احتياج لمشاركة وجدانية .
ـ في بعض حالاتك . .
قال سليمان ، واكمل :
ـ . . تستطيع وانت تتحدث الى صديقك ان تسمع صدى صوتك .
هادي يبدي تململه ازاء الجدل الدائر ، وسليمان يهدف يختم :
ـ ميّزة الصداقة انها غير ملزمة .
فينبري له حاكم :
ـ أو ملزمة جداً .
سليمان يتمعن في كلمات حاكم .
ـ من منطلق علاقتك بصديقك احمد .
قال بتفهم ، واستطرد :
ـ . . فيما يخصني صداقاتي بقيت ضمن اطارها العام ، عدا علاقة واحدة ، اريد لها تكون صداقة بديلاً ، فاتخذت مساراً مغايراً . . نجوى .

* * *

الليل . حركة الشارع بدأت تخف ريثما اوشكت تتلاشى . الهدوء والسكون يتغلغلان في جوانب السرداب . الثلاثة يوشكون يفرغون من تناول طعامهم . رائحة شواء الكباب باقية عالقة في الجو . كان حاكم بايعاز من سليمان أقنع الشرطي الذي اعتاد يتولى تموينهم بالسجائر يشتري لهم وجبة كباب من مطعم شعبي مجاور .
ـ نسمع عن نجوى!
قال حاكم بصيغة طلب ، فاكتسى وجه سليمان بمسحة من حزن شفاف .

ـ الحديث عن نجوى يعني الحديث عني!
ليجيء تعقيب حاكم :
ـ لكن .

* * *

قلق التقصير وخوف الوقوع في الخطأ جعلاه ـ وهو يُنشيء شركة البيك في الكويت ليتولى امور ادارتها ـ يعتمد على نفسه في كل صغيرة وكبيرة ، لدرجة ان استمرار العمل بالشكل الذي يرضيه صار مرهوناً بتواجده فيه .

وبما ان دينه تجاه البيك ـ على حد تعبيره ـ صار سداداً ، مما يترتب عليه فكَ ارتباطه به ، صار ملزماً أدبياً يجد شخصاً مؤهلاً يتولى اشغال وظيفته ، بما تقتضيه الحال من خبرة ودراية وكفاءة عمل .

ـ توظيف شخص ما شيء ، وثقتك بقدرته على انجاز العمل شيء آخر .

هادي يتثاءب . حاكم يستمع صامتاً ، سليمان يتنبه الى افاضته تفصيلاته . يهدف يختصر :

ـ . . المهندسون المساعدون ميدانيون بالدرجة الاولى . . كان علي ان اجد الشخص المناسب من خارج الشركة .

ـ . . .

ـ قابلت عديدين . كان صعباً اقتنع بكفاءة هذا أو ذاك . ادارة العمل ذات طبيعة معقّدة متشعبة ، ريثما صادفت نجوى .

حاكم وقد تنفس الصعداء :

ـ اخيراً!

هادي يهتم يستمع .

ـ كانت تقدمت بطلب عمل سكرتيرة .

ـ كويتية ؟

السؤال صدر عن حاكم ، فاجابه سليمان :

ـ لبنانية .

ـ متزوجة ؟! . . أم غير . . ؟
ـ أرملة .
يبقى سؤال :
ـ جميلة ؟
سليمان يجمع ذاكرته ، رغب يكون دقيقاً في اجابته .
ـ في البدء لم اتنبه ان كانت جميلة . . أم لا . . كنت منشغلاً كيف اتخلص منها دون ان أسبب احراجها .
سؤال حاكم يؤكد استغرابه :
ـ تتخلص منها ؟!
ليجيبه سليمان :
ـ كنت احتاج كفاءة ادارية وليس سكرتيرة ، عدا ذلك كان عندي جهاز سكرتاريا متكامل .
ـ كنت خطيراً ؟!
ـ كنت مديراً .

* * *

حال دخولها مكتب سليمان . .
ـ صباح الخير .
وقبل استجابته للرد واصلت :
ـ سمعت ان شركتكم تطلب موظفين .
وقبل استجابته للرد وضعت أمامه مظروفاً انيقاً .
ـ ما هذا ؟
سؤاله يشير الى المظروف ، واجابتها :
ـ طلب توظيف وشهادات خبرة .
سليمان وكأنه أخذ غرّة ينشغل بالمظروف . يبدأ يدقق أوراقه ، في الوقت الذي يصله صوتها بطلب حيي :

ـ ممكن أجلس!

التعامل الاجتماعي مع المرأة له اصوله . المنحى العملي الجاد لسلوك سليمان . .

ـ آسف!

ردد معتذراً ، واشار الى كرسي قريب . نجوى تجلس عيناها تتابعان تصفحه اوراقها . ورقتها الاولى طلب عمل سكرتيرة تنفيذية . رد فعله الاوّلي .

ـ في الحقيقة . . نحن لا نحتاج سكرتيرة .

أراد لصوته يكون غير باعث للاحباط ، ليصله ردّ فعلها مستوضحاً :

ـ ما الوظيفة التي تحتاجونها ؟

سؤالها يستفزّه .

ـ نعم ؟!

تبدو تتطفل عليه شؤون إدارته عمله .

ـ عفواً!

قالت بهاجس الاحباط وليس الأسف ، لتبادر تنهض وهي تتم :

ـ . . لم اقصد سوى . .

التعامل العفوي مع المرأة له اصوله . سليمان يفاجأ . هو الذي لم يقصد سوى . . ونجوى تواصل بكبرياء الانثى التي مسّت كرامتها :

ـ . . لدي خبرة كافية في مجال تخصص شركتكم .

سليمان لم يستوعب بالشكل الكافي . شعور وليد بالذنب . لم يسبق له يواجه بموقف مثل هذا . المرأة الماثلة بانطباع خاص . وحتى يجد منفذاً من حرجه قال :

ـ سأطّلع على الاوراق .

* * *

ـ ما كان ينقصها الذكاء . انسحبت على الفور . كذلك ما كانت تنقصها الثقة . قبل مغادرتها خبّرت انها ستجيء في الغد ، كي تعرف الرد .

حاكم يستعجل على طريقته :

ـ جاءت في الغد ؟

سليمان يواصل على طريقته :

ـ عصر ذلك اليوم توفرت لي فرصة اطّلع على اوراقها بتمعن كاف .

هادي يعلن عن احتجاجه علي طريقته . يتثاءب .

ـ نادراً ما تتوفر لك فرصة ادراك جانب هام من طبيعة شخصية ما منذ لقائك الاول بها .

قال سليمان ، ثم اضاف :

ـ . . وانا أتصفّح أوراقها شعرت كما لو أنها متواجدة معي . انطباعاتها . ردود أفعالها . طريقتها في نطق كلماتها . تأدّبها . صداميتها . لحظتها فقط ادركت كم هي جميلة .

نفاد الصبر في السؤال المعاد لحاكم :

ـ جاءت في الغد ؟

سليمان يواصل ما كان بصدده :

ـ . . كنت لدى اطلاعي على شهادات خبرتها وجدت عندها جانباً من متطلبات شغل الوظيفة ، إنما هناك امور اخرى خاصة باسلوب قيادة العمل ، وشيء آخر اكثر اهمية . . استمزاج رأي البيك ان كان يرضى لامرأة مجهولة لديه تتولى تسيير امور شركته .

هادي هو الذي يبدي نفاد صبره هذه المرة :

ـ جاءت في الغد ؟!

* * *

عندما جاءت نجوى في اليوم التالي كان سليمان مستعداً يباسطها الحديث بمحاولة معرفة ما هو اكثر .

ـ أهلاً وسهلاً!

بادر يرحب بها . دعاها تجلس . نجوى تتردد تجلس على الفور . تبدو

وكأنها تدقق منحى اسلوبه في مجاملتها .

ـ هل وجدتم وظيفة تناسبني ؟

سؤالها يواجهه ، اراد يجد مدخلاً لموضوعه .

ـ فيما يخص السكرتاريا . . كما قلت لك امس . . نحن مكتفون .

تتطلع اليه . تنتظر منه يستطرد ، فيفعل :

ـ . . انما هناك احتمال لشغل وظيفة اخرى .

انطباع بالقلق يرتسم على وجهها . كلمة « احتمال » تعني اشتراطاً معيناً مجهولاً لديها ، وصوت سليمان يتواصل موضحاً :

ـ . . الوظيفة الاخرى هامّة وحساسة .

قلقها يكبر في وجهها .

ـ حساسة ؟!

سليمان يكمل :

ـ تحتاج قدرات وامكانيات خاصة .

يبدو عليها انها أدركت ما يقصده سليمان . تتساءل بانزعاج جهدت تخفيه :

ـ ما الذي تريدونه بالضبط ؟!

ما كان سليمان تنبه بعد لانزعاجها ، يجيب :

ـ لا استطيع أحدد كل شيء في الحال ، انّما . .

لا تمهله يتم جملته . تسارع تنهض . تقول بحسم ينمّ عن كبرياء جريحة :

ـ ارجو الا اكون اخذت الكثير من وقتك!

وقبل ان يفيق سليمان من دهشته كانت غادرت تاركة باب المكتب مفتوحاً .

« ما الخطأ ؟! »

* * *

ـ ما كان لي وقتها افهم سبب رد فعلها المفاجىء .

قال سليمان ، واردف :

ـ . . . كنت في حالة استغراب شديد .

هادي يكتفي يستمع ، وحاكم يبدي مشاركة :

ـ لك الحق مادمت جاهلاً أمور النساء . ومن جانبها لها الحق ما دامت فهمت من ملابسات كلامك ان قبولها موظفة لديك مرهون بمدى استجابتها لك .

سليمان يفلت ضحكة قصيرة باهتة .

ـ وانا آخر من يعلم!

يصمت برهة .

ـ اليوم ، كما اذكره ، كان اربعاء ، وحين هاتفني البيك يوم الخميس التالي ، سألته ان كان يعارض فكرة تعيين امرأة ، فأجابني بالحرف : أنت الذي تقرر .

ـ ثقة مطلقة!

سليمان يتجاوز تعقيب حاكم ، يستطرد مخبّراً :

ـ كان الطموح ان تجيء نجوى بعد يومين ، ثلاثة ، عشرة .

ـ ولا خبر .

ـ كان مفروضاً تجيء تسترد أوراقها على الاقل .

ـ ولا خبر .

يفلت سليمان زفرة قصيرة .

ـ ما كنت ادركت بعد سبب انزعاجها . . الحيرة ، وهاجس معرفة الحقيقة ، عدت الى اوراقها لعلي اجد عنواناً أو رقم تلفون . .

ـ ولا خبر .

هادي يتنبه الى لازمة حاكم وقد كررها مرات ثلاث . ترتسم على فمه ابتسامة أبوية راضية . سليمان يضيف :

- بعد شهر تقريباً دخلت مكتبي احدى موظفات قسم السكرتاريا . قالت انها جاءت تسترد اوراق واحدة تدعى نجوى سبق وتقدمت . .

- سلمتها الاوراق ؟

- لا .

رد سليمان ، وواصل :

- كنت اشبه بمن يخوض تحدياً مفروضاً عليه ، ارتأيت على الموظفة ان تجيء نجوى تسترد اوراقها بنفسها .

هادي ، على غير توقع ، يسأل باهتمام :

- جاءت ؟

* * *

على غير توقع من سليمان دخلت نجوى مكتبه صبيحة اليوم التالي .

- صباح الخير .

صوتها حيادي بارد ، وقبل أن تتوفر لسليمان فرصة يرد لها تحيتها . خبّرت :

- . . جئت استرد اوراقي .

السؤال العفوي على طرف اللسان :

- لماذا ؟!

الرد الحيادي البارد :

- وجدت وظيفة في شركة اخرى .

السؤال العفوي المندهش مازال على طرف اللسان :

- لماذا شركة اخرى ؟!

* * *

- سذاجة مني أم غباء ؟! . . لا ادري!

ردد سليمان ، فجاءته اجابة حاكم متضمنة روح المشاكسة :

- كلاهما .

هادي يوجّه لحاكم نظرة عاتبة ، سليمان يكمل :

ـ سؤالي ، على ما يبدو ، كان سابقاً لأوانه . . اوانه غير مناسب اطلاقاً .

حاكم يشارك :

ـ المهم!

ـ كانت تطلعت الي بنظرة ذات دلالة لم اصادف مثلها طوال حياتي .

حاكم يتدخل :

ـ كانت تستهين بك ؟!

ـ بالضبط .

* * *

ـ ما الذي تريده بالضبط ؟!

واجهته نجوى بسؤال حاد يوحي بالادانة . الموقف جديد عليه . التعامل مع المرأة له خصوصيته .

« لماذا روحها العدائية ؟! »

وحتى يُصْدقها نيته أجاب :

ـ كان في بالنا تلتحقين بالعمل معنا .

ضيّقت من فتحتي جفنيها . احسها تحدثه من فوق :

ـ ليس بالشروط التي في بالكم!

« لماذا روحها العدائية ؟! »

احساسه بالمهانة يبدأ ينتشر في صدره . على الرغم . . يوضح :

ـ الشروط ليست في بالنا ، انما هي شروط خاصة بكفاءة شاغل الوظيفة . .

تحدق فيه بالنظرة ذاتها . احساسه بمهانته يكبر . وعلى الرغم . . يوضح اكثر :

ـ . . بما يناسب اهمية الوظيفة المعنية .

صوتها لم يتخفف من تعاليه :

ـ ما هي طبيعة الوظيفة المعنية ؟!

« لا فائدة!! »

ردد مع نفسه بصيغة الحسم . هو في غنى عن تعريض نفسه لموقف كهذا . ليذهب البيك وشركته الى . . يؤسفه تنتهي الامور بصورتها هذه . يؤسفه يظلم من جانب انسان آخر لم يسبق له يعرفه . يؤسفه يمتحن في كرامته . يؤسفه . .

« ليس في البال . . »

يمد يده الى درج مكتبه . المظروف الحاوي لأوراقها . .

ـ أنا آسف!!

صوته ينم عن مشاعر خليط من الحزن والخذلان والتخلي ، ومن غير ان يتطلع اليها في وجهها يمد يده بمظروفها .

ـ اوراقك .

* * *

سؤال هادي ينم عن تلهفه يعرف :

ـ اخذتها ؟

ـ ترددت قليلاً . .

اجاب سليمان ، ليواصل بطعم الذكرى :

ـ . . خيّل الي لحظتها انها شعرت بالحيرة .

انقلاب في الموقف!

قال حاكم بصيغة اكتشاف ، فأكد عليه سليمان :

ـ أو في فهم الموقف .

سكت مستذكراً لثوان .

ـ بدأت تدرك خطأها فهمها لدوافعي تجاهها .

هادي يعيد سؤاله :

ـ اخذت اوراقها ؟

ـ اخذتها ، لكنها لم تسارع تنصرف كما يتبادر الى الذهن .

ـ جميل!

ردد حاكم بلهجة دالة . سليمان يتجاوز ما قاله محدثه :

ـ لعلها ادركت ما اعانيه لحظتها . . او انه الشعور بالذنب . .

* * *

ـ ارجو ان لا يُساء فهمي!

قالت نجوى لدى تسلمها مظروفها . صوتها كان تخفف من هاجسه العدواني . سليمان يفاجأ . يتطلع اليها مذهولاً .

ـ من الذي يُساء فهمه ؟!

ينطعن وجهها بالدم .

ـ لا ادري!

ندت عنها غمغمة خافتة ، اعقبتها بقولها :

ـ ممكن أجلس!

وقبل ان تتوفر لسليمان فرصة يأذن كانت جلست لتقول بصوت محبط وبصيغة من يسارر نفسه :

ـ صاحب الحاجة ذليل!

سليمان لا يجد ما يقوله .

ـ لعلي اسأت الفهم!

صوتها يترجم كبرياءها ورغبتها تعتذر في الوقت ذاته .

* * *

ـ في تلك اللحظة احسستني قريباً منها .

عيناه تبعُدان .

ـ شعرت كأني أعرفها من زمن .

حاكم يعقب :

ـ أبدت لك عن ضعف الانثى .

هادي يؤمن على كلام حاكم بحركة موافقة من رأسه .

ـ عدا هذا . .

قال سليمان ، واتم :

ـ . . احسست كأني مسؤول عنها بهذا الشكل أو ذاك . تآسيت لكبريائها غير المبررة ، ووجدت لها عذرها في جمالها . امرأة مثلها لا بد وانها عانت . . صاحب الحاجة ذليل . . ومن جانبي آثرت اسمعها أكثر .

حاكم يتدخل متسائلاً بفضول :

ـ ماذا عن توظفها في شركة اخرى ؟!

الايجاز في رد سليمان :

ـ قصة مُختلقة .

* * *

اثر استقرارها في كرسيها ، ومحاولتها الالمام بملابسات الموقف توجهت نجوى لسليمان بسؤال جهدت تجعله محايداً :

ـ ما هي الوظيفة التي ارتأيتموها لي ؟

لكيلا تفاجأ اجابها سليمان :

ـ ستعرفينها .

فكان ان حدث العكس . نجوى تفاجأت . وجهها يجسد رد فعلها بالاستغراب الرافض . يبدو عليها انها تهم تهب واقفة ، لولا استطراد سليمان :

ـ من جانبي استطعت اذلل أهم عقبة أمام توظيفك . . اخذت موافقة مبدئية من مالك الشركة ..

استغرابها الرافض ما يزال يطبع وجهها .

ـ امور التوظيف لديكم تتسم بأهمية خاصّة!

الفرصة تسنح لسليمان كي يوضح :

ـ الاهمية ليست في التوظيف ، وانما في الوظيفة المطلوبة .

تصدر عنها غمغمة احتجاج خافتة :

ـ امتحان من نوع خاص!

سليمان لا يجد بدأ من التصريح :

ـ الوظيفة المطلوبة . .

قال ، واتم مشيراً الى مكتبه الجالس عليه :

ـ . . . هي هذه .

عيناها تصرّحان عن عدم قدرتها التصديق .

ـ انا ؟!

تمتمت مذهولة ، فأومأ لها برأسه موافقاً ، ليجيء تساؤلها مصحوباً بابتسامة حائرة :

ـ كيف ؟!

* * *

ـ اجمل مافي الانسان ان يكون على طبيعته .

قال سليمان ، فعقد حاكم حاجبيه مفكراً برهة ، ثم عقب بصوت حيادي :

ـ من دون تعليق .

سليمان يبتسم ازاء ما بدر عن حاكم ، ويكمل :

ـ من لحظتنا تلك ادركت ان نجوى بدأت تتصرف بطبيعتها وعفويتها غير المصطنعة ، والتي عرفتها بها طوال اشهر عملنا معاً .

ـ أكمل!

ردد هادي كما صيغة الامر ، ومظاهر النعاس تثقل اجفانه ، سليمان يتبادل مع حاكم نظرة اليفة ، قبل ان يواصل مستذكراً عبر شفافية تقرب تقترن بالحلم :

ـ كانت ضمن حالة المابين . تصدّقني أم تكذّبني . لماذا وظيفتي بالذات . وحتى لا افاجأ برد فعل غير متوقع بصدر عنها اطلعتها على الاسباب

الموجبة . المهمة صعبة ، لكنها ليست مستحيلة . الشعور بالتحدي بدأ يتولّد لديها . قالت عن نفسها ان كان عليها فهي مستعدة تُجرّب . قلت لها ان كان علي سأكون معها قدر المستطاع .

هادي أسلم زمامه لنعاسه . حاكم بنفاد صبر :

ـ بعدها ؟

ـ خضنا بتفصيلات خاصة بكيفية ادارة العمل . بدونا وكأننا نعرف بعضنا من زمان . كانت تطمح تعرف كل شيء باسرع وقت ، وللحظات عابرة تملكني احساس اني امام طفل مندهش بلعبة جديدة يجهد يتعرف على اسرارها .

ـ ماذاعنك ؟

ـ الموقف بكليته جديد علي . نجوى كانسانة نمط جديد علي . تحوّلها من . . الى . . اسعدني واقلقني في الوقت نفسه .

ـ لماذا ؟!

ـ السؤال الذي شغلني وقتها . . هل اطمئن لحماسها واستعدادها خوض التجربة ؟! . . أم أن الغد سيتمخض عن موقف مغاير ؟!

ـ المهم!

ـ ليلتها وانا استلقي على فراشي بدأت استعيد تفاصيل اللقاء لحظة لحظة ، وللمرة الاولى خلال وجودي في الكويت احسست تلهفاً لمجيء الغد التالي .

* * *

الليل يواصل رتمه البطيء . هادي يغط في نوم عميق ، شخير متقطع يصحبه أنين « المعاناة ليست صحواً حسب! »

حاكم ، وقد اكتفى سماعاً ، نام أيضاً . يبقى سليمان والنوم المستعصي .

«لماذا الذكرى والحزن الذي لاحدّ . . »

السرداب والاشهر التي انطوت ، سليمان ـ بالنسبة لمن يعرفونه ـ في الغيب . اختفى . خطف . قتل . مات . كل هذه الاستنتاجات واردة . اهله كانوا بانتظاره . الفكرة الواردة في الذهن :

ـ لم يصل!

اصدقاؤه على موعد الليلة التالية .

ـ لم يعد!

البادرة المتوقعة . الطرفان يتبادلان اتصالاً ما .

ـ لا خبر!

البادرة المتوقعة بعدها . .

ـ نبحث عنه!

مستشفيات ، مخافر شرطة .

ـ لا خبر!

القلق . الشك . الحزن . الغضب . القلق . الشك . اليأس .

ـ كيف ؟!

البيك يتوقع عودته خلال اسبوعين . نجوى تنتظر عودته خلال اسبوعين . الاشهر تتوالى ، لا سليمان ، ولا بصيص أمل عنه .

لو ـ وهذا احتمال وارد او غير وارد ـ خرج سليمان من سردابه الى زمنه ، فهل سيجد الحياة على انتظامها الذي تركه ؟!

١٢

كانت الساعة قاربت الثالثة ظهراً . وجبة الغداء لم تصل بعد .

ـ ما الذي حدث ؟

السؤال صدر عن هادي ، فأجابه حاكم :

ـ أمر اعتيادي .

ليجيء تساؤل سليمان متشككاً :

ـ تعتقد ؟!

حاكم يلوذ بالصمت . الجزم في مثل هذه الحالة غير وارد . هادي يعقب :

ـ التأخير الاعتيادي بحدود نصف ساعة ، وان زاد ، فهو ساعة في اقصى الاحوال ، اما وقد رُفع آذان العصر . .

ولا يكمل . صوت المفتاح يُسمع يدور في اقفال الباب الحديدي للسرداب .

ـ اخيراً!

ردد حاكم ، وبادر يتجه ناحية السلم . يرتقيه . يبقى هناك فترة أطول من المعتاد .

ـ شيء ما يحدث!!

قال سليمان باقتناع يتضمن هاجس القلق من مجهول . هادي يبادله

نظرات متوجسة .

* * *

حين عاد حاكم حاملاً وجبة طعامهم كان بأسارير منفرجة .

ـ آخر الاخبار!

قال كمن يهتف ، واضاف :

ـ محاولة انقلاب جديدة!

توقّع مندهش يأخذ بوجهي سليمان وهادي . يخف حماس حاكم من صوته . يكمل :

ـ المحاولة لم تنجح . الوضع تحت السيطرة .

يضع الطعام على الارض .

ـ الزعيم يخطب من الاذاعة والتلفزيون .

هادي وسليمان يتطلعان اليه بانتظار مزيد من التوضيح . يقول :

ـ هذا كل شيء .

مازالا يتطلعان اليه . يفلت نصف ضحكة . يضيف :

ـ . . . بالاحرى هذا كل الذي يعرفه الشرطي .

* * *

وهم يقبلون على الطعام قال حاكم :

ـ المحاولات الانقلابية لن تتوقف .

ينقل عينيه بين الاثنين ، ويتم بما يشبه التمني :

ـ . . .لو نجحت احدى هذه المحاولات . .

يترك جملته معلقة . سليمان يبادر :

ـ لعل نجاح احدى المحاولات يؤدي الى انشغال المسؤولين عن الحكم بامورهم المستجدة ، ونسياننا في سردابنا هذا لسنة اخرى او اكثر .

هادي يردد كأنه يحدث نفسه :

ـ النسيان خير من الاعدام .

حاكم يعقد حاجبيه مفكراً بما قاله سليمان . ليعقب :

ـ احتمال النسيان ضئيل . الاحتمال الوارد هو التسريع في البت بأمورنا ، وفي هذه الحالة تكون فرصنا افضل .

هادي متلهفاً :

ـ كيف ؟!

حاكم ينبري يجيب :

ـ انت في حالة اعادة التحقيق معك لن تجد من يشهد ضدك من محققي أمن ثورة وضباط .

السؤال ينفلت سريعاً من فم هادي :

ـ لماذا ؟!

فتأتيه اجابة حاكم بمنطق حاكم ذاته :

ـ كل الذين تولوا اعتقالك والتحقيق معك سيتبعثرون ، لانهم سيصيرون رجال عهد مبادٍ ثانٍ .

سليمان يبتسم ازاء فهم حاكم ، في الحين الذي انطبع وجه هادي بحيرة عاجزة .

ـ الامر ليس هكذا!

غمغم هادي بمرارة . فواجهه حاكم بعتب :

ـ نحن نتكلم عن احتمال حدوث انقلاب! . . وعن احتمال نجاحه! . . وعن . .

هادي يقاطعه بصوت حزين :

ـ انا . . في كل الاحتمالات سأجد من يسألني . . لماذا تهريب الايرانيين الاربعين ؟!

حاكم يهدف يجد مخرجاً :

ـ بامكانك ـ مع تبدل الاحوال يومها ـ ان تنكر قيامك بالعملية اساساً!

المرارة والاحباط في تساؤل هادي :

ـ كيف ؟!

* * *

الحالة المعاشية المتردية لهادي ، والعرض المغري للمهرب الايراني شاهبردي .

« ـ اربعون ديناراً لكل رأس »

الرؤوس المعنية اربعون . المبلغ الناتج يكفيه يشتري قطعتي ارض بمساحتين معقولتين . احداهما في السيبة .تكفل عائلته هناك ، والأخرى المحمرة لعائلته هنا . في مثل هذه الحالة يبرىء ذمته تجاه عائلتيه . شيء آخر يحفزّه يوافق عرض شاهبردي . . اشهر الفراق و طوقه الحارق لمن في السيبة . هو في حالاته كلها مضطر يعبر ، ومادام سيغامر يفعل . .

« فلتكن مغامرة مجزية! »

يبقى استيضاح هام مطلوب من شاهبردي يجيب عليه .

ـ لو عرفت اعبر بهم الى الجانب العراقي ، فمن يكابدهم هناك ؟!

تساءل هادي فطمأنه شاهبردي :

ـ شريكنا في البصرة يتولى مسؤولية ايصالهم الكويت .

ـ حدود مسؤوليتي ؟!

شاهبردي يربّت له على كتفه .

ـ انا اسلّمك هنا وانت تسلّم هناك .

ما يرد في الذهن . .

ـ واذا حدث . . لا سمح الله ؟!

شاهبردي يبتسم بتحدٍ . يجيب على السؤال بسؤال :

ـ ما حكمة المبلغ الكبير للرأس الواحد . . إذ ن ؟!

يوسع من ابتسامته .

ـ ندفع لك مقدماً هنا . . لقاء وعد شرف بالتنفيذ .

ما يرد في الذهن . .

ـ الدفع . . متى ؟!

شاهبردي يسارع يرد :

ـ الدفع الآن . . ان شئت .

يعود يربّت كتف هادي .

ـ نحن نثق بك .

يشغله شعوره بانتشائه ، في الحين الذي يصله فيه صوت شاهبردي متسائلاً :

ـ اتفقنا ؟!

هادي يتنبه .

ـ اتفقنا .

ليفاجأ بشاهبردي باسطاً له كفّه .

ـ نقرأ الفاتحة!

* * *

ـ مساء اليوم التالي سلمني شاهبردي المبلغ كاملاً . لا مجال للتراجع اذن . الفكرة التي ألحت عليَّ أن أترك كامل المبلغ في عهدة زوجتي أم صادق .

ـ ما الحكمة في ذلك ؟

السؤال صدر عن حاكم . هادي يوضح :

ـ الفكرة . . لو حدث وفشلت العملية . . لو ألقوا عليَّ القبض . .

سليمان يكمل :

ـ تجري مصادرتك أنت ومبلغ المال . .

حاكم يضيف :

ـ التضحية تكون مجانية .

هادي يبتسم ازاء استنتاجات الاثنين . يقول :

ـ زوجتي أم صادق استغربت كما لم تفعل من قبل...

* * *

ـ ما هذا ؟!

رزمة النقود بين يديها ، وسؤالها التالي يلحق سؤالها الأول :

ـ من أين لنا كل هذه الفلوس ؟!

فأجابها هادي بعد ان كان اختلى بها في حجرتهما :

ـ احفظيها لديك في مكان أمين!

كيف لها تخفي استنكارها ؟!

ـ لكنها كثيرة!!

مشاعر العطف تجيش في صدره .

« لو تدرك الثمن!! »

يمرر كفّه على رأسها .

ـ هذا ما يقولون عنه . . صفقة العمر .

تواجهه حائرة . تردد متسائلة :

ـ صفقة العمر ؟!

اراد يصدقها . يشركها جانباً من حقيقته . رعشة الحزن تلامس صوته :

ـ او غلطة العمر!

عنياها تتسعان عليه .

ـ هادي!!

قلقها يشملها :

ـ . . . ما الذي يحدث ؟!

نظراتها تجسّد فزعاً غامضاً .

ـ . . . ماذا بك ؟!

يعزّ عليه يفجعها ادراكها جسامة المخاطرة .

ـ لا شيء .

يكفيها من الحقيقة هامشها .

ـ . . . كل ما هناك أني . .

جزعها في تلهفها :

ـ ماذا ؟!

يعزز هدوءه خلل كلماته . يخبرها بصيغة القرار :

ـ . . الليلة أعبر الى السيبة!

استجابتها الرافضة :

ـ كيف ؟!

لا تهدف تستوضح وسيلة العبور ، لكنها تشير الى الاخطار المحدقة به . يطمئنها بابتسامة وليّ الامر الواثق من اقتداره .

ـ بالطريقة التي قدمت بها .

تشككها يمازج قلقها :

ـ لماذا الليلة بالذات ؟!

* * *

ـ لكي أُبقي زمام الامر في يدي اختصرت جدلنا ذاك . قلت لها اني سأبقي النقود لديها أمانة ، طوال فترة غيابي .

حاكم كمن يعترض :

ـ غياب معلّق! . . هكذا ؟!

هادي يومىء برأسه دلالة ادراكه الموقف .

ـ سألتني ان كان غيابي يطول . . اجبتها بحدود الشهر .

ـ فان لم تعد ؟!

سؤال اشتراطي يصدره سليمان . هادي يضيف :

ـ عليها في هذه الحالة تتصرف بالمبلغ .

يصمت برهة . صوته يروح الى بعيد :

ـ . . قلت اقسميه نصفين . اشترِ بنصف قطعة ارض . والنصف الآخر حاولي توصيله الى أم عبد الرضا عندما تحين الفرصة .

حاكم يتدخل متسائلاً :

ـ هل فهمت عليك ؟!

كلمات هادي تغص في فمه :

ـ كانت اجهشت باكية!

* * *

بناءً على اتفاق مسبق بين هادي والمهرب شاهبردي كان موعد اللقاء منتصف الليل ، عند طرف مزرعة نخيل ، تقع على ضفة شط العرب شمال مصفاة عبادان . هادي وصل أولاً . المزرعة تبدو مهجورة تماماً .

« ظروف حالة الحرب »

اصوات الليل ، وهذه الاعداد الهائلة من النخيل المتراص في الظلام ، كما الاشباح المتربصة . الجانب الآخر ينام ساكناً عبر الشط . عائلته الاخرى هناك . مطلوب منه لا يفكر يطرق باب بيته ذاك قبل انجازه مهمته بالشكل الامثل .

« ما الذي اخّرهم ؟! »

أم أنه بسبب حالته اللاهفة بكَر في مجيئه ؟!

شاهبردي . . المخاطرة تختلف . الاجر على قدر المشقّة . غيره غامر ونجح . غيره غامر وفشل .

ـ العبرة في شطارتك . . ان تنجح توصلهم أم لا!

قال له شاهبردي وهو يسلّمه النقود ، وأردف :

ـ انت من المهربين القلائل الذين لم يُلق عليهم القبض حتى الآن .

ما جدوى يقول له هادي :

« ـ أنا بسابقة أولى ؟! »

ويبقى الاعتراض المصرّح به :

ـ على أيامي كنت اهرّب الشاي . . السجاير . . البضائع الخفيفة الحمل!

الآخر يحدّق فيه ، ينتظر ، فيستطرد :

ـ . . هناك فرق كبير بين تهريب بضائع كهذه وتهريب البشر!

شاهبردي يتحمس .

ـ فعلاً .

يُطلق ضحكة واثقة ، ويتم :

ـ . . بضائعك التي ذكرتها تضطر تحملها على كتفك ، وبضائعنا تمشي على قدمين .

هادي ينبهت .

« كيف تفهم الامور ؟! »

الآخر يعاود بالحماس ذاته :

ـ شيء آخر . . بضائعك التي ذكرتها ـ لو طاردتك الشرطة ـ تضطر تتخلص منها كي تهرب بجلدك ، فيضيع رأسمالك . .

« ما الذي يفكر فيه ؟! »

شاهبردي يضيف :

ـ . . بضائعنا تتكفل هربها بنفسها . .

صوته ظل يتواصل ، في حين شغل هادي بسؤال :

« أهي دعوة للتخلي عن المتسللين في حالة مواجهة الخطر ؟! »

رغم كونه لم يحترف تهريب البشر من قبل الآ انه سمع قصصاً عديدة عن قوافل من الايرانيين تاهوا في الصحراء ما بين العراق والكويت بعد تخلي مرشدهم المهرب عنهم . وقوافل اخرى جرى التخلي عنها وسط غابات نخيل أبي الخصيب . .

« بضائعنا تتكفّل . . »

المتسللون لا ينون يسعون يحققون حلم الوصول الى الكويت ، والمهربون لا ينون :

« صفقة عمر! »

السؤال الاكثر الحاحاً :

« عمر من ذاك الذي تتضمنه الصفقة ؟! »

* * *

ـ مرّت عليّ ساعة وانا هناك انتظر . لا أثر لشاهبردي ، لا أثر لأي من المتسللين . تبادر الى ذهني انهم اجّلوا التنفيذ لاسباب امنية .

ـ احتمال معقول!

ردد حاكم ، مع مواصلة هادي :

ـ انما لو كان هذا لبادر شاهبردي خبرني . . هو يعرف بيتي .

حاكم وسليمان يكتفيان يصغيان .

ـ الاحتمال الآخر اني أخطأت العنوان ، فلم أتواجد حيث يجب .

يصمت برهة قصيرة .

ـ الزمن محدد . . محسوب . . قضية العبور تقتضي الكثير من حساباتها . لم يبق عن انبلاج الفجر كثير وقت . . مهمات كثيرة ستترتب على امكانية نجاحنا باجتياز الشط . هذه المهمات يجب تؤدى قبل شروق الشمس ، والا تحوّل اجتياز الشط من خطوة اولى باتجاه المتسللين الى الكويت الى خطوة مؤكدة نحو المصيدة . .

* * *

الدوريات النهرية ـ من الجانبين ـ تؤدي جولاتها الروتينية . قلق هادي يدفعه يذرع السد الترابي الموازي للساحل . نهر فرعي يتصل بالشط مباشرة على بعد خطوات منه . خلل الظلام يلاحظ وجود زورق خشبي بطول خمسة امتار مما يستخدم لنقل التمور . الفكرة العابرة ذهنه :

« وسيلة العبور! »

المعنى المترتب :

« لم اخطىء العنوان »

يقترب من الزورق اكثر . الرؤية تتضح . عدد كبير من مجاديف بدائية أُعدت من غصون الاشجار تتكدس في القاع .

« ما الهدف ؟! »

الذي ادهشه ايضاً ان الزورق قديم . اخشابه تكاد تكون بالية ، مما

يشير الى استغناء مالكه عنه منذ زمن .

«ان كان الامر هكذا . . . »

ولا يكمل احتجاجه مع نفسه .

ـ هادي!

صوت شاهبردي يصله ، مهموساً ، من وراء كتفه .

ـ تأخرت!!

قالها هادي عاتباً ، فكان رد شاهبردي :

ـ الوقت كاف .

* * *

ـ له حق يطمئن مادام دوره ينتهي هنا .

خبّر هادي ، واستطرد :

ـ سألته عن الرجال الذين سأتولاهم ، فأخبرني انهم هنا .

سليمان يبدي دهشته :

ـ أين ؟!

واجابه هادي :

ـ . . ثم سارع اطلق صفرة من فمه . فتمخضت جذوع النخيل المحيطة عن عدد من الرجال . .

انطباع بالتوقع يرتسم على وجهي حاكم وسليمان .

ـ . . خيّل اليّ لحظتها ان عدد الرجال كبير جداً . قلت له هم كثيرون . ضحك واجابني انهم أربعون ، لا أكثر ولا أقل . سألته عن الزورق ، فأشار بيده هناك . وحين أبديت احتجاجي على قدمه ، قال لي مازحاً . . «لم يعرضوا بيعه عليك!»

سليمان يبدي رأيه :

ـ الحجّة بالحجة!

هادي يعبر تعقيب سليمان . يضيف :

ـ وضّحت لـه خطورة استخدام الزورق في العبور واحتمال تسرّب المياه من قعره ، فواجهني بالرجال المحتشدين . . ما الذي تفعله بهم ؟! . . قال وأشار . . نصفهم يتولى نزح الماء المتسرب . والنصف الاخر يقوم بالتجديف .

حاكم ، بدوره ، يبدي رأيه :

ـ توزيع عادل للمهام!

* * *

كان في بال هادي يبدي رأيه لشاهبردي :

ـ المهمة خطيرة ، وحياة الجميع مرهونة بكفاءة الزورق!

انما ما جدوى يفعل والآخر بإجابات جاهزة لا تقبل الجدل .

ـ متى نبدأ ؟

الآخر يفاجئه ، يسأله . عينا هادي تروحان عبر الظلام فوق مساحات الماء . أضواء طرادات الدوريات على البعد .

ـ خلال نصف ساعة .

أجاب هادي . توقعه القلق يكبر في داخله ، ووضح :

ـ . . بعد عودة الدوريات من جولتها هذه .

وهم يتكدسون داخل الزورق تذكّر هادي أمراً غاب عنه ، فتوجّه الى شاهبردي متسائلاً :

ـ ان كان الجميع سيعبرون ، فمن يعود بالزورق ؟!

إجابة شاهبردي صريحة :

ـ اتركوه حيث هو .

لحظتها فقط أدرك هادي سر اختيارهم « زورق خردة » لا قيمة له .

* * *

ـ من كان يظن . .

قال سليمان تاركاً جملته معلّقة ، فتطلع فيه هادي مستفهماً ، ليأتي

الاستطراد من حاكم :

ـ . . . انك غامرت اقدمت على مخاطرة كهذه ؟!

هادي يبتسم مغلوباً على أمره .

ـ ولا أنا!

يلوذ بالصمت برهة .

ـ ما كنت صدّقت اني وافقت . اني قبضت ، ريثما بدأت .

تندّ عنه زفرة مغفلة .

ـ القبول بفكرة المخاطرة شيء ، والشروع بالتنفيذ شيء آخر .

صوته على هامش الذكرى :

ـ اثر مرور الطرادات . . الآن . . الاربعون يهبون هبّة رجل واحد . . الزورق ينفلت مثقلاً بحمولته . مياه الشط تلطم حافته . اللهاث الجماعي المتواقت . والمشاعر التي جاشت في صدري . أحسستني أباً لكل الاربعين . مصيرهم مرهون بي . هم لا خيار لهم ، وانا . . الثقة إلزامية . النجاح الزامي . الوصول الى الضفة الاخرى . .

ـ . . .

ـ أقول دهشت . أقول ذهلت . أقول . . ان الزورق ، على قدمه ، انطلق كما السهم يخطف مياه الشط خطفاً . المجاذيف البدانية فعلت . . وكما الاغفاءة العابرة ، كنا عبرنا . .

* * *

الجزر هو المطلوب . حين يكون الجزر تكون شبكة الجداول والنهيرات المتفرعة عن شط العرب ، والممتدة حتى حدود الصحراء ، شبه خالية من الماء .

حتى يوفق هادي ـ بمن معه ـ يجتاز مواقع الجيش العراقي ، دون احتمال الكشف والمواجهة ، عليه يسلك طريقاً متعرجة خلال شبكة النهيرات ، صعوداً غرباً ، ريثما يصل مقبرة مهجورة على مشارف الصحراء . قرب المقبرة تلك

مقام طيني متداع لأحد الأولياء المنسيين من أصحاب الكرامات .

« مكمن امين »

يخفي رجاله هناك . احتمال ان يعرج أيّ من البشر على ذلك المقام البعيد بعيد . . يغادرهم لساعات معدودة . يتوجه الى سوق العطارين في العشار . يسأل عن دكان الحاج علوان .

ـ تلتقيه ، فيتولى كل شيء بنفسه .

شاهبردي كان خبّره . وبهدف يطمئنه خبّره اكثر :

ـ الحاج علوان شريكنا في المهنة منذ عشر سنوات .

« وصلنا! »

الخطوة الأولى أُنجزت بسلام . من موقعه في مؤخرة الزورق يوجّه الزورق نحو مدخل أحد الانهار الفرعية للشط . الجزر يكاد يُفرغ النهر المقصود . الممر المائي المتبقي ضحل .

ـ « إششش!! »

يهمس لهم فيكتمون أنفاسهم . قاع الزورق يلامس الارض الطينية لقاع النهر . يستقر . يشير لهم ان انزلوا بحذر . ينزلون . المياه المتخلفة تلامس ركبهم .

ـ « إششش!! »

يشير لهم . . ادفعوا الزورق باتجاه الارض اليباس من ضفة النهر .

* * *

ـ التعديل الذي ادخلته على الخطة ـ وقتها ـ الآ أترك الزورق عرضة لتيارات الشط ، الترك يعني امكانية مصادفة دورية طراد . يفهمون حصول عملية تسلل . يسرعون يمشّطون المنطقة بحثاً .

سليمان يغمغم :

ـ تصرف منطقي .

هادي يكمل :

ـ اشرت لهم . . اختبئوا هنا . . ريثما استكشف الطريق .
حاكم يقول مُقراً :
ـ لاحاجة بك توصيهم كيف!
الآخر يوافق بحركة من رأسه .
ـ نبات الحلفاء ـ جرّاء ترك الارض دون حراثة بسبب حالة الحرب ـ كما الدغل الكثيف ، يرتفع زهاء المتر . .
السؤال يبدر عن سليمان :
ـ ماذا عن مواقع الجيش العراقي ؟!
ـ مواقع الجيش العراقي ليست بعيدة عن المكان .
أجاب هادي ، واضاف :
ـ . . المواقع تتوزع خلل النخيل ، على امتداد ما وراء الساتر الترابي لضفة الشط .
يلتقط انفاسه .
ـ . . كان عليَّ أجد منفذاً . بما يكفل لنا تسللا .
تند عنه أنة قصيرة .
ـ . . المهمة جديدة علي . . لكنها ضرورات الظرف .
ـ المهم!
قال له حاكم يستحثه ، فاستجاب :
ـ مسألة مواجهة جيش . . حياة أو موت . عدا عن ذلك هناك ضيق الوقت . . الفجر يكاد . . وان صار الفجر . .
حاكم يختصر على طريقته :
ـ في خبر كان!
هادي يتطلع اليه ، يستمهله .

* * *

شبكة النهيرات والجداول تتفرع لتنتشر الى مالا نهاية . مطلوب يتنبه

لدقة الاتجاه ، والاّ فان جميع المنافذ المائية تؤدي الى الشط ، ليجد نفسه انتهى حيث بدأ .

يلزم احد الجداول . يدخله . ينقّل خطواته في العمق الطيني من الجدول باحتراس مدروس ، محاذراً اصدار أي صوت ، مُحنياً قامته ، بما يبقيه مخفياً مقارنة مع المستوى الافقي لسطح الارض .

الظلام ، ونبات الحلفاء على جانبي الجدول ، يخففان حدّة توتره وقلقه ان يُكشف فجأة . يواصل تقدّمه .

اذناه ـ بعد دقائق قليلة ـ تلتقطان غمغمة خافتة لأصوات بشرية . دقّات قلبه تتسارع . يحسّ جفافاً في فمه .

« موقع عسكري!! »

يكف عن المشي . يرفع قامته بإحتراس بطيء . يدقق النظر تجاه الصوت . اضواء خافتة لسرج زيتية . ثلاث خيم . اشباح متحركة لرجال عديدين .

« لو كشفوني!! »

يسكن في وقفته برهة . لا بد له يجد منفذاً . يعمل فكره .

« يجب!! »

الجدول ـ على مقربة من موقفه ـ يلتقي بآخر يميل يساراً ، مما يجعله ينحرف مبتعداً عن الموقع .

« يجب!! »

يسلك محاذراً يساراً لمسافة تُطمئن له ابتعاده عن مصدر الخطر .

الجدول يلتقي بآخر ، ليعود يتجه صعوداً نحوالغرب .

* * *

حاكم وسليمان مازالا يصغيان باهتمام يشوبه ترقّب . الشمس ـ خارج السرداب ـ توشك تغرب . الحركة واصوات السيارات والباعة ـ خلل الساتر الخشبي للنافذة ـ تتداخل . تتناغم . تتواصل . ترتفع . صوت هادي يتواصل :

- . . الطريق التي اخترتها ـ بعد تحديدي لها ـ تمر عبر ارتباط عدة جداول ، عند منتصف المسافة الفاصلة بين موقعين عسكريين ، يبتعدان الواحد عن الآخر بحدود عشرين نخلة .

حاكم يفلت ضحكة قصيرة ودودة .

ـ مقياس جديد للمسافات!!

هادي يعبر على كلمات حاكم .

ـ ليس أمامي خيار آخر . الساحل ، على امتداده ، ملغوم بالمواقع ، والفجر كاد .

* * *

لدى عودته لهم طالبهم :

ـ امشوا ورائي!

ثم شدد عليهم يوصيهم :

ـ الصمت الصمت!! . . لا سعلة! . . لا عطسة! . . لانأمة! . . لا لهاث! . . لا نقلة قدم بوقع مسموع!!

واضاف :

ـ لا قامة مرفوعة عن مستوى الحلفاء!!

الرجال يبدون امتثالهم .

« بسم الله نبدأ! »

وبدأ . . لكنه ، وهو يلتفت وراء كتفه ، بعد خطوات ، صدرت عنه غمغمة لا ارادية :

« غير معقول!! »

ما كان له يصدّق . الاربعون ـ بانتظامهم خلف بعضهم ـ بدوا له كما طابور طويل يمتد ، ليغيب في عمق الظلام ، دون نهاية مرئية .

« هل زاد عددهم ؟! »

سؤال عابر خطر لهادي ، سارع يطرده من ذهنه ، وتابع سيره ، موقعاً

خطواته الحذرة في القاع من هذا الجدول باتجاه ذاك .

* * *

ـ بعدما وفقت أتسلل بهم ما بين الموقعين العسكريين ، وابتعدنا مسافة الامان تولّد لدي شعور طاغٍ أني بسباق سريع مع الوقت .

ـ الفجر!

ردد سليمان بصيغة اخبارية متمهلة ، فبادره هادي :

ـ الفجر كان بدأ . يتحتم عليّ أُسارع من وقع خطواتي . الرجال يسارعون ورائي . الجداول والترع تتفرع ، تلتقي ، تنتشر .

حاكم يتدخل ، مبدياً تواصلاً :

ـ ضرورة ضبط الاتجاه!

هادي يوافق بهزّة من رأسه .

ـ وجهتنا يجب تكون غرباً . المقبرة ـ حيث المقام المهجور ـ غرب . . حدود الصحراء غرب . . الخلاص غرب . .

* * *

الاحساس بالخطر الداهم جرّاء الانكشاف لنور النهار يتهدده من شرق .

« الفجر صار!! » .

مساحات النخيل تترامي منكشفة لأضواء الفجر ، احتمال مواجهة ايّ من الدوريات الطارئة لأمن ثورة ، أو مصادفة موقع خلفي للجيش . .

« الفجر زاد!! »

الجداول باقية تتواصل ، تتفرع ، تلتقي ، تنتشر .

« لا بدّ!! »

يسارع من وقع خطواته اكثر . الاخرون يلاحقون تسارعه . حاله آلت أقرب إلى الهرولة منها إلى المشي السريع .

« لا بد!! »

رئتاه تبدآن تضيقان . انفاسه تتلاحق . عمره ما فكّر يتعرض هكذا .

القيعان الطينية للجداول تبدو وكأنها تتعمد تشدّ قدميه بقوة يكاد يعجز معها ينتزع قدمه من خطوة منجزة باتجاه اخرى قيد الانجاز .

« يجب !! »

وكان عليه يقطع المسافة المتبقية حتى موقع المقام ركضاً فعلاً .

* * *

- فوق الطاقة!

قال سليمان مبدياً مشاركة .

- احكام الضرورة!

عقّب حاكم بتفهم مشارك ، ليتناول علبة سجائره . يخرج واحدة ، يمدّها باتجاه هادي .

سليمان يبادره ماداً يده :

- لو سمحت!

حاكم يتحمس لمشاركة سليمان في التدخين .

- صرت عراقياً أصلاً!

هادي ينفث دفعة كثيفة من دخان لفافته قبل مواصلته :

- اشعة الشمس كانت بدأت تلامس اطراف سعف النخل العالية حين وصلنا مبنى المقام المهجور . وقفت عند ثلمة مناسبة في احد جدرانه مُشيراً للرجال ان ادخلوا هنا . كنت منقطع الانفاس تماماً ، رغم هذا كانت الفرحة اكبر . .من كان يصدق ؟! . . أنا - بيني وبين نفسي - كنت عاجزاً استوعب فكرة اني وفقت - بهذا العدد الهائل من الرجال - اعبر الشط ، لاجتاز مواقع الجيش العراقي بسلام .

يفتر فمه عن ابتسامة نصف .

- . . وهم يتوالون يدخلون توفرت لي فرصة أرى وجه آخرهم . كان شاباً لم يبلغ العشرين بعد ، بلحية مدببة تتألف من شعيرات سود قليلة .

فمه يتسجيب لابتسامته اكثر .

ـ . . مُذ كنت معهم في الساحل الايراني ، لم تتوفر لي فرصة أرى أياً منهم بوضوح . . ظلام الليل ، وهذا الانشغال الكلي بكيفية العبور والتسلل .

يصمت برهة مستذكراً .

ـ . . كان مفروضاً بي ادخل بعدهم مباشرة ، أُبادلهم حديثاً ما ، اطمئنهم على حالهم ، لكن الاجهاد وقد أخذني كلي . . تداعيت جالساً على الارض .

حاكم بوازع المداعبة :

ـ مسألة سن!

* * *

بعد التقاطه أنفاسه تثاقل هادي على قواه الواهنة .

«مادمت المسؤول عنهم . . »

حين دخل الشلمة فوجيء بعيون الاربعين منشدّة اليه ، مضمّنة أملاً يصبو يتحقق .

«الابوة لا تقتصر . . »

دهشته ، وهذا الاحساس الرائق بالتبني وهو يرى حشد الوجوه في ضوء الصباح .

ـ عافاك الله!

ردد احدهم بمحبّة يخالطها الاعجاب ، لتتداخل اصواتهم تؤكد المعنى ذاته .

ـ عافاكم!

طوال عمره في التهريب لم تصادفه فرحة كهذه .

«البشر شيء مختلف!! »

* * *

قال لهم :

ـ تبقون هنا . الصمت . الهدوء . اياكم ومغادرة المكان!

قال لهم :

ـ تبقون هنا . المسافة التي قطعناها قصيرة ، لكنها الجزء الأصعب من رحلتكم الى الكويت!

قال لهم :

ـ تبقون هنا . أغيب ساعتين . . ثلاث ساعات . . لا ادري . . انما سأرتّب أمور مواصلتكم رحلتكم بأمان .

شعور الاطمئنان في عيونهم .

ـ هنا . . بانتظار عودتك .

* * *

ـ انسللت خارجاً من ثلمة الجدار .

قال هادي ، وأردف :

ـ . . شمس الصباح كانت بدأت تنتشر . مقهى السيبة ، الواقعة على حافة الطريق الصحراوي الموصل ما بين الفاو والبصرة ، على مسيرة عشر دقائق . .

المقاطعة تصدر عن حاكم متخذة سؤالاً :

ـ « فكرت تخطف رجلك الى بيتك في السيبة » ؟

الذكرى تستحوذ صوت هادي :

ـ فكرت . . لكنه الوقت . . في بالي أُنهي مهمتي كاملة . بعدها سيكون الوقت كله لي . سليمان يتدخل :

ـ اذن . . الحاج علوان!

هادي يبتسم ـ يكمل :

ـ ليس غيره .

لم يجد كبير صعوبة بالوصول الى دكان الحاج علوان . الدكان معروف ، ومعروف عن صاحبه انه من أثرياء سوق العطارين .

ـ أهلاً ومرحباً!

شاهبردي لم يكذب .

«ـ بمجرد لقائك به ، سيتولى كل شيء بنفسه»

وهذا ماحدث .

ـ بارك الله بك .

قال له الحاج علوان وهو يسمع عن الاربعين .

ـ رجل ولا كل الرجال!

واستطرد :

ـ . . فيما يخصّك أديت واجبك .

يبتسم بمكر التاجر .

ـ حلالا عليك المال الذي قبضته .

الامر الاكثر اهمية ان مهمته ستنتهي الليلة . . الساعة العاشرة .

ـ اللقاء في مقهى السيبة .

«ملاءمة المكان . . المقام المهجور على مقربة»

بعدها يطلق الحاج علوان ضحكة مرحة تسبق تعقيبه :

ـ تسليم واستلام على الفور .

«الراحة المترتبة عن اخلاء الطرف»

ـ سأتولى تدبير وسيلة نقلهم .

يطمنه اكثر :

ـ سيبيتون ليلتهم هذه في الزبير .

فكان ان ردد هادي بعرفان :

ـ على بركة الله .

* * *

ـ غادرته نشطاً . السهر . التعب . القلق . . كنت تخففت من كل هذا . .

حاكم وسليمان يسمعان .

ـ . احسست ان مسؤولية مصير الرجال الاربعين انتقلت مني الى الحاج علوان .

يتنغّم صوته بالذكرى :

ـ . . سوق العطارين بزحام من الناس يبعث على الألفة . ساعة ما قبل الظهيرة . كان علي أعود حيث المقام ذاك . أُطمئن الرجال . أخبّرهم بموعد الساعة العاشرة .

المواصلة تصدر عن حاكم :

ـ بعدها الى بيتك!

ـ مباشرة . .

ردد هادي ، واكمل :

ـ . . أم عبد الرضا . الاولاد . وفكرة ان آخذ لنفسي قسطاً وافراً من الراحة ، ريثما يحلّ موعد الحاج علوان .

* * *

السيارة التي اقلّته أنزلته عند مقهى السيبة . النهار كان جاوز منتصفه . المقام يلوح نسياً مهملاً على بعد .

« لعلهم بدأوا يقلقون »

يذكرهادي أنه سأل المهرب شاهبردي :

ـ مشكلة توفير احتياجات الاكل والشرب ؟!

ضحك الآخر .

ـ من هذه الناحية اطمئن . المتسللون يعرفون ما ينتظرهم . في العادة يصحب الواحد منهم طعاماً يكفيه عدّة ايام ، اضافة الى زمزمية ماء .

ثم يواصل مشيراً الى معنى ما في ذهنه :

ـ . ان لم يصحب البعض منهم أشياء أخرى .

لحظتها لم يطرأ على بال هادي يسأل :

« مثل ماذا ؟! »

المقام يقترب . المنطقة المحيطة خالية من ايما اثر لايما انسان .

« أمان »

وما أن احنى قامته ماداً رأسه من ثلمة الجدار استعداداً للدخول حتى تفاجأ بكفّ قوية تطبق على رقبته . تجذبه بقوّة الى الداخل .

جزع الانبهات اكبر من المفاجأة . الالم العاتي ورقبته التي تكاد تنهصر . أنفاسه ، وصوت زاجر يصفع اذنيه :

ـ لا تتحرك!!

« من أين ؟! »

الكفّ العاتية تبدأ ترخي قبضتها . الاشياء المحيطة بتفاصيل متداخلة . احتباس رقبته أطلق الدموع غزيرة من عينيه .

« كيف يحدث ؟! »

صوت ثان يردد منتصراً :

ـ الرأس المدبّر!!

بعد ثوان بدأت الاشياء تتضح . فسحة المقام بعد ان كانت باربعين مُتسللاً صارت بسبعة .

« أين ؟! »

السبعة الفضلة كانوا مقيدي الايدي ، مفزوعين ، جزعين ، مكدسين عند الزاوية ، وفي المقابل هناك خمسة رجال شباب ببنادق رشاش مشرعة .

« أمن ثورة! »

* * *

الضوء الاصفر للمصباح يبدو كئيباً .

ـ إخبارية خاصة!

قال حاكم . فندّت عن رأس هادي حركة دالة على الحيرة .

ـ لا اعتقد!

الليل كان أخذ يتقدم .

ـ وشاية من شريككم الحاج علوان!

أدلى سليمان مجتهداً ، فعاد هادي يحرك رأسه .

ـ لا اعتقد!

حاكم يجتهد بدوره :

ـ المتسللون الايرانيون ـ كما اظن ـ استبطأوا عودتك اليهم فغادروا مكمنهم ، مما سبّب في انكشافهم!

ـ لا . .

في اللحظة التي يسمع صوت المفتاح يدو في اقفال باب السرداب .

ـ وجبة العشاء .

١٤

تقول :

« ـ لو اطلقوا سراحي! »

التمنّي ضدّ مجهول ، والطموح :

« ـ لو منحت فرصة أعيش حياتي لعشتها بالشكل الآخر! . . التحمت بها طولاً ، عرضاً ، عمقاً . لوناً ، نكهة ، طعماً ، رائحة . »

تقول . . أيامك ما قبل حلولك في السرداب كانت تمر متشابهة او مختلفة ، بعضها ثقيل وبعضها لا . أمرها مرهون بمدى الانجاز المتحقق للعمل المسند اليك . ايامك ماقبل . . تراكم رقمي لا غير ، وليس من وقفة تسائل نفسك فيها :

« ـ اين انا من نبض الحياة بتواترها الحقيقي المحسوس ؟! »

غباء ؟! . . غفلة ؟! . . أم ان تواجد السرداب ، بما ترتّب عليه من حرمانك اعتيادية الحياة ، جعلك تدرك الى اي مدى كنت على الهامش ، ولا شيء عدا الهامش .

تقول :

« ـ لو . . لارتجلتُ الزمن في الحياة ، وارتجلتهما معاً في شخصي ، وارتجلتني بكياني كاملاً في الحضور من اللحظة ، ليس قبل ، ولا بعد انصرامها »

تدري ان لا حساب للحظات هنا ، رغم الرتابة البليدة والساحقة في الوقت نفسه لتراكم الزمن من خلال يقينية لا جدوى الانتظار .

الاشياء في الخارج بصفات والوان وروائح و اصوات وابعاد ، في حين ان الاشياء هنا بصفة واحدة ، لون واحد ، بُعد ، لها اسم واحد . . ركود .

ركود اصفر . ركود مكتوم . ركود ما تحت الارض . ركود داخل مغفل للحظة زمن منقطعة عن وجود خارج .

تقول :

«ـ لو . . لبادرت ، وقفت على الناصية من الرصيف ، هكذا . . مجرد متسكع مجهول . أتملى وجوه الناس . .تقاطيعهم . مظاهر الفرح ، الحزن ، اللهفة ، التعب . . »

تقول . . أو لا تقول . . يبقي التمني ضد مجهول .

* * *

ـ للصبر حد!

فبادره الآخر :

ـ للسجن لا .

ـ لو نعرف اليوم الذي نُستدعى فيه للمحاكمة لهان الامر!

الآخر يُفلت ضحكة قصيرة باهتة .

ـ أو العكس .

هادي يتابع جدلهما باندهاش صامت .

ـ اعتقال قيد المحاكمة!

ـ والمحاكمة قيد الغيب!

ـ ليتها تبقى هكذا لحين . .

يُبقى جملته مفتوحة ، مما يستدعي الآخر :

ـ لحين ماذا ؟!

يفكربرهة .

ـ لحين حدوث معجزة .
هادي يحرك رأسه دلالة حيرته .
ـ عندما اعتقلت في المرة الاولى . .
قال حاكم ، واضاف :
ـ كان احساسي بالزمن غيره الآن . كان احساسي بنفسي غيره الآن .
هادي كمن وجد فرصة ينفذ بين الاثنين :
ـ كيف ؟!
ـ كنت اعتقلت لقاء فعل له مبرراته .
يندغم صوته بمعاناته :
ـ الفعل الذي قمت به شروع بالقتل . . رغم هذا كنت طوال ايام التحقيق والمحاكمة والسجن مشحوناً احساساً برجولتي .
سؤال هادي يتضمن فضولاً محسوساً :
ـ كيف ؟!

* * *

إشتباك فندق شط العرب وما ترتب عليه . . احمد نزيل المستشفى . حاكم رهن الاعتقال ، عمال الفندق الثلاثة الذين تدخلوا لصالحه اطلق سراحهم بكفالة ، لكنهم ـ كما عرف بعدها ـ طردوا من عملهم .
سليمان وقد تذكر امراً غاب عنه :
ـ امك! . . هل عرفت أمر اعتقالك ؟
ابتسامة ذات دلالة ترتسم على فم حاكم :
ـ ليس امي وحدها .
يتعمق صوته لدى استطراده :
ـ خبر اشتباكي مع الضباط الانجليز أخذ ينتشر بشكل غريب في عموم مدينة البصرة . صار حديث الناس ، بعدما اتخذ صياغات متنوعة .
يكمل بصيغة إدلاء اخباري :

ـ شاب يدعى . . يتصدى لمجموعة ضباط انجليز . فيجرح احدهم .
ـ عنوان لخبر صحفي!
حاكم يتجاوز تعقيب سليمان .
ـ شاب بصري يدعى . . يشتبك مع مجموعة ضباط انجليز من قاعدة الشعيبة ، فيصيبهم بجراح مختلفة ، جراح احدهم خطيرة .
ـ عنوان اكثر اثارة!
حاكم يتجاوز التعقيب .
ـ شاب من قرية جيكور . . ابي الخصيب . . يشتبك في معركة غير متكافئة مع زمرة ضباط انجليز ، ليوقع بهم اصابات عديدة . اصابات احدهم خطيرة ، نقل على اثرها بطائرة خاصة الى لندن .
ـ المهم!
ردد هادي ، مستحثاً الآخر يختصر .
ـ الخبر لم يقتصر على البصرة حسب .
سليمان يتدخل مستوضحاً :
ـ الخبر ، مع انتشاره ، لم يأت على ذكر القمار أو الخمر!
فيؤكد عليه حاكم :
ـ بالمرّة .
هادي يجد منفذاً يسأل :
ـ لماذا ؟
حاكم يستجيب :
ـ عرفت ان جهات معينة كانت وراء بثّ الخبر .
ـ جهات معينة ؟!
ـ احزاب وطنية سرّية من المناوئين للحكم الملكي وتبعيته للانجليز ايامها .
السؤال يصدر عن سليمان هذه المرة :

ـ وانت! . . ماذا كان رد فعلك ؟

ـ كنت مستغرباً وفرحاً ذات الوقت .

اجاب حاكم ، وأنتم :

ـ انتشار الخبر بصياغاته تلك غيّر من طبيعة تعامل رجال الشرطة وضباطهم معي . هادي بفضوله ذته :

ـ كيف ؟!

ـ صاروا يحترموني ، و« يحسبون لي الف حساب » .

يصمت برهة قصيرة . نظراته تروح الى البعيد .

ـ غير هذا ، عرفت ان الصحف المصرية كتبت عن الحادث ، واذيع من صوت العرب . يعود الى الصياغة الاخبارية :

ـ نظام نوري سعيد العميل يعتقل شاباً عراقياً غيوراً على عروبته وقوميته . . كان قد تصدى لزمرة من العملاء والجواسيس الانجليز ، فأوقع فيهم اصابات خطيرة .

سليمان مُعرباً عن دهشته :

ـ صرت بطلاً فعلاً!

حاكم يضحك بمرارة .

ـ عن غير قصد .

هادي مهتماً :

ـ اين امك وسط هذا كله ؟

انطباع بالحزن والتبكيت يأخذ وجه حاكم .

ـ لم تغيّر موقفها مني .

يتهدج صوته .

ـ لم يكفها انها تجاهلتني تماماً ، لكنها منعت اخوتي اجراء اي اتصال بي .

سليمان يغمغم :

ـ موقف غريب!

حاكم يعقّب :

ـ كنت استحقه .

سؤال مفاجىء يبدر عن هادي :

ـ واحمد ؟!

* * *

قيل عن احمد انه بقي في غيبوبته سبعة ايام . الطعنة التي تلقاها كانت قاتلة ، لكن لياقته وتعلقه بالحياة ، واصرار حليمة تلازمه غرفة المستشفى مواصلة ليلها بنهارها . .

ـ الشفاء الكامل يحتاج الكثير من الصبر . .

قال الطبيب لحليمة اثر افاقة أحمد غيبوبته ، وأضاف :

ـ . . انما استطيع القول انه اجتاز مرحلة الخطر .

في اليوم التاسع استعاد احمد من قدرته على الكلام ، فكان ان سأل عن حاكم ، حتى اذا ما ألمّ بالموقف انتشر الفرح في وجهه ، وأمر حليمه فوراً . .

ـ احمد يبلغك سلامه .

فيقاطعها حاكم ملهوفاً :

ـ حاله الآن ؟!

الاطمئنان يشيع في وجهها .

ـ افضل بكثير .

عيناها تلتمعان بفرحتها .

ـ صار يتكلم .

سؤال حاكم لا يخفي قلقه :

ـ فقط ؟!

حليمة تجيب :

ـ الطبيب قال . . الشفاء مؤكد .

ثم تستدرك :

ـ فيما يخصّك . . أحمد يقول . . كن مطمئناً . . ان شاء الله براءة .

حاكم يتطلع اليها بأمل وهي تتم :

ـ ويقول انه يستأذنك يبيع السيارة ،لكي يوكل محامياً قديراً يدافع عنك .

وما وجد حاكم ما يعقب به . كان في حيرة من امره . يدري انهما ـ هو وأحمد ـ لم يعنيا يدّخرا شيئاً من مال . . ويدري انهما لا يملكان سوى السيارة . ما يرد في البال . . .

« من الأحق بثمن السيارة . . نزيل المستشفى . . أم نزيل المعتقل ؟! »

بعد أيام عرف حاكم من سميرة ان السيارة أُعيدت لمالكها السابق بعدما استُرجع ثمنها ، وعرف ان المحامي الذي جرى الاتصال به كي يتولى قضيته رفض يتقاضى مقدم اتعاب ، وأفاد :

ـ نقابة المحامين كلفتنا أنا واثنين من زملائي نتولى قضية حاكم .

بعدها أضاف المحامي مؤكداً :

ـ . . التكليف بحدّ ذاته مدعاة اعتزاز لنا .

* * *

سليمان مفلتاً ضحكة مداعبة .

ـ مع الفارق!

حاكم يواصل :

ـ اجراءات التحقيق والمحاكمة استغرقت ثلاثة اشهر .

هادي يتساءل :

ـ والضباط الانجليز ؟

يفهم عليه حاكم . يوضّح :

ـ لم يجر طلبهم للمحاكمة .

ـ لم يحاكموا ؟!

هادي يعود يسأل ، وحاكم يجيب بحركة موافقة من رأسه ، ويتم :

ـ كذلك عرفت انهم ماعادوا يرتادون فندق شط العرب .
سليمان وهادي يصغيان .
ـ في شهر يونيو ـ حزيران كانت جلسة النطق بالحكم . ثلاث سنوات مع الشغل والنفاذ .
سليمان كمن يختصر :
ـ ومنها الى السجن المركزي .
حاكم يهز رأسه دلالة الايجاب ، ويستطرد :
ـ قيل لي . . الظروف المهيأة كلّها كانت في خدمة قضيتي .
سؤال هادي يعبّر عن فضوله :
ـ كيف ؟
ـ قضيتي من وجهة النظر القانونية شروع بالقتل مع سبق الاصرار والتعمد ، وقيل ان العاهة التي احدثتُها في الضابط الانجليزي عاهة مستديمة ترتب عليها اعتزاله وظيفته ، اضافة الى الاضرار النفسية اللاحقة به .
سليمان يتدخل :
ـ ان صحت اخبارك . . هناك انحياز لصالحك!
حاكم يبتسم موافقاً .
ـ هذا ما أجمع عليه المحامون الثلاثة . قالوا ان القاضي متعاطف معي ، ولولا حساسية الموضوع ومتابعته من جانب الباشا في بغداد شخصياً . .
هادي مستغرباً :
ـ الباشا ؟!
ـ المقصود نوري سعيد .
أجاب حاكم ، واكمل :
ـ لولا ذلك لكان النطق بالحكم براءة تحت بند دفاع عن النفس عدا هذا وعدوني انهم سيسعون لالغاء الحكم أو تخفيضه عند الاستئناف .
سليمان يختصر :

ـ ماذا عن الاستئناف ؟!

ـ ما كان هناك استئناف .

ـ لماذا ؟!

لتأتي اجابة حاكم :

ـ كانت ثورة ١٤ تموز .

صوته يندغم بالذكرى :

ـ . . . ما كنت ألفت مناخ السجن بعد . . حتى حدثت الثورة .

سليمان يهدف يختصر :

ـ فشملك العفو العام!

ـ ليس بالضبط .

واضاف مصححاً :

ـ . . . بعد قيام الثورة صدر مرسوم يقضي باطلاق سراح كافّة السجناء السياسيين صيغة الاكتشاف مع سليمان :

ـ فاحتسبوك سجيناً سياسياً!

حاكم باجابة دالة :

ـ ليس بالضبط .

هادي يتدخل متسائلاً :

ـ اذن ؟

ـ المرسوم ذاته ، أو آخر الحق به . . لا أدري . . كان ينص على اعفاء المسجونين لأسباب غير مخلة بالشرف من باقي محكومياتهم .

من غير حماس دال يردد سليمان :

ـ فاحتسبوك مع هؤلاء!

ـ لا .

أجاب حاكم ، فانبرى هادي بنفاد صبر :

ـ كيف اطلقوك اذن ؟!

حاكم يجيب بهدوء :

- في البدء احتاروا بالطريقة التي يعاملون فيها محكوميتي . الرغبة في اطلاق سراحي واردة ، الحكم - حسب حيثيات القضية - مترتب على شجار في حالة سكر جراء لعبة قمار . . لكن الغريم الانجليزي وموقف الثورة من التبعية الانجليزية . . فكان ان أُطلق سراحي بكفالة مشروطة بحسن السير والسلوك .

لهجة سليمان تتضمن تحدياً ودوداً :

- هل احسنتهما ؟

لهجة حاكم تتضمن ثقة راسخة :

- اكثر من المطلوب .

سكت برهة قصيرة ، ثم استدرك :

- . . في حينه .

* * *

أيام كان نزيل السجن المركزي ، وفي آخر زيارة قام بها كل من احمد وحليمة...

- سميرة أعلنت توبتها . . على اسمك .

قالت حليمة ، واضاف احمد :

- استأجرتْ لها غرفة في احد البيوت خارج منطقة المنزول .

ودّ يقول لهما ساعتها :

« سميرة في غني عن ذلك »

كانِ يدري انها كفّت تعاشر سواه مُذ عرفته ، وساعتها ايضاً لم يراوده هاجس :

« من سيتولى الانفاق عليها وهي في حالتها تلك ؟! »

يدري . . أحمد موجود ، والمبلغ المستعاد عن قيمة السيارة ما يزال ، الامل باستئناف الحكم . . وحتى يجيء الغد . .

« يحلّها حلاّل »

في زيارتهما ذاتها خبّره احمد :
ـ الجرح المتسبب عن الطعنة التأم ، لكن اليد عاجزة .
ذراعه اليمنى باقية معلقة الى رقبته ، واكمل :
ـ الطبيب يقول ليس شللاً فعلياً . . هي مشكلة وقت . .
حليمة تتطوع توضّح :
ـ مشكلة الوقت هذه قد تستغرق عدّة اسابيع . . او عدة سنوات .
حاكم ينقل عينيه بينهما حائراً . فيبادر احمد يطمئنه :
ـ الطبيب يقول . . العلاج الطبيعي يسرّع .مستشفى البصرة ينقصه تخصص العلاج الطبيعي »
حليمة تتدخل :
ـ هذا العلاج متوفّر في احدى مستشفيات بغداد .
لقاؤهم ذاك كان قبل قيام ثورة تموز بأيام ، واقترح عليهما حاكم :
ـ بغداد ليست بعيدة .
حليمة تعقّب :
ـ فكّرنا في هذا .
في الوقت الذي غصّ فيه صوت احمد :
ـ هل تأذن لنا ؟
الدموع تطفر في عيني حاكم .
ـ تسألني الاذن يا أحمد!!
صوته بعتب أسيان . الآخر يرد :
ـ مفروض نبقى هنا ، قريبين منك .
حاكم يحاول يجد ما يقوله :
ـ انا هنا ، شئت ام أبيت ، وانا بانتظار عودتكم .
تسود لحظات صمت متوتر ، يقول احمد بعدها بنغمة حيية :
ـ عن المبلغ . . قيمة السيارة . .

حاكم يفهم ما يدور في ذهن محدثه . يقاطعه بعتب تحذيري :
ـ احمد!

* * *

الضوء الاصفر يضفي مزيداً من القتامة على السرداب بموجوداته المحددة . الثلاثة يستلقون على اسرتهم ، ليس بنيّة فعلية للنوم .

ـ انا غير آسف على الحياة التي عشتها .

ما كان الحزن قد زايل صوت حاكم ، لدى استطراده :

ـ . . . رغم احداثها كافة . . كانت مؤهلة تنتظم ، لولا . .

وصمت كأنه يبحث عن تعبير مناسب .

ـ لولا ماذا ؟!

سليمان يستوضح . حاكم يجهد يجد إجابة .

ـ لولا التقصير الذي ما كان متوقعاً .

هادي معبّراً عن استغرابه :

ـ تقصير من ؟!

حاكم يشرد بذهنه برهة . يقول اشبه بمن يحدث نفسه :

ـ لعله تقصير الحظ . . الزمن . . او تقصيري انا . .

سؤال سليمان يدخل على حاكم كمن يداهمه :

ـ من اين يجيء الاحساس بالذنب ؟!

ابتسامة حزينة ترتسم على فم حاكم .

ـ بعد ساعة واحدة ن مغادرتي السجن المركزي بصفتي مُطلق السراح كنت على عتبة بيت احمد . اردته يشاركني فرحي ، هو اولاً ، وما عداه يأتي ثانياً .

سليمان وهادي يتابعان يصغيان .

ـ وقفت على الباب لحظات خلتها دهراً ، وحين فتح أطل منه وجه امرأة غريبة .

* * *

ـ نعم

تساءلت المرأة بفضول تشوبه الدهشة . تبادر الى ذهن حاكم :

« هل اخطأت الباب ؟! »

ولكي يقطع الشك باليقين . .

ـ هذا منزل احمد ؟

ـ كان بيت احمد .

اجابت المرأة ، ووضحت :

ـ لكنه ـ كما عرفنا ـ سافر الى بغداد .

حاكم يظل يتطلع في المرأة منتظراً توضيحاً ، مما يدعوها تضيف :

ـ نحن المستأجرون الجدد للبيت .

السؤال الوارد في البال :

ـ هل عاد أحمد من بغداد ؟

المرأة تستغرب عليه سؤاله .

ـ لا ندري!

أزقّة البصرة القديمة تتوزع ، تتفرع ، تتكاثر الى مالا نهاية . المشكلة انهما اثنان لاثالث لهما . لو كانت العلاقة بصديق ثالث لسارع حاكم يلجأ اليه . المشكلة الاخرى انه يجهل عنوان سكن سميرة . الامل الذي كان يعمّر الصدر . . يرى حليمة ، فتأخذه الى سميرة . يبقى الحلم المستحيل . . ينفتح واحد من هذه الابواب المغلقة ، يطل منه وجه سميرة .

« تعال! »

الازقة تتشابه ـ الوجوه تتشابه . الفرح بالحرية واطلاق السراح يتحول الى شعور قاتم بالخيبة .

« ما الذي تبقى ؟! »

* * *

سليمان يتساءل :

ـ فكان الطريق الى جيكور ؟

حاكم يحبس زفرة كادت تفلت منه .

ـ ضرورة رؤيتي أمي!

بهامش من تأنيب يردد سليمان :

ـ ضرورة من الدرجة الثانية!

حاكم لا يتوقف عند كلمات سليمان .

ـ لم اتوقعها تستقبلني بالحرارة التي . .

الذكرى تشمل صوته . يتهدّج :

ـ . . . ما ان فتحت الباب لتفاجأ بي واقفاً امامها حتى تهلل وجهها .

من موقعه في سريره يقول هادي موجهاً حديثه الى لا أحد :

ـ قلب الام!

حاكم يواصل :

ـ مع نفسي كنت مستعداً لمواجهة رد فعل آخر . توقعتها تشيح بوجهها . تستدير منصرفة صامتة ، او تسمعني كلمات تأنيب قاسية .

ـ . . . أم!

رعشة الحزن تتضح في صوته اكثر :

ـ كانت شرّعت ذراعيها . أخذتني الى صدرها . احسستها تنبض في صدري . لحظتها ادركت كم فقدتها ، فلم اتمالك نفسي .

ـ بكيت ؟!

التساؤل يصدر عن سليمان ، والرد :

ـ بفعل غير مدرك . . غير مقصود . . داهمني شعور غامر . . احسستني ضائعاً تائهاً وحيداً منفياً . . لا ادري!

يلوذ بالصمت برهة قصيرة .

ـ لعلها قسوة الحياة في الاعتقال والسجن ، لعله ضياع احمد وسميرة ، لعله كل شيء ، لعله اللاشيء . . لا أدري!

هادي وسليمان يحترمان صمتهما .

ـ . . وانا اجهش ، وهي تضمني اليها ، شعرت بدموعها ساخنة تنساب على رقبتي ، حيث كانت تدفن وجهها .

عضلات وجهه تنشد .

ـ كانت قوية كعادتها . اصرّت الاّ تبكي بصوت مسموع .

سليمان وهادي يحترمان صمتهما .

* * *

في الأيام الثلاثة التالية شُغل حاكم بالحفاوة البالغة التي احاطه بها أهالي جيكور . كانت امه سارعت تنشر الخبر :

ـ أُطلق سراح حاكم من السجن .

أخواه عبّرا عن فرحهما به بشكل آخر . كانا منتشيين فخراً واعتزازاً . اخبار مواجهة حاكم للضباط الانجليز . . هو اخوهما . وكان ان أصرّ اخوه الاكبر يجهر باحتفاله . . يضفي على البيت حلّة قشيبة من الانوار الكهربائية مختلفة الالوان .

أهالي جيكور يتوافدون يهنئون ويباركون . الأم لاتني تدور بأقداح العصير والشاي ، تكاد ارضها لا تسعها من شدّة فرحها ، وحاكم مشدوه وسط كل هذه المظاهر .

« هل أصدق ؟! »

يسعده انهم يحتفون به ، ويخجله انه غير ما يعتقدون .

« كأنني أُخادعهم! »

صبيحة اليوم الرابع ـ وكانت مظاهر الاحتفال والاحتفاء قد كفّت ـ جالسته أمه مُبدية رغبة مساررته .

ـ ما سبق وحدث حدث ، لا أريد الخوض في تفصيلاته .

من لهجتها أدرك حاكم انها بصدد بحث زمنه القادم .

ـ . . أنا في قرارة نفسي مازلت غير راضية عنك .

آثر يصغي .

ـ . . أدري ان كل الذي حدث كان بسبب الحياة المنحرفة التي عشتها .

صوتها بعتب وألم عميقين :

ـ فيما يخصني لا اعتقد اني توانيت بشأن تربيَتك .

اردا يخفف عنها .

ـ اناتغيرت . ما عدت مثلما كنت .

ـ أدري .

قالت دون اقتناع حقيقي ، واكملت :

ـ . . لكي اطمئن فعلاً وارضى عنك ، اريدك تعلن توبتك .

تذكّر سميرة وحليمة :

« هو زمن التوبات! »

الألم يعتصره من صدره .

« لا خبر! »

وحتى ينهي موقفه مع امه ويريحها قال :

ـ مستعد اعلنها الآن . . ان شئت!

فمها بابتسامة تنم عن ذكاء فطري .

ـ التوبة لا تتم هكذا!

حاكم باحساس الوقوع في الفخ :

ـ كيف تتم اذن ؟!

* * *

حاكم يتمهّل في حديثه ، فيستحثه سليمان :

ـ تمت توبتك ؟

الاخر يتسجيب مُفلتاً ضحكة باهتة :

ـ تمت .

ولأنه لا يواصل مباشرة ، يبادره هادي بما يقرب من نفاد الصبر :

ـ كيف ؟!
حاكم يسلّم ، يوضح على طريقته :
ـ طلبت مني اغتسل .
الآخران يصغيان .
ـ شرطها الاول . . أكون طاهراً .
سليمان يتدخل :
ـ والثاني ؟
ـ اذهب بصحبتها الى مسجد جيكور .
مزيد من الاهتمام يرتسم على وجه هادي .
ـ شجعتني قائلة . .
أفاد حاكم ، وأنتم :
ـ . . لا أحد سيعرف خبر توبتي باستثنائها هي وإمام المسجد .
هادي يحرّك رأسه دلالة التفهم .
ـ . . اكتشفت انها اتفقت مسبقاً مع إمام المسجد .
يصمت لثوان مستجمعاً ذاكرته .
ـ . .الوقت ضحى ، ليس من أحد في المسجد سوى إمامه ، الذي استقبلنا بترحيب حار . امتدح لي نيتي في التوبة . . قال . . ان الله سبحانه وتعالى سيقبلها توبة نصوحة .
يواصل بطعم الحنين :
ـ . . أمي وقفت تراقب . إمام المسجد طلب مني أصلى ركعتين .
السؤال على طرف لسان هادي :
ـ صليت ؟!
ـ كانت المرة الاولى . .
ينقل عينيه من هادي الى سليمان .
ـ . . لا اخفي عليكما كنت مرهوباً . الرجل أمَ بي . صوته وهو يبسمل

ويحوقل ضاعف من شعوري بالرهبة .

سليمان يعقّب بصيغة دالة :

- زمن التوبة فعلاً!

حاكم يكمل :

- بعد اداء الصلاة جاء بالمصحف . أشار ان امدّ كفي اليمنى ، اضعها مفتوحة الاصابع على المصحف ، ثم طلب مني اردد من بعده . .

يصمت . فيستحثه سليمان :

- رددت ؟

تند عنه زفرة مغفلة .

- ادركت الاّ مجال للتراجع ، وادركت ان اقسمت التزمت .

هادي بفضول واضح :

- أقسمت ؟!

* * *

وهما في طريق عودتهما من المسجد قالت له امه :

- الآن فقط رضيت عنك .

صوتها يجسّد إيمانها المطمئن ، واضافت :

- اعرف انك لم تكن في يوم من الايام متديناً ، لكني واثقة انك رجل ، وستحترم . .

لم يسمع حاكم بقية كلامها . شعور طاغ بالفقدان بدأ يشمل عليه كيانه . احس بنفسه يُبتر فجأة ليلقى هكذا بعيداً عن حياته التي ألفها .

حزنه يتنمل في صدره . احمد . سميرة . حليمة . . أُلفة العائلة . الحب . الصخبة . الصداقة . الوفاء على طريقة اهله . الارتباط بوشائج نابعة عن داخل .

يدري انها ظروف خارجة عن الارادة . يدري ان متاهة ما تفصله . يدري ان الانسلاخ يعني الغربة . . بيد ان إمكانيات العودة واردة . ان لم يكن

اليوم . . غداً . . بعد شهر . . شهرين . . سنة ، اما والعهد المبرم مع امه . .

«ـ . .انك رجل وستحترم . . »

* * *

ـ احترمت ؟! . . أم لا ؟!

ـ ضمن ما هو ممكن .

ـ بمعنى ؟! .

ـ لم اقرب الخمر . لم العب القمار . لم اعاشر اصدقاء السوء .

ـ حتى متى ؟

ـ حتى الآن .

ـ معنى هذا انك . . .

فيختصر عليه حاكم :

ـ في الاشهر الاولى شغلت بحياتي الجديدة كلياً . بعدها منحت نفسي حق البحث عن سميرة .

ـ وجدتها ؟

ـ لا .

اجاب على سؤال هادي ، واستطرد :

ـ بقي الامل اني حالما أجد أحمد . .

ـ وجدته ؟

ـ بعد حوالي السنة .

اجاب على سؤال سليمان ، واتم بنغمة حزن :

ـ لم يكن احمد الذي عرفته . .

صوته يتعمق حزنه :

ـ . . كان هزيل الجسم ، وكان هرم فجأة ، الشيب والتجاعيد . كانت ذراعه اليمنى باقية معلقة الى رقبته ، مشلولة . كان بثياب قذرة . .

الغصّة احياناً تأتي عفو الخاطر .

ـ احمد لم يعرفني بادئ الامر . .

هادي مستغرباً تماماً :

ـ لم يعرفك ؟!

ـ كان أدمن الخمر ، فأصيب بحالة غريبة من شرود الذهن ، وعدم القدرة على التركيز .

سليمان يتذكر ، فيسأل :

ـ ماذا عن حليمة . . كانت معه ؟! . . أم لا ؟!

لتأتي اجابة حاكم سؤالاً مؤنباً :

ـ ماذا عني انا . . كنت مع احمد ؟! . . أم لا ؟!

١٤

من بين ما كان حاكم قاله :

ـ انا غير آسف على الحياة التي عشتها .

جميل ينتهي الى نتيجة كهذه ، فماذا بشأنك انت ؟!

الالتحام المحسوس بالحياة يتأتى من خلال مسؤولية الاختيار . اختيارك لنمط حياتك يعني انك عادل مع نفسك ، فان فعلت ، لا بأس بالنتائج المترتبة . . حاكم عرف يختار . . فكيف انت ؟!

يا سليمان . . وانت تعيش حياتك عشتها برصيد مجيّر لحساب الآخرين . . حتى اذا ما اتخذت اول قرار لك :

« أنفك عن البيك لابدأ أختار! »

جرى اعتقالك لجريمة تجهلها .

« من مسؤول عن ماذا ؟! »

هادي أُعتقل متلبساً بمتسللين ايرانيين . حاكم اعتقل . . اسلحة مقر الحرس . . اما انت . . على الهامش من الاحداث ، على الهامش من حياة الآخرين .

عام أقل ، عام اكثر . الاحداث تتوالى في الخارج وانت بزمن مهمل معلّق الى مالانهاية . الاهل والاصدقاء هنا ، في البصرة ، ولا إمكانية تواصل . ايام كنت في الكويت ، كان البريد ، وكانت نجوى هي التعويض الأروع .

وأنت ضمن احدى حالات حزنك قال لك هادي :

ـ وضعك أفضل من وضع غيرك!

حين تطلعت فيه أضاف :

ـ انت مشتبه بك .

اجتهاد معقول . ولأنك بقيت ملازماً صمتك ، واصل :

ـ انت ، في اي لحظة ، مؤهل يُطلق سراحك .

ـ هادي!

رددت عاتباً عليه إيغاله في الحلم ، فجاء التعقيب من حاكم :

ـ في الحياة كما في لعب القمار كل الاحتمالات غير القابلة للحدوث قابلة للحدوث .

هل تلتفت الى حاكم تعتب عليه مقولته ايضاً ؟ . . رغم كونه يصغرك عشر سنوات ، الاّ انك تجزم انه يكبرك خبرة . . طبيعة الحياة التي عاشها ، المغامرة ، الاقدام ، التنوع . .

« تيأس أولا تيأس ذلك أمر يخصك . . انما انت مسؤول تعيش حياتك! »

من مقولاته التي بقيت عالقة في ذاكرتك . . حين أبديت له دهشتك ازاء الشكل الصدامي لبداية علاقتك بنجوى قال :

ـ المرأة لغز ، اذا عرفت كيف تحلّه فقدت احساسك بسحره .

هادي لم يعترض ، ومن جانبك وددت تقول :

ـ « نجوى غير! »

لكنك آثرت لا تقول خشية ان يفحمك قوله :

ـ « انت غير ! »

وكلمة غير الاخيرة تعني :

« انت جاهل بأمور النساء! »

ستضطر توافقه رأيه ، لأنك طوال حياتك ـ ماقبل نجوى ـ اقتصرت علاقاتك على العنصر الرجالي . المرأة بالنسبة اليك كائن كمالي رقيق سريع الكسر ، وان

تقيم نمط علاقة معها يعني تجرّدك للنهوض باعباء مسؤولية لا طاقة لك بها .

امك وحدها انفردت تحتل مساحة الذاكرة تجاه الجنس الآخر . كنت تُدهش حدّ الحزن من ثقل الاعباء المنزلية التي تؤديها طائعة ، وتستغرب قدرتها على الانجاب .

عزّ عليك تقترن بامرأة ما ، وترضى لها تلعب دور الحلقة المفرغة والمجهدة في الوقت نفسه الذي رُصد لأمك .

ايام الجامعة كانت ببعض الزميلات . كن يشكلّن عالماً قائماً بهن ، وكنت من خلال تماسّك العابر تشعربمدى خصوصية هذا العالم وانغلاقه .

نهج حياتك برمتها ارتبط بهاجس العمل . وما دار في بالك وانت تعطي وقتك كله للعمل ان شيئاً اسمه الحب له وقته الخاص به ايضاً .

* * *

« صباحك الخير »

ايام الكويت ـ بالنسبة اليك ـ بصباحات متشابهة ، متكررة . الاستيقاظ المبكر . الذهن ـ مع لحظات الصحو الاولى ـ باستذكار المهام والاعمال واجبة الانجاز . الاستعداد السريع للمغادرة باتجاه مقر العمل .

« يوم آخر يضاف »

كنت على استعداد دائم ترتجل التفاصيل الصغيرة لحياتك اليومية كيفما اتفق مادامت مقتضيات انجاز العمل قائمة .

« الدين ـ تجاه البيك ـ واجب السداد »

فكرة ان تدخل مكتبك فتصادف وجود امرأة جميلة تقاسمك اياه احدثت تعديلاً غير مقصود على تفاصيلك اليومية الصغيرة . صرت تهتم تتطلع الى وجهك في المرآة تتريث عندها متسائلاً مع نفسك :

« كيف لعين الغير ان ترتاح ؟! »

قلق الثياب والمظهر اللائق ، همٌ لذيذ ما كان لك تعرفه من قبل .

« صباحك الخير »

الوجه الانساني الرائق بابتسامته الأليفة الواثقة .

* * *

شعوره بالحيرة يحفزه :

ـ ما الذي يمكن قوله بعد ؟!

فيأتيه تعقيب حاكم :

ـ المهم ان تواصل!

هادي يلاحق حديثهما مرهفاً اذنيه .

ـ جمال نجوى لم يكن صارخاً . كان أليفاً هادئاً ، كلما أمعنت النظر فيه كلما اكتشفته اكثر ، ادمنته اكثر .

ـ من غير تعليق .

قال حاكم ، فتطلّع اليه هادي بنظرة عاتبة .

ـ تكامل الداخل والخارج . مقدرة سريعة على التعلم . ذاكرة قوية ، مع شخصية رصينة ناضجة ، مؤهلة تكتسب ثقة الآخرين واحترامهم .

ـ انت تحبّها!

ردد هادي كمن يحدّث نفسه ، في الوقت الذي افلت فيه حاكم ضحكة قصيرة معقباً على ماقاله سليمان :

ـ عين الرضا . .

سليمان يتم وكأنه لم يسمعهما :

ـ اسبوع واحد ، عرفت نجوى خلاله تلم بتفاصيل عمل الشركة ، وعرفت تقيم علاقات عمل ودودة مع غالبية العاملين .

عيناه تروحان بعيداً .

ـ ضحى يوم الخميس من الاسبوع ذاته . . لدى استغراقنا بترتيب اوراق احد مشاريع الشركة توقفت نجوى عن العمل فجأة . اكتسى وجهها بانطباع من اسى شفيف . تطلعت اليّ . شفتاها ترتعشان . كانت تهمّ تصرّح بأمر ما يحزنها . .

يصمت برهة قصيرة . ثم يواصل :

ـ . . وقتها تملّكني شعور طارىء بالفرح . .
حاكم يقاطعه مستغرباً :
ـ تفرح لحزنها ؟!
هادي يوافق بهزة من رأسه . سليمان يجهد يجد التعبير المناسب .
ـ هو نوع من التفرّد . نوع من التميّز . ان اكون أنا وأن تكون هي وسط إنغماسنا بالعمل فتتوقف لتخصني بشيء ما يعتمل في داخلها . .
يحاول يجد تعبيراً اكثر مناسبة .
ـ . . هذا الاقتراب العفوي الدافىء . .

* * *

فرحك بها ان تساررك يمازجه تهيبك .
ـ ماذا ؟
سألتها تشجعها تبوح . تضيّق من فتحتي جفنيها .
«لعلها فكرت تحجم! »
لكنها رددت حائرة :
ـ لا أدري!
شعرها يلامس كتفيها . تحستك اكثر قرباً منها . تحستها قريبة منك اكثر .
ـ ماذا ؟!
لهفتك وقلقك يتمازجان . لو كان الامر بيدك لأخذت كفّها تضمها بين كفيّك .
« تحدثي! »
ويصلك صوتها :
ـ كنت أثق باحكامي على الناس . .
كلماتها تبدو كما المبعثرة . جملتها باقية معلّقة مفتوحة على ما بعدها ، لو كان الامر بيدك لأخذت كفها . .

ـ والآن ؟!

سؤالك يراوح ضمن مساحة قلقك . الخبرة والموقف . . كلاهما جديد عليك . عمرك لم تتعرض ، وعمرك لم . . ليجيء استطرادها يباغتك :

ـ هل تقبل اعتذاري ؟!

كلماتها كانت تعثّرت بفمها . الإنشداه يأخذك .

ـ اعتذارك!!

شفتاها تعودان تختلجان .

ـ عما بدر مني قبل التحاقي بالعمل!

قالتها وكأنها تسارع تتخلص منها . المعنى يشملك . فرحك يشملك . الاسبوع الذي مرّ ، وانشغالك اللذيذ بوجودها معك شغلك عمّا قبل . لو كان الامر بيدك . .

* * *

السرداب يستكين . ساعات ما بعد الغداء .

ـ في البدء كانت لهفتي ان يصل البيك اليوم قبل الغد . يتسلّم مهام شركته . . تواجد نجوى ادخل تعديلاً على زخم لهفتي للمغادرة . اصبح لساعات العمل بعدها الآخر .

ـ سحر الانثى!

ردد حاكم ، في الحين الذي واصل فيه سليمان :

ـ كيف لكل السنوات السابقة لوجودها مرت دونها!

يفكر برهة قبل ان يضيف :

ـ يبدو ان الاحساس بفقدان الشيء لا يكتمل الآ من خلال معايشته .

حاكم يعقد حاجبيه ، كمن يزن كلمات محدّثه . يقول :

ـ من غير تعليق!

هادي ينقّل بين الاثنين نظرات دالّة على الدهشة .

* * *

« سليمان! »

لها نغمة صوتها المتميّزة وهي تنطق اسمك . هل ان داخلها يعتمل بمشاعر معينة تجاهك كما هي الحال معك ؟!

الحب عاطفة غريبة عليك . قبلها لم تكن . . معها بدأت بالأُلفة . الثقة . الاعجاب . احتياج بشري للمسارَرة .

« سليمان! »

وفي ضحى يوم ما ، وعلى اثر سؤال عابر منها ، طفقتَ تُحدثها عن اصدقائك . أصغت اليك باهتمام لم تألفه عند سواها . مصطفى . برّاك . جميل . كلّ الآخرين . عقّبت على كلامك قائلة :

ـ الصداقة هي العاطفة البشرية الاسمى .

توقفت مع نفسك عند كلماتها .

« البعد الآخر! »

انت ـ في دخيلتك ـ توافقها رأيها ، لكن السؤال الذي شغلك حدّ الحزن :

« أهي اشارة صريحة منها انها تكتفي منك بالصداقة وحدها ؟! »

شهر أول مرّ على تواجدكما . الجرأة شيء لا تعرفه انت . عمرك لم تقترب من الاشياء حد المغامرة . كنت تنتظر لغيرك ان يبدأ . تعوّدك للغير يتخذ قراراتك .

شهر ثان مرّ . المبادرة بمستوى الاقتحام شيء لا علاقة لك به . تدري عن حالك انك تكتفي بمناقشة الامور في داخلك . تعلن رفضك او قبولك دون صوت مسموع . هكذا انت . هكذا تشكّلت .

« سليمان! »

وحين بادرتك هي سألتك عن أهلك . أمك . أبيك . الصيغة العائلية لك . كانت فرصتك كي تفرد ذاتك لها .

حدثتها عن جانب من طفولتك . لم تنس القصر ولا الدروازة . حدثتها عن أبيك وعلاقته بالباشا . توقفت طويلاً عند مكبس تمور السعدون .

البيك . مواصلة تعليمك . مكتب السيد حامد . زميلك الهندي فيليب .

« مات! »

استمعت اليك باهتمام مشوب بالحزن . استغربت عليك شكل ارتباطك القائم بالبيك .

صرّحت لك :

« انت مخلص اكثر من اللازم!

قلت لها :

ـ اصدقائي ـ بدورهم ـ أبدوا هذه الملاحظة .

ـ فيما يخصني . .

قالت ، وأتمّت

ـ . . احترم هذا الجانب فيك .

الدماء تتراكض فيك ، وصوتها يواصلك اكثر :

ـ تلك احدى الخصائص التي تميّزك عن سواك .

دماؤك تضطرم فيك . يشملك تيار من فرح آسر .

« نجوى! »

وما كان لك تعرف تقول ما يناسب الموقف .

* * *

ـ ثم ماذا ؟!

تساءل هادي ، فأجابه سليمان مستذكراً :

ـ بدأت اعاني نوعاً من اللوعة خلال الساعات التي اكون فيها بعيداً عنها .

الدهشة مع حاكم :

ـ رغم علمك بأنك ستراها عن قريب!!

ـ رغم علمي .

حاكم يبدي رأيه :

ـ أنت مثالي اكثر من اللازم
سليمان يستوضح :
ـ مثالي ؟!
الاخر يجيب السؤال على طريقته :
ـ انالم أمر بتجربة حب كهذه .
سليمان يرد الصاع على طريقته :
ـ انت عملي اكثر من اللازم .
هادي وقد نفد صبره :
ـ المهم!
فتأتي استجابة سليمان يخالطها التذكار :
ـ وانا بعيد عنها أفكر بالذي سأقوله لها . أصوغ الكلمات جملاً . أرتّبها . أتدرب على القائها . .
عينا هادي تلتمعان مشاركة .
ـ وحين تكون معها ؟!
التذكار يتعمق في صوته اكثر :
ـ انسى كل الذي أزمعته . انشغل بوجودها حدّ الغنى . يكفيني تكون قريبة منّي .
السؤال عن حاكم :
ـ ولم تصرّح لها ؟!
سليمان يختصر اجابته :
ـ لم .

* * *

من بين ما استجد لديك من عادات انك صرت تكره ايام العطل عامة ، لانها تفرض عليك نوعاً من الانعزال الاجباري داخل جدران بيتك ، بعيداً عن نجوى . الحياة بمنحاها الواقعي المعتاد تتواصل . الواقع له شروطه القاسية

احياناً . مطلوب منك تعتاد ، ومطلوب تتظاهربالرضا ، وعليك تكف تبحث عن اجابة للسؤال الذي يشغلك :

«الحب ـ كما يجب يكون مصدر قوة ـ فلماذا ، والحال معك ، مصدر ضعف ؟!»

في ايامكما الاولى . . اسابيعكما الاولى ، كنت تعرف تُحدق الى نجوى في عينيها وانت تحدثها او تستمع اليها ، دون ان ينتابك ما يريبك او يقلقك . . الأيام التي مرّت . . الاسابيع . .

«نجوى!»

وما عدت تقدر تحدّق لها في عينيها ، صرت لماتلتقي الأعين تنتابك رعدة داخلية جيّاشة تبدأ لذيذة بشكل خارق ، لدرجة تحس معها وكأنك عاجز عن احتمالها ، لتتحول الى ما يشبه الاضطراب جرّاء جيشان دمائك في كامل كيانك ، فتسارع تبعد عينيك خشية انكشافك .

«من أين يجيء الضعف ؟!»

ويحيّرك ان عينيها في لحظاتكما القصيرة تلك تتسعان عليك ، تلتمعان بسحر أخاذ . تصرّحان بمعان عديدة ، وغامضة في الوقت نفسه .

* * *

ـ معنى هذا انها تحبك!

قال حاكم ، فردّ عليه سليمان متسائلاً :

ـ كيف لي اثق ؟!

هادي يهز رأسه دلالة انحيازه لما قاله سليمان .

ـ للمرة المئة ، أو الألف . . فكرت استوقفها . .

ردد سليمان ، واكمل :

ـ . أمسكها بكفّي من كتفيها . اواجه عينيها . . أُحبك!

حاكم بما يشبه التأنيب :

ـ لكنك لم تقدم!

سليمان يمسك زفرة كادت تفلت منه .

ـ الخوف . . ان تصير مفاتحتي لها سبباً في فرط شكل ارتباطنا القائم .

يصمت برهة .

ـ . . كنت احسب حساب الرد الذي قد يصدُر عنها . . نحن زملاء يا سليمان ، وانا اعزّك واحترمك . . بناءً عليه . .

يترك جملته معلقة ، ليواصل بعد قليل :

ـ . . كنت جزعاً ازاء فكرة ان تغيّر موقفها منّي . تفهم عني اني طمعت بها كأنثى ، فتستبدل عفويتها اللذيذة باخرى مصطنعة .

حاكم يعلن احتجاجه :

ـ الحب شيء ، والطمع بمعناه الدارج شيء آخر!

سليمان يتطلع الى محدّثه بحيرة ، مما يؤهل الآخر يضيف متسائلاً :

ـ الامر الثاني... ما أدراك ان المرأة لا يسعدها شعورها انها مرغوبة من الرجل ؟!

هاجس من الضيق في رد سليمان :

ـ هذا رأيك .

حاكم يواجهه :

ـ ورأيك أنت ؟!

يُفلت سليمان زفرة حائرة .

ـ كنت بلا رأي .

تسود ثوان من الصمت المتوتر ، يعقبها هادي بدعوة تتضمن فضوله :

ـ المهم . .

* * *

المناسبة يوم عمل يسبق عطلة أحد الاعياد .

« ثالثة ايام متتالية »

اليوم الواحد غير محتمل ، فما بالك بأكثر!! . . ساعات دوام ذلك اليوم

تكاد تنصرم ، ليس امامك غير ان تتظاهر بالارتياح ، وعليك قبل الانصراف تتذكر تبادر نجوى :

« كل سنة وانت طيبة »

كنت هممت تفعل لولا ان سبقتك قائلة :

ـ عطلة العيد تبدأ غداً .

صوتها بهامش من أسى بيّن ، وأتمت :

ـ ثلاثة أيام .

رغبت تستشف ما يدور في ذهنها لحين أكملت :

ـ . . مدّة طويلة!

كأنها لسان حالك ، ومن غير ترو مسبق أصدقتها :

ـ طويلة جداً!

حدّقت اليك في عينيك ، حالة جيشانك توشك فيك . خيّل اليك انها تهدف تسبر اغوارك .

ـ كيف ستقضي ايام العيد ؟

سؤالها ينكأ الجرح .

ـ كما أقضيه عادة .

تظل تتطلع اليك ، فتستطرد موضحاً .

ـ أشغل وقتي بالقراءة .

سحابة من قلق أسيان تطوف في وجهها . بدا عليها انها تزمع تقول شيئاً . تردد . طائر ما يخفق بجناحيه في صدرك ، لكنها سرعان ما تحسم ترددها . تقول وكأنها تطوّع ارادتها :

ـ كل سنة وانت طيب!

هل تقول لها :

« ليس هذا ؟! »

* * *

ـ انشغال الذهن . . ما الذي هدفت نجوى تقوله ؟! . .

تطلع في وجه حاكم :

ـ لماذا اللوعة ؟!

حاكم يبتسم .

ـ حين يجيء الحب متأخراً يكون محيراً .

انطباع لاستغراب يرتسم على وجه هادي ، وسليمان يعقب بتسليم :

ـ ربما .

يصمت برهة قصيرة .

ـ ليلة العيد مرت متباطئة . . لن أراها صباح غد . .

هادي وقد نفد صبره :

ـ وبعد ؟!

سليمان يطمح يختصر :

ـ نهار اليوم الاول للعيد مرّ ثقيلاً . . في الاعياد تلحّ ذكرى الاهل والاصدقاء . الطقوس المعتادة . .

تند عن هادي زفرة ضيق . هو في غنى عن تفصيلات سليمان . حاكم يؤكد موقف هادي بهزة من رأسه .

حركة السيارات ـ ما وراء الساتر الخشبي تتصاعد ، الشمس تؤذن تغيب . الصحبة وهذا الاهتمام العفوي الذي يبديه هادي وحاكم . احساس سليمان بالالفة البشرية المتحققة يتصاعد . الكويت . . نجوى . . العيد . . الذكرى ، والعودة المختزلة لزمن مختزن يعادل زمن الاحباط الماثل .

العيد في الكويت . لو كنت في البصرة لعرفت كيف تحتفل ، امّا وانت هنا وحدك فليس أمامك غير ان تشارك من خلال سماع المذياع ، ومحاولتك إشغال نفسك من خلال انجاز مهامك المنزلية . عن الليل الآتي . . تدري انه أشد قسوة . لولا بريد اصدقائك الاخير . . حمل اليك ديوان شعر .

« بامكانك تقرأ! »

مع الساعة السابعة مساءً يرن جرس التلفون .

« من اين ؟! »

لو كان اليوم يوم خميس لقلت :

« البيك »

تضع كتاب الشعر جانباً . خطاك متثاقلة .

ـ الو!

« ماذا ؟! »

صيحة فرح جيّاش تنبعث في داخلك . هل تصدق ؟! . . نجوى على الجانب الآخر من الخط تنطقك :

ـ سليمان!

هي المرة الاولى في عمر معرفتكما تهاتفك ، وهي المرة الاولى لك في الكويت تستقبل هدية عيد . . صوتها .

ـ نجوى!

كيف تقدر تعبّر لها عن عرفانك ببادرتها ؟! . . تسمعها تقول لك تسألك :

ـ وحدك ؟

صوتها بإيحاء متآلف .

ـ وحدي .

سؤالها اللاحق بإيحاء اكثر تآلفاً :

ـ ماذا تفعل ؟

ردك العفوي :

ـ اقرأ .

صوتها يلح كما فرح الاطفال :

ـ ماذا تقرأ ؟

ـ شعر .

لهجتها ببحة موحية :

ـ ما رأيك . .

تبقى سؤالها مفتوحاً . لهفتك تخرسك ، ليصلك اقتراحها بعد تردد قصير حاوياً طعم المغامرة :

ـ . . نقرأه معاً!

* * *

وانت في طريقك الى بيتها ترددت .

«ان تكون وحدها في البيت . .»

الفكرة بحد ذاتها بدت لك خطيرة . فرحك بها جعلك تواجه نفسك وكأنك ، في حالة تلبس . مشكلتك انك لم يسبق لك . .

حين وصلت مدخل بيتها وقفت عنده حائراً . . تَقْدم تَرفع يدك تَطرق تُعلن وصولك ، أم تقفل راجعاً! . . لولا بادرتها غير المتوقعة . .

ـ اهلاً!

قالتها حميمة لدى فتحها باب بيتها ، . صوتها بالفرح المتضمن له ينسيك حيرتك .

ـ كنت وراء النافذة . . ترقبت وصولك!

تقول لك مُفسحة طريق دخولك . الهواء القادم من الداخل بعبق خاص .

* * *

معايشة الحدث بحرارته الآنية شيء ، واستعادته بقصد روايته شيء آخر . اللحظة حين عشتها ، والذكرى لدى استرجاعها . .

حاكم وهادي يصغيان اليك . يعقّب هذا أو ذاك هنا أو هناك . يدلي أحدهما برأي ما ، ويطلع الآخر باستنتاج معين . الاستجابة والمشاركة . .

ـ أنت متخلف في الحب!

قالها حاكم مرّة ، واعقبها ضحكة ودودة . رغبت تقول له :

ـ ليس في الحب وحده . .

حاكم أو هادي ، كلاهما لا يدري انك اختصرت جملة هائلة من تفاصيلكما انت ونجوى ، بانفرادكما كشخصين ، أو بارتباطكما كعلاقة .

ـ في الحياة او الحب الاقتحام هو الفصل الاساس .

حاكم لأحكامه . ونجوى ـ كما خبرتها انت ـ نبتة رائقة ـ عرفت ولست تدري كيف ـ تعايش مناخات الكويت .

من احاديثكما المتواترة ـ ما قبل لقاء العيد ـ فهمت عنها انها من جبيل لبنان . أبوها كان يعمل في احد بنوك بيروت . بناءً عليه أكملت دراستها وواصلت ريثما . .

عمها من أوائل اللبنانيين الذين وفدوا الكويت . فني تمديدات خطوط كهرباء ، وما يزال . .

ـ ابي وعمي شقيقان . بقيت لُحمتهما العائلية متينة . .

بسبب من هذا الارتباط أُريد لها تزوج ابن عمها .

ـ كان اسمه غسان . شاء له ابوه يكون مهندساً كهربائياً . .

بعد تخرجه صيف عام ١٩٥٧ جاء مع عائلته الى لبنان . الخطوبة . الزواج . ثم المرافقة الى الكويت .

ـ كوني اكبره بعامين ليس عقبة . هوابن عمي . . كوني لا أحبه لأني لم اكن اعرفه معرفة حميمة ليس عقبة مادام الحب ـ على رأي أمي ـ يجيء بعد الزواج . . بالنسبة لي لا أملك سبباً وجيهاً للرفض .

بعدها كان البيت . وفي الوقت الذي بدأت فيه نجوى تحب زوجها فعلاً لطيبته ودماثة خلقه بَدت عليه عوارض الاصابة بسرطان العظام ، ليتوفى بعد سنتين من مرارة معاناة المرض .

ـ كانت تجربة مريرة . ان ترى الانسان الذي بدأت تعتاد محبته وصحبته وهو يذوى امام عينيك ، وانت تقف حائراً عاجزاً تفعل شيئاً ينقذه او يخفف من آلامه .

كان في بالها ، اثر وفاة غسان ، ترجع لبنان ، لولا اصرار عمها :

«ـ انا أحق بإبوتك من ابيك ذاك!»

قال وأصر ، ولأنه مفجوع بوفاة ابنه الاكبر عجزت نجوى تفجعه ، بأن تصارحه ترفض طلبه .

ـ بقائي هنا في الكويت لأمد ما محدد ليس مصيبة ، المصيبة تتمثل في الفكرة العجيبة التي تعتمل في رأس عمّي . .

عمّها لم يصرّح مباشرة عما يدور في ذهنه . لكن نجوى تعرف . كل الدلائل تُشير .

ـ لست ادري أهي محاولة منه كي يعوّضني فقدان زوجي . . أم يعوّض نفسه من خلال استبقائي عبر صيغة زواج آخر .

ابن عمها الثاني حسّان يصغرها ستة اعوام . مازال يدرس . الفكرة الكامنة في ذهن العم ـ كما تدركها نجوى ـ ان تمر فترة كافية على وفاة غسان . . يكون الآخر انهى دراسته . . زواج . .

ـ لو اعرف كيف يفكرون!!

عمها يحبها ، تدري . . للعم وابن العم اولوياتهما ، تدري . . لكن الامور ـ من منطق نجوى ـ يجب لا تجري هكذا .

ـ ليست مسألة فارق السن حسب ، ليس كون حسان وغسان اخوين ، انما تجربة الزواج والاغتراب ثم معايشة حالة الموت البطيء ، فالترمل . .

ـ أحسّني محاطة بالمشكلة المتوقعة! . . تفزعني فكرة يحلّ اليوم الذي يقدم فيه عمي يصارحني قراره .

احاديثكما تلك كانت متواترة ، وسط انشغالكما بعملكما . كنت تتعامل مع نفسك وكأنك الاكثر هموماً ، ريثما عرفت منها كفايتك عنها .

«الحب في حالاته المتفردة يعني شمولية ادراك الآخر»

* * *

لحظة دخولك بيتها ، حيث البهو ، واجهتك اريكة خيزران . حرج اللحظات الاولى للقاء البيت يختلف عن مناخ عمل المكتب .

ـ سأعدّ لنا شاياً!

قالت مخبّرة ، وانسحبت الى داخل . عيناك تتفحصان المكان . فسحة البهو محددة المساحة . لكنها مزحومة باشياء صغيرة ، معظمها مشغولات يدوية ، في وقت ازدحمت فيه الارض بأصص زرع داخلي .

« ذوق الانثى! »

وهي تدخل بالشاي كانت فرصتك تراها بكامل قوامها . ريّانة كفاكهة بلدها عند نضجها . ثوب رمادي بسيط من قطعة واحدة ، يكاد يلامس الركبتين ولا يلامسهما .

ـ مساؤك الخير!

كنت استعدت نفسك بعدما الفت المكان ، وكانت بادرتها العفوية تجلس الى جانبك على الاريكة ذاتها .

ـ جئت بكتاب الشعر ؟

تسألك . صينية الشاي تستقر على طاولة خيزران صغيرة امامكما .

وأجابتك :

ـ جئت به .

يدك تندسّ في جيبك . تطلع بالكتيب .

« أهو الشعر وحده ؟! »

ساررت نفسك بنفسك . تندّ عنها ضحكة خافتة خجلى ، قبل ان تقول بما يشبه الاعتذار الحيي :

ـ انا أحبّ الشعر ، لكني لا اعرف اسماء الشعراء .

هذا عن خجلها ، فماذا عن خجلك ؟! . . هل ستعرف تقرأ بصوت مسموع ؟! . . فكرة ان تكون وحدها . . وحدك معها . .

« كيف يتأتى لك تجمع ما بين نجوى والشعر ؟! »

تتنبه الى انها ترنو اليك ، تنتظرك تبدأ تقرأ . امكانية التلكؤ غير واردة . تفتح الديوان على أوّله .

ـ «عيناك غابتا نخيل ساعة السَحَر»
تمتد كفّها فجأة تلمس ذراعك .
ـ مهلاً!
تقول لك تستوقفك قراءتك . الكف ـ بملمسها الندي ـ باقية
ـ لم أسمع مثل هذا الشعر من قبل!
لهجتها غنية باعجابها المندهش . تستطرد قائلة :
ـ يعبّر عن حالة حب مختلف!
مساحة ذراعك ـ حيث ملمس كفّها ـ تتنمل نابضة .
«من أين يجيء السحر ؟!»
صوتها يواصلك مشحوناً بفضول لذيذ :
ـ من هو الشاعر ؟
تجيبها ضمن حالة انتشائك :
ـ السيّاب . . هو من البصرة .
فرحة اكتشافها خلل سؤالها :
ـ من بلدك ؟
تومىء برأسك موافقاً . النبضات السحرية تسري عبر ذراعك ، تصعد . لتتجمّع متكاثفة في العمق من صدرك .
«السحر حالة أثيرية!»
ـ إقرأ!
قالت ضاغطة كفّها عند ذراعك ، واضافت :
ـ . . انما بتأن!
تعود تقرأ . الحالة تدمجك . القصيدة تتواصل ، تنمو على الورق من خلال صوتك . تحسّك مأسوراً رهن حالتين . الحب النابض في القصيدة ، وآخر نابض فيك .
ـ «مطر . . اتعلمين اي حزن يبعث المطر ؟!»

ـ تدري!

غمغمتك تقاطعك قراءتك . صوتها برعشة متجليّة .

ـ . . غريب هذا الشعر!

تسمعها تكمل :

ـ . . احسّه يصف حالة عانيتها!

تتحول بحواسّك اليها اكثر . تسمعها :

ـ غسان توفي في الخريف . .

صوتها يختلج بنبرة من حزن شفيف وهي تضيف :

ـ بعد اسابيع من وفاته كنت جالسة هنا . . وحدي . كانت السماء تمطر . .

وجهها باتجاه النافذة . نظراتها تعبر الى البعيد . زاوية عينها تلتمع بدمعة مغفلة . صوتها يتهدّج اكثر :

ـ . . لحظتها داهمتني رغبة قوية لأن أبكي!

كفّها تتهدج فوق ذراعك .

«الحب والسحر حالتان توأم!»

لو كان الأمر عليك ما أقدمت . . لكنّها يدك وحدها ، بفعلها وحدها ، تحركت لتحتضن كفّها النابضة عندك . الاخيرة تختلج ، كما الطائر الصغير ، لتستكين .

«الحب والسحر . . »

تتحول بنظراتها عن النافذة اليك . دمعتها باقية قيد جفنها ، وسؤالها يباغتك :

ـ لماذا اخترت هذه القصيدة ؟!

ولأنك لم تجد ما ترد به واجهتك بسؤال جريء وواعد في الوقت نفسه :

ـ ماذا تريد تقول لي ؟!

عيناها تحوّطانك . كفّها نديّة في لحمة كفّك . لو كان الامر عليك ما

أقدمت . . لكنه صدرك الطافح بك . .

ـ أحبك!

تمتمها فمك ، خيّل اليك انها همستك :

ـ سليمان!

دمعتها التي كانت قيد جفنها . . كفها التي . .

* * *

السرداب وحركة الشارع يستكينان .

«ما الذي تبقى ؟!»

لو كان حاكم أصغى للتفاصيل لعقّب :

من غير تعليق!

ولو كان هادي . . لتطلع فيه بنظرة عتب . . لكنه الليل وهذه المخيلة المزحومة بفوضى ذكريات زمن كان . .

١٥

إقامتهم الطويلة في السرداب علمتهم ان بابه الحديدي يُفتح لمرات ثلاث يومياً ، في أوقات تكاد تكون منتظمة ، ليطل منه شرطي ما . .

ـ الأكل!

اليوم ، والساعة تشارف العاشرة صباحاً ، جرى خرق هذه الرتابة ، حين التقطت اسماعهم صوت المفتاح يعالج بابهم الحديدي . احساسهم بالتوقع يكاد يكتم انفاسهم . عيونهم مشدودة ناحية مصدر الصوت . الفكرة التي قفزت الى ذهن سليمان :

« حاكم مطلوب للمحاكمة! . . وان لم يكن . . هادي »

لكن الذي حدث ان الشرطي وهو يفتح الباب ليطّل برأسه . .

ـ سليمان يوسف!

« من يصدّق ؟! »

المناخ المكتوم للسرداب يتشبع بالصوت . عينا حاكم وهو يبادل نظراته مع سليمان تزدحمان بمعان شتى .

« غير معقول!! »

عينا هادي تزحمان بنظرة جزع وقلق غامضين .

« لماذا أنت ؟! »

صوت الشرطي يخبر :

ـ الضابط يطلبك!

كان قد مرّ على اقامتهم ما يزيد على العام . من شتاء مضى الى شتاء آن ، وعندما نهض متسجيباً لنداء الشرطي ساره حاكم بمؤاخاة :

ـ « شد حيلك! »

* * *

الممر الطويل ـ بصورته المختزنة في الذاكرة ـ لم يعد مثلما كان عليه .

« لعلّه الزمن الذي مرّ! »

اللون الاسود للابواب الحديدية على الجانبين ما عاد اسود تماماً . عوامل التآكل والرطوبة والغبار . . .

الدهان العشبي للجدران صار بلون التراب بعدما تخلّت عنه رائحته النفّاذة . الأريكة الخشبية المحطمة وحدها . .

« الاشياء لها أعمارها . الصور المختزنة في الذاكرة بصيغة تجميد اللحظة . . لكن الزمن بطبيعته التآكلية . . »

أين سليمان من هذا كله ؟! . . لو توفرت له فرصة يخرج . . معارفه وحدهم سيلمسون مدى تآكله مع الزمن .

* * *

عندما مثل أمام الضابط كان الاخير منشغلاً بملف امامه . الملف بورقة واحدة .

« الصحيفة الجنائية »

احساس سليمان بمجاورة نافذة غرفة المكتب المطلّة على الشارع ، حيث الحركة اليومية ما وراء الزجاج ، تمنحه شعوراً بالتجاور على هامش الحياة بنبضها المتدفّق .

« الناس في الخارج لهم . . »

ولا يكمل حديثه لنفسه . كان الضابط رفع وجهه اليه .

ـ ارسلنا بطلبك علّك تساعدنا ببحث حالتك .

صوته باستعداد للحوار .

« من اين لسليمان يساعدهم ؟! »

هذا الشعور الحاد بالظلم الواقع عليه لسبب مجهول لديه .

ـ أنا تحت أمركم!

ردد بصيغة اراد لها تكون مُستعطفة دالّة على استعداد واف للامتثال ، والضابط يوضّح :

ـ احتجازنا للاشخاص هنا له شروطه .

« ما الذي يمكن يقوله سليمان ؟! »

ـ احتجزناك لدينا على اساس وصول اوراق التحقيقات الخاصة بقضيتك .

« هل معنى هذا . . سليمان هو المسؤول عن عدم وصول . . »

ـ أجرينا عدّة اتصالات مع مخفر شرطة ابي الخصيب ، حيث جرى اعتقالك ، هم لا يعرفون عن حالتك غير الكلام المحدود المدون في صحيفتك الجنائية هذه . . حالتك على ما يبدو خارج نطاق الاختصاص . .

« ما المطلوب من سليمان ؟! »

ـ بالنسبة الينا لا يمكننا نبقيك لدينا الى مالا نهاية .

« أهو دين آخر واجب السداد ؟! »

ـ لو تساعدنا . . تسمّي لنا الجهة التي أمرت باعتقالك!

رغب سليمان يقول :

« لو كنت أعرف . . ما . . »

لكن الضابط استطرد :

ـ في هذه الحالة نستطيع الاتصال بتلك الجهة مباشرة ، نطلب منها اوراق قضيتك!

الضابط يتطلع فيه ينتظر ردّه ، وردّه :

ـ هم أخذوني من الشارع!

ـ من هم ؟

ـ لا أعرف!

ـ بأمر من ؟

ـ لا أعرف!

الضابط يفكر برهة . يعود يسأل :

ـ لو ساعدتنا . . توضح لنا طبيعة نشاطاتك السابقة لاعتقالك!

سليمان يفهم على الضابط . يجيب :

ـ ليس لي أي نشاط سياسي .

ثم يضيف موضحاً أكثر :

ـ كنت بعيداً عن العراق سبع سنوات .

الضابط بصوت دال :

ـ نحن نهدف نجد حلاً لحالتك المعلقة!

سليمان يتمتم بعرفان :

ـ أنا ممتن لكم .

الضابط بالدلالة ذاتها :

ـ لديك اقوال معية تدلي بها ؟

ـ لا .

ـ في هذه الحالة . .

ردد الضابط هادفاً ينهي اللقاء ، واتم :

ـ . .نحن مضطرون نرفع امرك الى المحكمة . . رغم عدم استكمال أوراق قضيتك .

سليمان يتردد قليلاً قبل ان يتجرأ يسأل :

ـ متى ؟

الضابط وهو يطوي ملفه يتطوع يجيب :

ـ حسب الاجراءات .

* * *

قال له حاكم :

- من يدري . . لعلك تكون السابق .

فبادره سليمان بضحكة مهزومة .

- السابق الى ماذا ؟!

وأتم بصيغة التساؤل اليائس :

- . . الى المحاكمة ؟! . . السجن ؟! . . ام . .

هادي يتدخل . يقول بثقة :

- كما سبق وقلت لك . . انت مشتبه بك لا غير .

- يعني ؟!

السؤال يصدر عن سليمان . حاكم يجيب :

- مهما كان الظرف . . وضعك يختلف عن وضعنا أنا أو هادي . . انت بتهمة غير منظورة .

سليمان يعود الى ضحكته المهزومة .

- تعبير مناسب!

حاكم يدافع عن وجهة نظره :

- هم لن يصدروا عليك حكماً استناداً للاشيء . أقصى ما يمكن يلجأ اليه القاضي يحيلك الى الاعتقال الاداري .

سليمان كأنه يهدف يفحم محدثه :

- على افتراض اني صدقتك . . وان الذي قلته حدث . . ماذا وراء الاعتقال الاداري ؟!

حاكم يبدو كما المحاصر . يصمت لثوان ، ريثما يجد الردّ :

- تبقى هناك لحين اتضاح حالتك .

سليمان يحاصره أكثر :

- وان لم تتضح ؟!

عينا حاكم تطرفان .

ـ تبقى هناك لحين . .

فيقاطعه سليمان كمن يعتب عليه اجتهاده تفسير حالته :

ـ لحين حدوث معجزة ما . . ثورة مثلاً . . كما سبق وحدث معك ؟!

احساس بحزن ثقيل قاتم يتبدى في وجه حاكم . يردد بخذلان :

ـ ليت الذي حدث معي لم . .

* * *

بعد مغادرته السجن المركزي والسمعة الوطنية الطيبة التي أحاطت اسمه جاء الى حاكم من يُخبّره :

ـ لديك فرصة تعمل مدرساً!

لحظتها ذُهل حاكم :

ـ كيف ؟!

الآخربثقة راسخة :

ـ عليك بها .

أمّه عجزت تعبّر عن فرحها . حلمها الذي لازمها سنوات ثم مات ، عاد وانبعث حيّاً ثانية . ابنها حاكم سيتبوأ وظيفة حكومية .

ـ التدريس له متطلباته .

عبّر حاكم عن استغرابه لمن خبّره ، فأفاده ذاك :

ـ الزعيم أمر بفتح الف مدرسة ابتدائية جديدة . . كل حَمَلَة الشهادة الثانوية مطلوبون للانخراط في سلك التدريس .

حاكم يُبدي حيرته :

ـ انا لست من حَمَلَتها!

الآخر يوضح :

ـ احتفالاً بنجاح الثورة أمر الزعيم بنقل جميع الطلبة الراسبين المتخلفين في سنواتهم الدراسية الى سنة دراسية لاحقة ، او مستوى تعليمي اعلى ، إسوة بزملائهم الناجحين .

حاكم لم يفهم بعد .

- . . انت راسب بامتحان النقل . . اذن انت ناجح ومن حَمَلَة الشهادة الثانوية بحكم القانون الجديد .

حاكم لم يفهم بعد .

- . . عليك تتابع الاجراءات . استخراج شهادة . . تقديم طلب .

فما كان من حاكم الآ ان ردد بتسليم :

- مادمت واثقاً . .

سراحه أُطلق في اغسطس - آب . الاجراءات استغرقت شهرين ، بعدها بأسابيع قليلة إلتحق مدرساً .

نظراً لظروف خاصة بماضيه الوطني إستُثني من التعيين في منطقة نائية ، كما هي حال غيره ، وتُركت له حرية اختيار احدى مدارس القضاء ، حيث انتظم .

* * *

وضعه حينها أشبه بثورة اخرى على مستوى آخر . من صعلوك مقامر . . مُعتقل بجريمة شروع بقتل ضابط انجليزي . . نزيل السجن المركزي . . الى . .

- رجل ولا كل الرجال!

اهالي جيكور ، وما يبدونه من احترام يصل حد الاكبار . أخواه اللذان يكبرانه سنّاً . المدرسة بمديرها ومدرسيها وطلبتها . .

- انت مفخرة لنا!

وكان على حاكم يبذل غاية جهده يبقى عند حسن الظن .

« عليك تكون غيرك! . . وعليك تتسلك! »

- إسمع استاذ حاكم!

همس في أذنه احد المدرسين من الذين أبدوا مساهمة ملموسة في النشاط السياسي ما بعد الثورة .

ـ . . بما انك ساهمت بدور وطني أيام العهد المُباد . .

حاكم يتنبه يصغي . كان ذلك بعد اشهر قليلة من امتهانه التدريس .

ـ . . فأنت أجدر بالمشاركة الآن!

* * *

ـ أيامها كنت بدأت اعاني من احساس ضاغط بالملل والسأم .

هادي يستغرب :

ـ لماذا ؟!

سليمان يتدخل يوضح :

ـ نمط جديد من الحياة لم يسبق له يعتاده .

هادي ـ كما بدا من عينيه ـ لم يقتنع . وحاكم يعود يتحدث :

ـ ساعات العمل في التدريس محدودة . مع الظهر الى البيت . بعدها زمن عطالة مفتوح .

خال من اهتمامات فعلية . حتى صباح آخر .

الآخران يصغيان .

ـ . . معظم المعلمين يقضون امسياتهم في المقاهي . . لست من هذا النمط . . البعض الآخر يهتم يتابع يقرأ . . الصحف ، المجلات ، الكتب . . لست أنا . .

سليمان يهدف يختصر عليه :

ـ فجاء اقتراح زميلك ذاك في وقته!

حاكم لا يتوقف عند تعقيب سليمان .

ـ قبلها اقترحت عليّ امي اقضي وقت ما بعد الظهيرة اساعدها . ازرع خضروات لزوم البيت .

هادي مبدياً استجابة :

ـ جيّد!

حاكم يكمل :

ـ . . حاولت ، لكني لم أحتمل فكرة انتظار الاشياء ببطء . كنت اعتدت الاشياء بسرعة .

* * *

فكان ان جاء اقتراح الزميل في وقته .

ـ الثورة مهددة بأعداء كثيرين ، من الداخل والخارج .

قال محاولاً بعث حماس حاكم ، واضاف :

ـ . . من واجب الوطنيين المخلصين ان يحرسوها . .

هل يحاججه حاكم :

«انا جاهل سياسة!»

الشهرة تعني التمرس . والاسم يعني المسؤولية . واقعة الضابط الانجليزي والسجن . .

«الشعور بالعطالة وفائض الوقت . .»

الفكرة وهي تخطر في البال :

«ما الذي يمنع أُجرّب ؟!»

يعززها ما أفاد به الزميل المعني :

ـ عمل تطوعي مرهون بالمبادرة الشخصية ، غير مرتبط بساعات دوام الزامية ، ولا يقابله أجر أو مكافأة .

* * *

ـ صيغة هذا العمل الطوعي كانت مرتجلة في البدء . مجموعة شباب من المتحمسين للثورة يلتقون بشكل دوري في بيت أحدهم ، ليتوزعوا فيما بينهم مهام أعمال مراقبة ودوريات .

الاسى يتبدى في صوته اكثر :

ـ . . مهمتنا بالدرجة الاولى تتمثل في رصد اعداء الثورة . . رجال العهد المباد ، من اقطاعيين واعوان نوري السعيد الملكيين ، وما شابه . .

يعالج علبة سجائره . يأخذ لنفسه واحدة .

ـ المهمة ليست سهلة . .

زفرته تتضمن دخان سيجارته .

ـ . . بما أنك من أبناء المنطقة ، فأنت مسؤول ترصد أولئك الناس الذين تعرفهم .

يصمت لثوان يتذكر .

ـ . .في أحد لقاءاتنا ورد اسم رجل من عائلة آل ابراهيم بصفته اقطاعياً رجعياً من أعوان نوري السعيد . أنا اعرف الرجل مُذ كنت طفلاً . سكتّ على مضض . كل الذي فعلته إني اعتذرت أشارك في مباشرة امر اعتقاله .

هادي يحرّك رأسه دلالة تفهّمه .

ـ . . ما كنا أيامها اكتسبنا صيغة رسمية معينة . كنا معروفين لدى رجال الشرطة . وكنا اذا حددنا خطورة فلان من الناس استعنّا بهم .

تندّ عنه نصف ضحكة قاتمة .

ـ هذا عن البدء . .

ثم يكمل :

ـ . . مسيرة الثورة . المؤامرات العديدة التي استهدفتها . الثقة غير الكاملة بجهاز الأمن الحكومي الموروث عن النظام الملكي . فكان ان اكتسب جهاز امن ثورة اهمية اكثر بمهام اكبر . صارت لنا مقرّاتنا الرسمية ، بعد ان جرى تزويد كل مقر بعدد كاف من الاسلحة الخفيفة .

سليمان مُشاركاً :

ـ بنادق رشاشة!

حاكم يوافق بهزّة من رأسه ، ويتم :

ـ عدا عن ذلك صار جهاز امن ثورة مستقلاً بتنفيذ مهامه ، ما عادت الاستعانة بالشرطة اثناء تنفيذ الاعتقال أو المداهمة واردة . صرنا نعتقل ، ثم نسلّم الشرطة .

يشرد بذهنه للحظات .

ـ على اثر تحديد المقرات عهدت اليّ ـ تمشياً مع ماضي الوطني ـ مهمة مسؤول مقر قرية باب سليمان .

صوته يعبر عن خذلانه :

ـ . . في يوم من الايام كنت مسؤولاً عمّا يزيد عن الثلاثين من شباب أمن ثورة ، وعن عدد وفير من البنادق الرشاشة .

* * *

مما يذكره حاكم عن مقر باب سليمان . . انه في عصر احد ايامه المزحومة بمسؤولياته الامنية ، تفاجأ بزيارة صديق من أيام الدراسة الثانوية .

ـ كنت ماراً بأبي الخصيب فعرفت انك هنا .

كان تعانقاً بحرارة ، ودعاه حاكم للجلوس .

ـ انقطعت اخبارك منذ سنوات!

قال حاكم ، فأجابه الآخر :

ـ كنت في الشمال . في السلمانية . رجعت قبل اسابيع فقط . تعينت مدرساً في الاصمعي ، البصرة .

الصديق يدعى محمد علي ، ولأنه كردي كان يُلقب كاكا محمد ، بناءً على صداقتهما التي كانت تجرأ كاكا محمد مداعباً :

ـ مازلت متخصصاً بلعب القمار ؟!

ضحك حاكم .

ـ كان زمان!

كاكا محمد يدور بعينيه في المكان . يقول بمعنى الأهمية :

ـ هذا صحيح . . انت الآن مسؤول كبير!

حاكم يضحك مجاملاً :

ـ من أين ؟!

يجاريه الآخر بضحكته .

ـ الحاكم بامرك!

ويبقى في بال حاكم بخصوص لقائهما ذاك ان كاكا محمد وهو يدور بعينيه على محتويات الغرفة شاهد البنادق الرشاشة .

ـ جميل انهم زودوكم بهذا السلاح . .

قال ، واكمل مُبدياً اعجابه :

ـ . . سلاح فتّاك ، عملي ، خفيف الحمل!

معلومات كهذه يعرفها حاكم ، لكن الذي يجهله . .

ـ . . سعر القطعة الواحدة وصل الى اربعماية دينار . .

السؤال الماثل لدى حاكم :

ـ الجيش العراقي وحده زُود بمثل هذا السلاح ، فكيف يباع في السوق ؟!

كاكا محمد يبتسم . يعقّب بصيغة العارف :

ـ كل شيء يباع ، انما ليس في السوق التي تعرفها .

حاكم يفهم عليه ، يهز رأسه موافقاً . ولأن الأمر لا يعنيه من قريب أو بعيد تجاذبا بحديثهما موضوعاً آخر .

مما يذكره حاكم ـ ايضاً ـ عن أيامه تلك . .

. في أمسية خريفية من أماسي البصرة ولدى مروري ـ صدفة ـ ماشياً أمام احد المقاهي لفت نظري وجود رجل زري الهيأة ، زائغ العينين ، بذراع معلّقة الى كتفه ، جالساً على أريكة محاذية للطريق . .

سليمان وهادي يهتمان يسمعان .

ـ . . تملكني احساس أن وجه الرجل ـ رغم لحيته الكثّة القذرة ـ ليس غريباً علي . .

صوته يتعمق في الحزن .

ـ . . اقتربت منه . وقفت امامه . دققت نظري فيه تملكني نوع من الدوار . شعرت كما لو ان الارض تميد بي . هل اصدق ما تراه عيني ؟! . . من ؟! . . هل يمكن لبقايا هذا الرجل الذاوي . .

تأثر حاكم يمنعه من مواصلة الحديث . سليمان يمهله لحظات يتمالك

فيها نفسه ، قبل ان يؤكد معنى في ذهنه :

ـ كان أحمد!

وجه هادي ينطبع بأساه الخاص به . حاكم يستطرد متهدجاً :

ـ ناديته بإسمه . رفع وجهه اليّ . عيناه الغائرتان تضيعان على وجهي . لم يتعرف عليّ . عَصَرَني الألم من صدري . احمد لم . .

* * *

كان يقف أمامه . عنده . على بعد خطوة منه .

ـ انا حاكم يا أحمد!

الغياب في وجه الآخر . جفناه يطرفان . يبدو يبذل جهده . يبحث ذاكرته . يغمغم بصوت حائر :

ـ حاكم ؟

حاكم يُفجع في نفسه . الألم يعصره عند حنجرته ، يقرّب وجهه منه . تصفعه رائحة عرق رخيص .

« مخمور لهذا الحد!! »

يشحن صوته عاطفته :

ـ حاكم! . . صديقك! . . الا تذكرني ؟!

ـ « ها » . .

احمد يتمتم تائهاً عاجزاً يستجمع شتات ذهنه .

ـ صديق!! . . ماذا ؟!

ثم يبدو وكأنه اقتنص فكرة ما .

ـ عندك مائة فلس ؟!

ردد ببراءة طفل . حزن حاكم يخنقه .

« كيف ؟! »

ذهنه يعجز يلم بالحالة .

« الى هذا الحد ؟! »

على الرغم . . لا بد له يتصرف . الرجل لم يعرفه

ـ تعرف حليمة ؟

رد الفعل على وجه أحمد .

ـ حليمة . .

يبدو كما لو انه تنبّه الى وضع ما .

ـ . . زوجتي ؟!

حاكم يبادر يستغل الموقف .

ـ أين هي ؟

حافز من عناد طفولي يتبدّى لدى أحمد .

ـ عندك مائة فلس!

حاكم يُضطر يسلّم :

ـ عندي .

يدسّ يده في جيبه . لابدّ له يتعامل مع الحالة بالصورة الممكنة . كفّه بحفنة نقود معدنية . عينا أحمد تلتمعان بفرحة نهمة . يهم يمدّ يده السليمة يأخذ ، لكن الآخر يطبق كفّه ، محتفظاً بالنقود .

ـ خبّرني عن حليمة أولاً!

احمد يتطلّع اليه بمسكنة تعتصر قلبه ، بيد انه يضطر يواصل :

ـ اين هي ؟

أحمد يستجيب مُستضعفاً :

ـ في البيت .

إحساس بارتياح صغير يبدأ لدى حاكم ـ يقول :

ـ تعال معي!

احمد يحرن صامتاً . حاكم برجاء :

ـ دلّني على البيت!

احمد يظل محرناً صامتاً .

ـ أعطيك هذه النقود!

احمد يحوّل وجهه .

ـ احمد!

ـ . . .

حزن حاكم يتحول الى مايشبه الغضب المشحون بالتحدي . يدس يده تحت ابط احمد . ينهضه قسراً .

ـ تعال دلّني على البيت!

الآخر لا يبدي ايّما مقاومة .

* * *

ـ وانا ارافق احمد باتجاه بيته كنت نهباً لمشاعر شتى متناقضة . الفرح لكوني وجدته . الحزن بسبب الحال التي آل اليها ، القلق من . .

ـ الاهم . .

قاطعه سليمان وأتم :

ـ . . إحساسك بالذنب .

هادي يجيب بتسليم :

ـ هذا صحيح .

نظراته تروح الى البعيد .

ـ عند نهاية زقاق ضيّق مترب من ازقة المشراق واجهنا باب خشبي موارب . كنت بصدد أسأل أحمد ان كانَ بيته ام لا ، حين غافلني وانسرب داخلاً من الباب . طفقت انتظر . مرّت دقائق . القلق . . اختلست نظرة من فتحة الباب . عتمة الممر ، ولا شيء غير ذلك . مفروض بي أتصرف . طرقت الباب . بعد ثوان أطلّ وجه نسائي .

ـ نعم!

* * *

«ليست حليمة!»

لكن أحمد سبق ودخل هنا . استجمع حاكم شتاته .

ـ حليمة موجودة ؟

فكان ان جاءه الرد يستمهله :

ـ لحظة!

ثم غابت في الداخل . اللحظة اشبه بدهر من الانتظار .

« هل يسعفه الحظ ؟! »

وحين أطلت حليمة لتراه ندّت عنها صرخة فرح مخنوق :

ـ حاكم!!

كانت المرة الاولى التي يحدث لها تعانقه ، لتجهش باكية على صدره .

ـ ضعنا يا حاكم!!

هينتها . ثيابها . جسدها الذي أصابه الهزال . التجاعيد قبل أوانها . الـ . .

« ابوك يا زمن!! »

كلماتها المفجوعة تؤكد :

ـ اخوك احمد ضاع يا حاكم!

« كيف يكون الرد ؟! »

بعدما كفكفت دموعها أمسكته من يده .

ـ تعال . . ادخل!

انقاد لها صامتاً .

« كيف يكون الرد ؟! »

واحسّ كما لو انها تهينه حين قالت معتذرة :

ـ سامحنا . . نحن على قدر الحال!

كانا يجتازان عتمة الممر ، وأوضحت :

ـ استأجرنا غرفة صغيرة .

« أنّى له يفكر يعقب ؟! »

البيت كله محدود المساحة . غرفتان صغيرتان . إحداهما بعائلة

واطفال ، والثانية . .

ـ إجلس هنا!

أشارت تدلّه الى طرف حشيّة على الارض .

ـ أين أحمد ؟!

أقلقه الاّ يراه ، فطمأنته قائلة :

ـ سكران طينة . أدخلته الحمام كي يستعيذ بعض وعيه .

قبل ان تسأله مباشرة :

ـ جئت بصحبته ؟

ـ رأيته صدفة . .

لكنها سرعان ما تقطع عليه استرساله قائلة كمن يؤكد أمراً مفروغاً منه :

ـ لم يعرفك!

حاكم يوافقها بحركة من رأسه ، فتضيف :

ـ منذ اشهر صار يُصاب بحالات من شرود الذهن والنسيان .

هل بامكان حاكم يصرّح عمّا تبادر الى ذهنه :

« هو الادمان! »

* * *

السؤال يصدر عن هادي :

ـ وأحمد ؟!

التذكّر له شروطه . القدرة على التذكر لها . . أن تتذكر فتصف بالتفصيل الوافي . .

ـ غادرتني حليمة لتعود به بعد دقائق . .

لماذا الرعشة في الصوت ؟!

ـ . . .يبدو انها اضطرت تصب له الماء البارد على رأسه كي يستعيد وعيه . . شعره كان ما يزال مبللاً . .

عضلات وجهه تنشد .

ـ حين دخل نهضت واقفاً . وقف يتطلع فيَّ مبهوتاً . عيناه دارتا على وجهي . حليمة كانت تقف من ورائه . رأيتها تهم تهمس له في اذنه ، لكنه منعها باشارة من يده السليمة . . ليردد بغمغمة خافتة : «عرفته . . حاكم» . . وعلى الفور التمعت عيناه ببريق ساحر . . لحظتها ادركت انه احمد . . ما يزال . . أدركت انه يتردد يقدم عليَّ فشرعت ذراعي . .

* * *

هادي يلزم صمته الدالّ على طريقته . البصرة تنام . الادارة العامة لأمن البصرة تنام . الصمت وهذا السكون المرتهن لزمن يبدو وكأنه بدأ ليظل مفتوحاً على الابدية .

ما قبل السرداب مجرد ذكريات موغلة في البعد من الزمن المفقود . ما بعده لا يعدو كونه ضرباً من المستحيل . . ويبقى هذا الزمن المابين الماثل .

«ـ ما الذي تعنيه لك الصداقة ؟!»

سؤال سبق لحاكم ان واجه به سليمان . .

حين كان سليمان هناك . . في الكويت ، أو هناك الاخرى من البصرة ، كان للصداقة طعم التآلف والرضا والارتياح والعتب والمساررة والـ . . كان لها طعم كل المشاعر البشرية الرائقة . الصداقة هنا لها طعم البقاء . . طعم الموت حين يكون هدفاً للامتداد في الحياة . . لعله الزمن المختزل . .

١٦

فرحك ان تكون في الحياة خارج السرداب له طعمه المتخثّر تحت اللسان . الالوان بنصاعتها وتداخلاتها . الشمس والظلال . الضوء والظلام . الهواء حين يهب ليحرك سعفة نخلة ما ، أو شجرة . صوت طائر . ضفدع . نباح كلب . . تقول :

ـ لو اتيحت لي فرصة اكون خارجاً لارتجلت كل الشوارع والطرقات . بدءا من انفتاح باب الادارة العامة للأمن على شارع عشار معقل ، انتهاءً بالكورنيش . وقفت هناك . شط العرب بامتلائه الطافح عند قدميك . زوارق . سفن . وامتداد باهر مفتوح على الضفة الاخرى . (التنومة) . عدد قليل من المباني وحشود هائلة من النخيل ، متراصة ، مشتبكة . متداخلة ، هادئة من خارج . نابضة حياة في داخلها .

« باب الهوى! »

لا بد له يأخذ كفايته من الزمن الحي ، وقبله ترغب تعيش التفاصيل التي كنت تمر بها هامشاً ، لتنسرب من بين اصابعك كما ركود الفقدان .

الاسواق النابضة . حيث اللون والطعم والرائحة . تفتح عينيك ترى . تفتح اذنيك تسمع . تشرع صدرك تستنشق . انت لن ترتاد اماكن مغلقة . شبعت انغلاقاً ، لن ترتاح على سرير ، أُتخمت نوماً . تريد ارتجالاً رائعاً دون ارتباط

محدد بوقت او مكان . تريد اقتحام الحياة من خلال نبضها بحضوره المتوتر ضمن التحام اللحظة القائمة باللحظة التي تلي . . هل ؟! . . أيام السرداب والضابط حين علّق مصيرك :

«ـ حسب الاجراءات»

التوقع ان يصار الى طلبك بعد ايام . . اسابيع . . وما كان في الحسبان يُفتح باب السرداب ضحى ، ليطل منه رأس رجل شرطة مرسلاً صوته :

ـ هادي جواد!

* * *

ـ من ؟!

هادي يفاجأ . ينتفض .

ـ أنا ؟!

يردد مستغرباً اسمه على نفسه ، والشرطي ـ من أعلى السلم ـ يخبّر :

ـ الضابط يطلبك!

ذهوله يشمله .

ـ لماذا انا ؟!

حاكم يهدف يهدىء من روعه :

ـ اجراءات روتينية .

يتطلع في وجه حاكم بعينين زائغتين .

ـ ما الذي يريدونه مني ؟!

صوت الشرطي يلح :

ـ اسرع!

ـ لو عادوا يحققون معي!!

حاكم يجزم :

ـ التحقيق ذاك خلاص . .

هادي يدور حول نفسه ، بمحاولة يائسة لتأخير لحظة التحاقه بالشرطي

أعلى السلم .

* * *

المفتاح يدور في اقفال الباب . هادي غادر . حاكم وسليمان يتبادلان نظرات قلقة ، قال حاكم بعدها :

ـ يبدو انه تعرض لتعذيب قاس خلال التحقيق!

سليمان لا يجد ما يرد به . بعد دقائق معدودة فتح الباب ثانية ، ليعود هادي بوجه مأزوم ، وعيون منطفية .

ـ لم تتأخر هناك ؟!

هدف حاكم يستدرجه . هادي لا يستجيب .

ـ قابلت الضابط ؟

هادي لا يستجيب مباشرة . يتجه الى سريره . يجلس على طرفه . نظراته بين قدميه . تسود لحظات صمت متوتر ، يغمغم بعدها بصوت غائر :

ـ محاكمتي غداً!

تبادل سليمان وحاكم نظرات فارغة . الخبر ما كان متوقعاً :

« هادي قبل غيره . . لماذا ؟! »

* * *

حين وصلت وجبة الغداء رفض هادي يشارك .

ـ لا داعي لهذا الجزع!

ردد سليمان عاتباً ، دون ان يظفر باجابة من هادي .

ـ المحاكمة امر لا بدّ منه!

قالها حاكم بمحاولة للتخفيف من وطأة الموقف ، لكن الآخر بقي ملازماً صمته ضمن حالة من الضياع وشرود الذهن .

« اقدار مكتوبة! »

ظل يرددها بينه وبين نفسه بصوت مخذول بين الحين والآخر ، ريثما وصلت وجبة العشاء .

ـ كلنا نأكل ، أو كلنا لا!

قالها حاكم حاسمة ، فأكّدها سليمان بهزّة من رأسه . عينا هادي تتنقلان على وجهيهما بحيرة مستضعفة عاتبة .

ـ لو أقدر!

غمغم بقهر ، فاصرّ عليه حاكم :

ـ حاول!

* * *

وهم يتحلقون حول وجبة العشاء قال حاكم لهادي :

ـ لعله من الافضل لك ان يُحسم أمر قضيتك بسرعة!

ينفرج فم هادي عن ابتسامة صغيرة بائسة .

ـ اخشى ان نحسم معاً . . انا وقضيتي!!

حاكم يفهم المعنى المضمن ، يقول باقتناع ثابت :

ـ مستحيل!

هادي وسليمان يتطلعان فيه متشككين ، فيواصل :

ـ . . . السجن في أسوأ الاحوال . .

غمغمة خافتة تصدر عن هادي :

ـ ان كان السجن وحده . . .

ليقاطعه حاكم مشترطاً :

ـ على ان تواجه القاضي الذي سيحاكمك . . تقصّ عليه ما جرى لك في التحقيق!

هامش من الحيوية ينبعث في تساؤل هادي :

ـ هل تعتقد . . هذا ممكن ؟!

حاكم يجيب جازماً :

ـ ممكن جداً .

ليضيف بثقة راسخة :

- « هم يحاكمونك كي يسمعوك . »

عينا هادي تصرّحان عن بقايا شك ، في الوقت الذي اردف فيه حاكم :

- . . . والاّ كانوا اكتفوا بالتحقيق ذاك . . واصدروا حكمهم وقتها . .

هادي يُقبل على الطعام بشيء من حيوية .

* * *

صباح اليوم التالي جاء الى هادي من أخذه .

« محاكمة! »

حاكم وسليمان بقيا نهباً لحالة من الصمت المشحون بالتوتر .

« تراه يعود ؟! »

وان عاد . . هل سيأتيهما باخبار تطمئنهما عليه ، ومن ثم على مصيرهما المنتظر ؟! . .

« حساب التوقعات ـ رغم الاجتهاد في الاستنتاجات ـ غير وارد! »

قبل الظهر بقليل فتح باب السرداب .

ـ هادي وصل!

هتف حاكم بلهفة وهرع حيث قاعدة السلم ، ليطل هادي بوجه مكفهر .

ـ ماذا حدث ؟!

هاجس التوقع في سؤال حاكم . باب السرداب ينغلق . المفتاح يدور في اقفاله . هادي يهبط السلم بخطوات متواترة .

ـ تأجّلت الجلسة حتى الغد!

ردد بصوت خائر ، واضاف :

ـ . . . للنطق بالحكم!

ـ بهذه السرعة ؟!

تساءل سليمان كمن يرفض يصدق .

ـ بهذه السرعة .

اجاب هادي وهو يتهالك جالساً على طرف سريره . حاكم يبادر يسأل :

ـ طلبت الاذن بالكلام ؟

هادي ـ من غير ان يتطلع في وجه حاكم ـ يجيب :

ـ لا .

صوت حاكم يتضمن شعوره بأن الآخر خذله :

ـ لماذا ؟!

أنّة عميقة تصدر عن هادي .

ـ لأنه لا فائدة!

قالها بصوتٍ راعش يشارف حدود الانهيار . قبل ان يتكور على نفسه ، واضعاً رأسه بين ركبتيه . سليمان وحاكم يتبادلان نظرات جزعة .

* * *

سليمان أو حاكم ، كلاهما لم يتجرأ يطلب من هادي يشاركهما طعام الغداء . وكلاهما لم يعن يأكل بشهيته المعتادة .

«غداً موعد نطق الحكم!»

هادي ، وهو يواجه معاناته ، آثر يستلقي في سريره دافناً وجهه في وسادته . مناخ من الصمت المتوتر المشحون بالتوقع هيمن على السرداب . لحين قدوم الليل ، ووصول وجبة العشاء .

ـ تشاركنا الطعام!

تساءل سليمان برجاء طموح ، فكان ان تحرّك هادي ناهضاً ببطء . عيناه بدتا متورمتين . مما حدا بسليمان الاّ يتطلع اليه في وجهه مباشرة . حاكم ، بدوره ، بقي منغلقاً على نفسه ، جاهداً يسيطر على انفعالاته .

«أهو الخذلان وحده ؟!»

اكتفى هادي من الطعام بأقلّه مما أكّد لسليمان انه شاركهما مجاراة لهما . بعدها نهض بتثاقله ذاته . اتجه الى سريره . ليستلقي هذه المرة على ظهره ، مبقياً عينيه مفتوحتين على السقف .

* * *

ـ لو لم يحصل نزاع شط العرب . .

صوت هادي يسمع مضمّناً طابع التمني المستحيل اكثر من تضمّنه للحزن اليائس . كان الليل قد تقدّم . الحركة الآتية من صوب الشارع كفّت . الثلاثة يضطجعون في اسرّتهم ، وصوت هادي يتواصل :

ـ . . ماكنت هنا!

لهجته تفصح عن رغبة بحديث مع النفس ، دون انتظار مساهمة الآخرين . سليمان يتطلع ناحية حاكم . الاخير باق على سكونه ، كأنّه لم يسمع ما تفوه به هادي ، وهادي يعاود بعد لحظات صمت :

ـ لو لم التق بالمهرب شاهبردي . .

تندّ عنه زفرة .

ـ . . ما كنت هنا!

يلوذ بصمته برهة اخرى .

ـ . .لو لم . .

فيقاطعه صوت حاكم عاتباً بحدّة أقرب الى الغضب :

ـ لو لم تكن هنا ما عرفناك!

قال من غير ان يتلفت ناحية هادي ، مُبقياً عينيه على السقف ايضاً .

ـ هذا صحيح .

رد هادي بما يشبه الاعتراف بالذنب ، وأتمّ :

ـ . .انما . . النطق . . الحكم . .

حاكم يقاطعه ثانية :

ـ بصرف النظر عن نوع الحكم الذي سيصدر غداً . .

يبقى جملته معلقة برهة قصيرة ، ثم يضيف :

ـ . .مادام الامر باختيارك . . فلا اسف .

سليمان يستوفز :

« من اين لحاكم بهذه الاستنتاجات ؟! »

هادي يستدير بوجهه مهتماً . حاكم يواصل موضحاً :

ـ مادام الذي تتعرض له الآن جاء نتيجة فعل قمت به بارادتك . . فلا أسف .

الاقتناع يتبدى في صوت هادي .

ـ هذا صحيح .

سليمان يهتم يتابع . هادي من جانبه يتم كمن يقاضي نفسه :

ـ . . .عدا هذا انا عشت حتى بلغت الستين واكثر . . امّا . .

حاكم يعود يقاطعه بعتب حانق :

ـ ليس هناك من يزهد حياته جرّاء كبر سنه .

سليمان يستغرب على حاكم لغته الدالّة .

ـ . . .ليس من يرضى يتنازل عن يوم من حياته الاّ اذا كان البديل اغلى من الحياة ذاتها .

ويزداد استغرابه لدى سماعه استجابة هادي :

ـ انت على حق .

توقّع منه يستوضح ، لكنه اكمل :

ـ . . .وانا اتخذ قراري اتولى عملية الاربعين قلت لحالي : لا أسف إن فشلت . . سجنت . . مُتّ . . مادمت سأضمن حياة اهلي . .

تند عنه زفرة مغفلة ، ليستطرد :

ـ . . . امّا ما بعد ذلك . .

* * *

أمن ثورة لدى اطباقهم العاتي عليه أخضعوه لتفتيش دقيق . افرغوا محتويات جيوبه كلها . لحظتها شغله سؤال محيّر :

«المتسللون الايرانيون كانوا حين تركهم ، قبل ذهابه للقاء الحاج علوان ، أربعين . . فكيف صاروا سبعة ؟!»

رجال أمن ثورة اخذوه مخفوراً الى مركز شرطة ناحية السيبة . حبسوه ،

وحده ، في غرفة صغيرة عارية الجدران .

ـ اتصل بأهلي ، سألهم راجياً .

ـ اخرس!

جاءه الرد زاجراً . تناوبه اثنان من مسؤوليهم .

ـ اسمك ؟

ـ هادي جواد .

ـ عمرك ؟

ـ اكثر من ستين سنة .

ـ سكناك ؟

ـ . . . .

الاسئلة بدأت بسيطة واضحة يستطيع هادي يجيب عليها بسهولة .

* * *

ـ بالنسبة لي ليس لدي ما أخفيه ، ماداموا قبضوا عليَ بالجرم المشهود ، ومادمت على استعداد أواجه المصير المعروف لدي سلفاً .

حاكم وسليمان يصغيان .

ـ . .مع تقدم اجراءات التحقيق أخذت اسئلتهم تنحو منحى آخر مُعقداً ، لم أجد له تفسيراً . سألوني عن صلة ارتباطي ، والحوا عليَ اكشف لهم عن اسماء أعواني من العملاء والجواسيس . .

تصدر عن حاكم ضحكة قصيرة دالّة .

ـ أمن ثورة!

في الوقت الذي استطرد فيه هادي :

ـ ولأنهم لم يظفروا مني بالمعلومات المتوقعة لهم بدأوا تهديدهم طالبين مني الآ اضطرهم لاستخدام العنف معي بهدف استخلاص اعترافاتي .

* * *

بعدما أصر هادي :

ـ ليس لديه ما يخفيه!

حاولوا معه باسلوب آخر :

ـ اذا تعاونت معنا اطلقنا سراحك!

بقصد يُخلي طرفه حكى لهم حكاية :

« عمره ما فكّر يشارك في عملية تهريب متسللين . . قبل هذه . كبر سنّه وجسامة الخطر ، على أيامه كان يكتفي يهرب بعض السلع . . الوضع ، وضيق ذات اليد ، ومصادفة لقائه بشاهبردي في المحمرة . . »

الاسم يستوقفهم :

ـ من هو شاهبردي هذا ؟!

اصدقهم اجابته :

ـ مهرب ايراني معروف ، من أهالي المحمرة .

ـ انت تكذب!

ـ لا والله!

ـ انت عميل محترف!

يأخذه إنشداهه .

ـ كيف ؟!

يواجهونه بمنطقهم :

ـ تقود كتيبة من افراد جيش العدو الى ما وراء دفاعات الجيش العراقي بقصد ضرب خطوطه الخلفية!

يحاصره انشداهه اكثر .

ـ الذي يعرفه ان المتسللين ليسوا سوى كادحين معدمين ، همهم الوحيد الوصول الى الكويت لغرض العمل هناك . . وهذا امر معروف لدى اهالي البصرة كافّة .

يعودون يواجهونه بمنطقهم :

ـ كادحون ومسلحون ؟!

م ١١ يحدث أمس (الهيئة العامة لقصور الثقافة)

«من اين يجيئهم السلاح ؟!»
ـ تبادلوا اطلاق النار مع رجال أمن ثورة . . عرفوا يغطون انسحاب غالبيتهم . .
ـ أمر لا علم له به!
غضبهم بلغ بهم حدّه .
ـ لا تتظاهر بالسذاجة!

* * *

ـ وانا رهن استنطاقهم تذكّرت كلمات سبق وقالها لي شاهبردي لدى حديثه عن المتسللين ، حين قال انهم يعرفون ما ينتظرهم ، يَصحبون طعاماً وزمزميات ماء ، إن لم يحتاطوا لأشياء أخرى .
سليمان معقباً :
ـ سلاح مثلاً!
هادي يوافقه باشارة من رأسه . يتم :
ـ الظروف الحرجة للتسلل ، مخاطر الطريق . حجم القافلة ، فان حدث مالم يكن بالحسبان . . يتدخّل حاكم مقاطعاً :
ـ أو بالحسبان!
يبتسم هادي برضا ازاء استجابة حاكم .
ـ فيما يخصني كنت جاهلاً أمر السلاح . . قلت للمحققين : لو كنت اعرف بأمر السلاح لرفضت الصفقة منذ البدء .

* * *

ذكر كلمة صفقة يستفز محققيه .
ـ صفقة . . مع من ؟!
ـ مع شاهبردي .
ـ واحد من افراد جيش العدو . . اليس كذلك ؟!
ـ سبق وقال لكم . . مهرب ايراني معروف .

ـ ما هي رتبته العسكرية ؟!
ـ شاهبردي ـ كما يعرفه هادي ـ ليس عسكرياً .
استجوابهم ينضح بتهديدهم :
ـ تعرف عاقبة الكذب ؟!
ـ هادي لا يكذب .
يطلعون له بسؤال مغاير :
ـ من وضع خطة العملية ؟
ـ ليست هناك خطة . . كل مافي الامر انه رضي يتولى العملية لقاء مبلغ كبير من المال .
ـ تعترف انك قبضت ؟!
ـ نعم .
ـ من العدو ؟
ـ من شاهبردي .
ـ تعترف انك عميل للعدو ؟!
ـ ما المقصود بعميل ؟!
ـ جاسوس ؟
ـ لا .
ـ مدى علاقتك بجيش العدو ؟
ـ لا علاقة .
ـ صلة ارتباطك به ؟
ـ لا صلة!
ـ تعرف عاقبة الكذب!!
يتردد هادي . . يقرر يصدقهم قوله :
ـ شيء واحد . .
ـ ما هو ؟!

ـ إبنه صادق يخدم في الجندية الايرانية .
ـ بدأت الامور تتضح . .
ـ الامور ليست كما يفهمون . . ابنه صادق هناك .
ـ كيف ؟!
ـ هو إيراني الجنسية .
ـ ابنك ايراني ؟!
ـ من سكان المحمرة .
يستغربون عليه ردوده .
ـ وانت ؟!
ـ اذا شئتم الحقيقة . . ايراني عراقي .
يتسغربون عليه اكثر . يحاول يوضّح :
ـ حين يكون هناك يكون ايرانياً . . حين يكون هنا يكون عراقياً .
ـ ولاء مزدوج!!
ـ الامر ليس باختياره .
يحاججونه :
ـ لكنك اخترت تكون عميلاً!
ـ ليس هكذا!!
يواصلون بناءً على قناعاتهم :
ـ كيف تسلّمت قيادة أفراد العدو ؟
ـ في عبادان .
ـ كيف عبرت بهم شط العرب ؟
ـ زورق .

* * *

كان الوقت جاوز منتصف ليل السرداب حين طلب هادي لنفسه سيجارة . حاكم تطوّع يشعلها له .

ـ لعلّها ليلتي الاخيرة معكم!
حاكم يصدقه الرد .
ـ لعلّها .
يصمت برهة قصيرة ، ليردد بصيغة آسفة مضمّنة اعتذاراً :
ـ أدري انكم ترغبون تنامون!
سليمان يردّه :
ـ ليس أوفر من النوم .
حاكم يؤكد :
ـ ايامنا كلها للنوم .
هادي بقلق طموح :
ـ حتى متى تبقيان ساهرين ؟!
حاكم يختصر عليه قلقه :
ـ ماذا بشأن اولئك الذين كانوا يحققون معك ؟!

* * *

ـ الذين يحققون معك ليسوا اغبياء! . . تكلّم الصدق!
أقسم لهم :
ـ صادق والله!
واجهوه تحت عينيه :
ـ فكّر بالسؤال جيّداً . . كيف عبرتم شط العرب ؟
ـ زورق .
ـ مستحيل!
ردوه زاجرين ، واضافوا :
ـ كيف لزورق ما . . محمل بهذا العدد من افراد العدو . . يخترق خطوط دفاعاتنا ؟!
ـ لكنه حدث .

ـ تكذب!

ردوه ، واضافوا :

ـ . .التفسير الوحيد لامكانية عبورهم انهم وحدة ضفادع بشرية مدرّبة تدريباً عالياً .

انشداهه تصاحبه حيرته :

ـ ضفادع بشرية!!

ـ لا تتظاهر بالسذاجة!

لكيلا ينقموا عليه اكثر آثر يصمت ، لتأتي مبادرتهم سؤالاً محيّراً اكثر :

ـ اعوانك هنا . . من هم ؟ . . ما عددهم ؟!

ـ لا أعوان .

ـ الايرانيون الذي عرفوا يفلتون . . اين يختبئون ؟!

ـ لا يدري!

ليواجه بسؤال صاعق :

ـ هل أنت ضابط في الجيش الايراني ؟! . . وما هي رتّبتك ؟!

* * *

عيناه ترحلان في البعيد ، صوته يتعمّق في ذكراه :

ـ بعدها أخذ التحقيق مجرى آخر . جاءوا بحزمة من عصي الخيزران . اغلقوا باب الغرفة . بدأوني سؤالهم الأول حول صلة ارتباطي بجيش العدو . اجبتهم أني قلت لهم عن كل الذي اعرفه ، قالوا انهم يعرفون كيف يتأكدون من صحّة كلامي .

سليمان مقاطعاً بوازع من المشاركة :

ـ باستخدام عصي الخيزران!

ـ حين انهالت علي عصي الخيزران!

عقّب هادي بنبرات راعشة ، وأضاف بما يقرب من الحقد :

ـ . . .كرهتُ نفسي .

حاكم يتدخل :

ـ شعورك بالمهانة!

ـ ليس وحده . . ضربة العصا تبدأ كما الصعقة غير المتوقعة . . يصحبها احساس بتمزق حاد في الجلد ، يعقبها شعور بالاحتراق . ينتشر ليشمل الظهر كله .

سليمان وحاكم يصغيان .

* * *

وهم يتداولوه بعصيهم الخيزران طرأ على ذهنه سؤال :

«لماذا يكرهوني الى هذا الحد ؟!»

وعندما شارف الاغماء ادرك انه غير قادر يتحكم بمثانته .

ـ شبكة اتصالاتك ؟

كان عليه ـ في حالاتهم كلها ـ يسلّم لهم .

ـ أعوانك ؟

عن عذابات الألم . . مرّت عليه أوقات تمنّى خلالها لو استطاع يموت بين أيديهم ويخلص ، لكنهم يجيدون مهنتهم ، كانوا يأخذونه حتى حافّة الموت ، ويتركونه هناك يكابد ، فان عاد أعادوا سؤالهم عليه .

ـ دورك في تسهيل مهام جواسيس العدو ؟

الألم له لغته . الليل يتصل بالنهار ، والنهار . .

ـ الايرانيون الذين عرفوا يفلتون . . اين هم الآن ؟

الاثنان يتناوبانه . وحين يجهدان يطلبان مساعدة ثالث .

ـ رُتبتك في جيش العدو ؟

اسبوع أول .

«يبدو الاّ نهاية ترجّى . .»

اسبوع ثان .

«كيف يكون طعم الموت ؟!»

اسبوع ثالث .

ـ وحمتكم!!

منحوه فسحة يلتقط فيها نفسه .

ـ تعترف أم لا ؟!

ـ أنا بين ايديكم!

ـ الحقيقة كاملة!!

ـ ما المطلوب مني قوله ؟!

* * *

فيما يخص اعترافاته التي أدلوه بها . . لا ينكر هادي انه ، وهو يواجه القاضي صباح اليوم ، فكّر يخبّره :

ـ الكلام المكتوب بالاوراق منسوب الي!

لكنه استبعد الفكرة بسبب من طبيعة سير اجراءات المحاكمة ، وأمر آخر طارىء لم يكن بحسبانه . .

« وجود الايرانيين السبعة »

حين ادخلوه قاعة المحاكمة وضعوه في قفص حديدي ، حتى اذا ما استوعب حالته ، وجال بعينيه أرجاء القاعة ، فوجيء بوجود الايرانيين السبعة ، الملقى عليهم قبضهم في المقام المهجور يومها ، كانوا محشورين في قفص آخر قبالة قفصه .

ـ لعلهم قيد المحاكمة . . مثلي!

ردد هادي ، واستطرد :

ـ هذا ما قلته لنفسي بادىء الأمر ، وطفقت انتظر ، بعد دقائق دخلت هيئة المحكمة . ليناد ى عليّ بالاسم . القاضي تصفّحَ ملفي بسرعة . . لكن كلامه الذي جاء بعد ذلك دلل على انه سبق واطلّع على اوراقي . . مافيه الكفاية .

ـ كان المفروض بك تتكلم!

قال حاكم يعتب . ابتسامة شاحبة ترتسم على فم هادي .

ـ القاضي منذ اللحظات الاولى بادرني . .

* * *

ـ منسوب اليك انك ارتكبت جريمة خيانة الوطن!

فما كان من هادي الآ ان غمغم مع نفسه بضياع :

«الامر غير هذا!!»

في الوقت الذي تواصل صوت القاضي :

ـ . . بناء على الدلائل المثبتة ، واستناداً الى اقوالك واعترافاتك ، وهي كالتالي : انه في يوم . . المصادف . . ألقي عليك القبض متلبساً بجريمة الشروع بالتسلل الى ارض العدو ، ونظراً لأنها سابقة اولى اطلق سراحك بكفالة بعد ان اخذت على نفسك تعهداً خطيّاً . .

«لم يغفلوا محاولتي تلك!!»

ـ . . وثبت ايضاً انك باعترافك مازلت تدين بالولاء الصريح للعدو . .

«الامور لا تفهم هكذا!!»

ـ . . وثبت ايضاً . .

كل الذي يقولونه صحيح كوقائع ، لكن تفسيرهم هذه الوقائع . .

ـ . . وايضاً . .

ما الذي يمكن يقوله . . لو مُنح فرصة الكلام ؟!

ـ . .ثم جرى القاء القبض عليك متلبساً بجزيمة قيادة مجموعة من افراد العدو ، بقصد التسلل الى ماوراء المواقع الدفاعية للجيش العراقي .

«التسلل صحيح ، وراء مواقع . . صحيح . . انما . .»

فجأة واجهه القاضي بسؤال مباشر :

ـ هل تعرف هؤلاء ؟

اصبعه تشير الى قفص الايرانيين السبعة .

ـ كأشخاص . . لا .

السؤال اللاحق للقاضي محدد واضح :
ـ هل توليت مسؤولية قيادتهم داخل الاراضي العراقية ؟!
ـ نعم .
القاضي أطبق ملفه .
ـ رُفعت الجلسة .

* * *

الفجر كان بدأ يتنفّس خارج السرداب .
ـ اصدار الحكم بعد ساعات!
ردد هادي بصيغة من يصدر حكماً قاطعاً على نفسه . يُسمع صوت محرك شاحنة كبيرة تمر متباطئة في الشارع .
ـ بعد صدور الحكم . .
قال حاكم ، واكمل :
ـ . .يجري نقلك الى السجن المركزي .
هادي يعقّب بتسليم يائس :
ـ ومنه الى الاعدام!
ـ الاعدام مستبعد تماماً .
قال حاكم بثقة تبعث نوعاً من الاستغراب المتفائل لدى هادي :
ـ لماذا ؟!
تساءل ، فجاءه توضيح حاكم :
ـ اذا كانت جميع الدلائل ضدّك ـ كما هو واضح ـ سيصدر عليك الحكم بالسجن المؤبد .
هاجس التفاؤل يكبر في سؤال هادي :
ـ انت واثق ؟!
الآخر من دون ادنى تردد :
ـ جداً .

بدا عليه كأنه يبحث عن تعبير مناسب ، واتم :

ـ هناك عُرف دولي بالنسبة لكبار السن . . في العادة يجري تخفيف الاحكام الصادرة بحقهم من الاعدام الى الاشغال الشاقة المؤبّدة .

سليمان يتساءل مع نفسه :

« من أين لحاكم بهذه المعلومات ؟! »

عدا هذا . . الكلام الذي قاله يتسم بحد معقول من منطق الاقناع .

« من يدري ؟! »

بريق من أمل متنام ينبعث في عيني هادي . يتطلع ناحية حاكم بسؤال صامت :

« هل يصدق وعدك ؟! »

* * *

في الصباح فُتح باب السرداب .

ـ هادي جواد!

إنسل الاخير صامتاً . على اثر ذهابه توجّه سليمان لحاكم بسؤال :

ـ انت واثق مما قلته حول مسألة السن وتخفيف الحكم ؟

حاكم بعد تردد قصير يهز رأسه نافياً ، وانطباع بالقنوط يتجلّى على وجهه . لينهض عن سريره يبدأ يذرع ارض السرداب جينة وذهاباً . الحيرة . الاحساس بالمحاصرة ، وهذا الهاجس الحاضر بالفقدان المرتقب .

« ما جدوى الأمل الكاذب ؟! »

حاكم يقول كمن يحدّث نفسه مبرراً :

ـ مثل هذا العرف مأخوذ به في الدول المتحضرة .

الشعور بالاشفاق ـ كما يعانيه سليمان لحظتها ـ وارد ، إنّما . . من هو الاحق . . هادي . . أم حاكم ؟!

* * *

بعد ساعتين لا غير فُتح باب السرداب ، ليدخل هادي .

ـ جئت أقول . . مع السلامة!

كلماته لاهثة متواترة . وجهه كالح اللون ، بعضلات مشدودة . عيناه غائرتان منطفيتان .

« بهذه السرعة ؟! »

ردد سليمان مع نفسه مأخوذاً . خيّل اليه ، وهو يراه ، انه ازداد تقوّساً من كتفيه .

حاكم ـ من غير ان يرفع عينيه ناحية هادي ـ يشغل نفسه يَفُض علبة سجائره باصابع راجفة .

« كيف تجد كلاماً مناسباً ؟! »

الشرطي ـ وقد أبقى باب السرداب مفتوحاً ـ وقف أعلى السلم بانتظار أوبة هادي .

ـ يصرّون يأخذوني الآن!!

صوته المنطفىء يجسّد شعوره المنفرد بالضياع . الشرطي يتململ في وقفته أعلى السلم .

« من أين بكلام مناسب ؟! »

حاكم يبقى ينشغل يفضّ علبة سجائره . عيناه على يديه .

ـ وقتنا ضيّق!!

الشرطي يعبّر عن تململه يواصل نداءه :

ـ . . اسرع!!

تحين من هادي نظرة اخيرة عاتبة تجاه حاكم :

« لم يصدق وعدك!! »

١٧

الايام التي تلت كانت ثقيلة ، معبأة بالصمت . الكلمات التي تداولها الاثنان قليلة .

ـ سجائرنا أوشكت . .

ـ وجبة الطعام وصلت . .

احساسهما بالمصير المشترك جرى خرقه من خلال انتزاع هادي من بينهما ، فبدا الواحد منهما وكأنه يعاني شعوراً بالذنب ، الى جانب احساسه المهيمن بالاحباط وانتظار المجهول .

الشتاء . البرد القارس يتغلغل في جوانب السرداب . الرطوبة العفنة ، وكان ان اصيب حاكم مع نهاية الاسبوع الاول بنزلة برد .

ـ أُخبّر الشرطي الذي يأتينا بالطعام بمرضك!

قال سليمان ، فردّه حاكم بسؤال لا ينتظر اجابة :

ـ الجدوى ؟!

سليمان يتشبث مشفقاً :

ـ يأخذونك الى طبيب!

ليصله الرد ذاته :

ـ الجدوى ؟!

كانت حاله تتراوح ما بين حمّى يعرق لها جسده بغزارة ، الى انتقال

مفاجىء لحالة معاناة برد حاد مصحوب بقشعريرة تصطّك لها أسنانه .

ـ حاكم!!

ـ بردان!!

فيهرع سليمان الى اغطية الاسرّة يكوّمها فوق جسد حاكم بمحاولة لبعث الدفء .

ـ اتعبتك معي!!

تندّ عن سليمان ضحكة قصيرة باهتة :

ـ المهم تشفى!

بعد أربعة أيام بدأ حاكم يتماثل للشفاء . كان واهناً شاحب الوجه ، رغم ذلك كان سليمان بفرح لاحد له .

ـ صحتك تحسنت!

كانا يجلسان متقابلين واناء العدس بينهما ، فما كان من حاكم الآ ان عاد يردد سؤاله المعلق :

ـ الجدوى ؟!

حتى اذا ما حدّق فيه سليمان عاتباً مندهشاً ، أضاف :

ـ اليوم الذي سيطلبوني فيه للمحاكمة ليس بعيداً!

« لا!! »

صرخة مفاجئة رافضة كادت تنفلت عن سليمان . هو ـ مع نفسه ـ لم يواجه فكرة يُفجع بفقدان حاكم أيضاً .

الفراغ المترتب على رحيل هادي كان كما موت الأحبة . شعور حاد بالفجيعة . لعله يقين الفقدان الناشىء عن ارتباط بدأ عابراً ليضرب جذوره بعيداً في العمق من الذات . كل التفاصيل اليومية لتواجد السرداب تذكّر به .

ـ طلب واحد!

قالها سليمان بصيغة رجاء ، استغربها عليه حاكم :

ـ ماذا ؟!

صيغة الرجاء باقية في صوت سليمان :

ـ الآ تأتي على ذكر المحاكمة!

حاكم يتطلع فيه مستوضحاً ، فيستطرد :

ـ . . .دعها لحينها!

الاستغراب لا يزايل وجه حاكم مباشرة . يصمت برهة مستعرضاً كلمات سليمان في ذهنه ، يومىء برأسه دلالة عدم اقتناعه الكامل .

ـ من غير تعليق .

قالها وصمت . في الوقت الذي بدأ فيه مصباحهم الكهربائي الاصفر الوحيد يختلج بارتعاشات متلاحقة ، لينطفىء آخر الأمر . الظلام الحالك ـ لأول مرة ـ يعم السرداب .

ـ من غير تعليق!

رددها سليمان هذه المرة مفلتاً ضحكة خافتة دالّة . بعد حوالي الساعة استُبدل المصباح التالف بآخر اصفر ، وعند الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي فُتح باب السرداب ، ليطل منه احدهم ، كي يخبّر :

ـ سليمان يوسف . . حاكم سلطان . . الضابط يطلبكما!

* * *

الضابط لدى طلبهما خبّرهما :

ـ محاكمتكما تبدأ غداً .

قبل الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي فُتح الباب .

ـ جاهزون ؟

الشرطي وهو يطل يسأل . رعدة خفيّة سرت في جسد سليمان . اختلس نظرة الى وجه حاكم .

الشحوب يعود وجه الاخير . بدء المحاكمة يعني بدء العدّ التنازلي .

مُذ خَبّرهما الضابط أمس وسليمان يعدّ نفسه لمواجهة هذه اللحظة .

الامور تجري ضمن منعطفات معينة مجهولة لديه . اعتقلوه . نقلوه . حجزوه .

وها هم بصدد ان يحاكموه . مادامت كل الوقائع ، ما حدث منها ، وما سيحدث، خارج ارادته ، فما سرّ رعدة الخوف هذه ؟!

* * *

ـ ممكن!

سألهما الشرطي بصوت حيادي وهو يَقْدم يضع الأصفاد في يدي كل منهما .

« اجراء احترازي »

فجأة شغل ذهن سليمان بفكرة :

« طيلة فترة محنته ، في يقظته أو نومه ، لم تراوده أيّما أحلام بالهرب . . لماذا ؟! »

الفكرة تلح لدرجة تبعث على الاستغراب . اغتنم فرصة اقترابه من حاكم وهما يقطعان الممر ، وهمس له يسأله :

ـ هل فكرت تهرب ؟

فكان ان جاءته الاجابة حاضرة :

ـ لا .

رغب لو يسأل عن السبب ، لكنّه أحجم . الشرطيان المسؤولان عن مرافقتهما يسابقانهما باتجاه البوابة حيث سيارتهما الجيب .

* * *

البصرة ، وصباح شتوي ملبّد بغيوم رمادية .

« لعله الزمن الرمادي! »

لو ان الحال غيرها لعرف كيف يَفْرِد رئتيه على سعتهما يعبُّ رياح الصباح الرطبة ، أمّا وقدر المحاكمة ينتظره . .

في الركن الأبعد من مؤخرة السيارة الجيب جلس حاكم واجماً . نظراته تضيع بين قدميه .

« يقينية الحكم المتوقع صدوره بحقّه! »

يعزّ على سليمان يراه قانطاً وهو الذي اعتاد يُحسن التصرف في المواقف . . شتّى .

« ـ في الحياة كما في لعب القمار كل الاحتمالات غير القابلة للحدوث قابلة للحدوث »

اين حاكم من كلماته هذه ؟! . . مؤخرة السيارة تنفتح على الشوارع . الناس بحركتهم اليومية .

ما عاد سليمان يطمح يراه احد اصدقائه أو معارفه ، فيبادر يخبّر ، أو يتصرف . وحده مسؤول يواجه مصيره . ذلك هو احساسه المهيمن عليه .

* * *

عندما توقفت السيارة امام مبنى حكومي يزدحم مدخله برجال الشرطة طُلب من سليمان وحاكم ان يترجلا ، ليجري اقتيادهما داخلاً .

« المقدور الآن! »

الزحام في الداخل على أشدّه . كثيرون من المصفدين ، واكثر منهم رجال الامن المرافقين . ممرات متشعبة ، وابواب مغلقة تؤدي الى قاعات متعددة .

ـ من هنا!

قال الشرطي المسؤول عن مرافقة حاكم ، وولج برفقته احد الابواب .

ـ من هنا!

قال الشرطي المسؤول عن مرافقة سليمان ، وولج برفقته باباً آخر .

« ما الحكمة ؟! »

بدءاً . . ظن سليمان انهما سيحاكمان في قاعة واحدة ، اما وقد . .

* * *

القاعة ـ مقارنة بعدد ضباط الامن المعنيين ورجال حرسهم ـ مزدحمة .

« زمن العسكر! »

قفص الاتهام ـ حيث جرى ايداع سليمان ـ محشور بعدد كاف من المصفودين .

« كلهم قيد المحاكمة!! »

المنصة ـ المكان المخصص لجلوس القضاة ـ باقية خالية ، وفي التو ارتفع صوت عسكري جهوري :

ـ محكمة!

تأهب عام يسود القاعة . باب جانبي ـ عند المنصة ـ ينفتح ، ليتمخّض عن ثلاثة ضباط .

« الهيأة القضائية »

يرتقون المنصة . يجلسون . اكبرهم رتبة يتوسطهم . عسكري رابع يدخل حاملاً كدساً من الملفات .

ـ بإسم الشعب نفتتح الجلسة .

ردد الاوسط ، فسكنت القاعة عن آخرها ، لتبدأ المنصة تتصفح اوراق احد الملفات .

ـ القضية الاولى . . فلان الفلاني!

من داخل قفص الاتهام ـ على مقربة من سليمان ـ استجاب صوت مشروخ :

ـ نعم .

ليواجه سؤال المنصة :

ـ ما الذي تقوله عن التهمة المُسندة اليك ؟

* * *

القضايا تتوالى ، والاسماء . .

ـ تحجز للنطق بالحكم!

بعض من في القفص يدفع ببراءته . بعض آخر يطلب الرحمة . بعض ثالث يخرسَ . . ولا كلمة .

« متى يحل دور سليمان ؟! »

القفص رويداً رويداً يفرغ من شاغليه . القاعة ايضاً تكاد تفرغ من

شاغليها .

ـ سليمان يوسف!

كانت الساعة قاربت العاشرة حين نودي بإسمه . القفص خال الآ منه ، والقاعة ـ اذا استثنينا المنصة ـ برجلي أمن ، لا غير .

ـ نعم!

أجاب بصوت حاول يدفعه الى حيث المنصة ، ليواجه بسؤال :

ـ ما هي التهمة المسندة اليك ؟

اجابته العفوية تسبق تجميعه افكاره :

ـ لا ادري!

قالها بصوت ينشحن احساساً بالظلم الواقع عليه . وحين دقق النظر هناك كان جواز سفره بيد العضو الوسط ، في الوقت الذي انشغل فيه عضو اليسار يُدقق ملفاً امامه .

ـ هكذا!

ردد الوسط بصوت بدا لسليمان محايداً ، قبل ان يميل يساراً يهامس زميله . ثم يميناً يفعل الشيء نفسه . يعتدل . يوجه خطابه الى احد رجلي الامن :

ـ جئنا بالمتهم هنا!

اصبعه تشير أمام المنصة .

* * *

البادرة تبعث على الأمل ، أو خطورة الحالة ، وإلا ما انتظروا يبحثون قضاياهم كلهم . يبتون أمرها ، يخلون قاعتهم...

ـ هل هذا جواز سفرك ؟

كانوا أوقفوه قبالة المنصة .

ـ نعم سيدي .

القاضي الوسط يعود يسأل :

ـ لماذا جرى ضمّه إلى ملفك ؟

الحيرة مع سليمان .

ـ لا أعرف!

القاضي اليسار رافعاً عينيه عن الملف ، مبدياً ملاحظة أقرب إلى الاخبار منها إلى التساؤل :

ـ لم يرد في صحيفتك الجنائية نوع الاتهام الموجه إليك!

ود سليمان يعقب :

« أنا بلا اتهام »

ـ لماذا اعتقلت ؟

ـ لا أدري!

ـ هل لك اتصال... أو شكل من أشكال العلاقة بجهة سياسية أو حزب معين ؟

ـ لا .

القاضي الوسط يمسك زمام الأسئلة .

ـ كيف اعتقلت ؟

ـ من الطريق .

ـ على اثر مظاهرة ؟

ـ لا .

ـ مشاجرة ذات مضمون سياسي ؟

ـ لا .

القاضي يلتفت إلى يساره ، يسأل :

ـ متى وردنا ملف القضية ؟

اليسار يجيب :

ـ منذ أسبوعين .

ـ ما الإجراءات التي اتخذناها بصددها ؟

ـ طلبنا من إدارة الأمن تزويدنا بصحيفة سوابق المتهم .

ـ جاءنا الرد ؟

ـ منذ أيام...

أجاب اليسار ، وأضاف موضحاً :

ـ ... المتهم من غير سوابق .

قاضي اليمين يتدخل مبدياً رأياً :

ـ قضية محيّرة!

الوسط يعقب :

ـ لعلها قضية كيدية أريد لها تكون سياسية .

اليسار واليمين يتبادلان نظرات متفهمة . في حين واصل الوسط موجهاً سؤالاً لسليمان :

ـ لك أعداء ؟

إجابه سليمان جاهزة :

ـ لا يا سيدي .

قاضي اليمين متشككاً :

ـ بالمرة ؟!

إجابه سليمان...

ـ بالمرة... يا سيدي .

قاضي اليسار بمباسطة يشوبها هامش سخرية :

ـ كل البشر الذين تعرفهم أصدقاء لك ؟!

سليمان بعد تفكير قصير :

ـ هذا ما أعتقده يا سيدي .

الوسط يأخذ المبادرة .

ـ ما هي وظيفتك ؟

بعد تفكير قصير :

ـ مدير شركة يا سيدي .

القضاة الثلاثة يتبادلون نظرات متفهمة دالة . قبل أن يوجه قاضي اليمين سؤاله :

ـ ألا يوجد بين معاونيك... مساعديك... موظفيك... من يطمع باحتلال مركزك ؟!

الرد مع سليمان :

ـ لا يا سيدي .

ـ إسمع...

قال قاضي الوسط بنفاد صبر ، واستطرد :

ـ ... أرجأنا بحث قضيتك حتى آخر الجلسة كي نكشف الغموض المحيط بها بهدف مساعدتك!

هل يصدق سليمان أذنيه ؟!

ـ أنا تحت أمركم سيدي .

اليمين بحزم :

ـ أنت صاحب القضية ، وأنت وحدك تعرف تكشف غموضها!

« كيف ؟! »

ولأنه لم يجب ، عاوده القاضي الوسط :

ـ بماذا تجيب ؟

الكلمات تتعثر على لسان سليمان :

ـ لو سمحتم لي سيدي!

الوسط يستعجله :

ـ قل ما لديك!

سليمان ما بين الخوف والأمل :

ـ أنا بلا قضية!

القضاة الثلاثة يتبادلون نظراتهم بينهم ، ريثما واجهه اليمين :

ـ إن كنت بلا قضية فكيف وصلت إلى هنا ؟!

جو من الهدوء يهيمن على عموم مبنى المحكمة . المبنى بدأ يخلو من مراجعيه ، وهؤلاء القضاة الثلاثة لديهم طاقة من الصبر تؤهلهم يستنطقونه أكثر .

« ما الذي يمنع ؟! »

تساءل سليمان مع نفسه . وقاضي الوسط يخاطبه :

ـ نحن هنا بهدف سماعك... قل ما لديك!

هناك شيء ما لا يعرفه سليمان . لعله الحظ ، لعله إحساسهم ببراءته ، لعله...

« ما الذي يمنع ؟! »

بصيص من أمل يبدأ يتسرب إلى نفسه .

ـ في حقيقة الأمر كنت بعيداً عن العراق منذ...

وطفق يتحدث بتفصيل واف . القضاة الثلاثة يصغون .

ـ أكمل حديثك!

ـ ... وأنا على بعد خطوات من بيتي...

ارتياح الاطمئنان ورغبة البوح عن الظلم...

ـ ... لدى وصولنا مبنى قائمقامية أبي الخصيب...

يشعر بتحقق ما يشبه اللغة المشتركة بينه وبين المنصة... هناك ـ على عكس المرات السابقة ـ من يسمعه ، دون أن يقطع عليه استرساله ، ليطلع له بأسئلة مفاجئة ، نابعة عن قناعات عجيبة .

ـ متى اعتقلت ؟

ـ قبل أكثر من سنة ؟

الاستغراب مع القاضي الذي سأله :

ـ ولم تُرفع قضيتك إلى القضاء قبل الآن ؟!

استغراب مماثل مع قاض آخر :

ـ وحتى الآن لم تعرف الجهة التي كانت وراء اعتقالك!!

القاضي الوسط يتدخل :

- هل تعرف الرجلين اللذين ألقيا القبض عليك ؟

- لا .

- هل هما من أبناء منطقتك ؟

- لا أظن .

- لهما صفة رسمية ؟

- لا أدري .

تسود ثوان من الصمت ، يتوجه أوسطهم بعدها إلى يساره يسأل :

- أظننا اتخذنا بعض الاجراءات بصدد هذه القضية!؟

اليسار يستجيب :

- كنتم أمرتم باستدعاء ضابط الشرطة الذي حرر الصحيفة الجنائية المرفقة ، بهدف سماع شهادته .

- ماذا تم بهذا الشأن ؟

- تم إخطار الضابط ، وحددت جلسة الغد لسماع أقواله .

انطباع بالارتياح يشمل وجه قاضي الوسط .

- ... مثول ضابط المخفر للشهادة كفيل بكشف غموض القضية .

بعدها يوجه حديثه لسليمان مباشرة :

- إن كانت أقوالك صحيحة ، سيفرج عنك .

الأمل يشيع أكثر ، يتفرع . والقاضي يختم قائلاً لدى نهوضه عن كرسيه :

- تؤجل الجلسة إلى الغد لسماع أقوال...

* * *

مبنى المحكمة وراء ظهره . السيارة الجيب تقف هناك . للشارع طعم المحبة . القضاة الثلاثة أبدوا من الاهتمام ما يفوق التوقع . لعله الاختزال الحقيقي لزمن المحنة . لو حدث... وغادر... لو... سافر...

الكويتْ - فيما مضى - تتبدى محطة سفر ، يقف فيها بقصد يغادرها آخر

المطاف ، أما وقد عُرك بتجربته هذه ، فالمحطة بقاء . الخطأ الذي ارتكبه : «أسافر»... لن يقدم يرتكبه .

مع التفافه حول السيارة الجيب كي يرتقي مؤخرتها وقعت عيناه على حاكم . رآه بوجه يانس ممتقع ينم عن حالة قنوط يائس .

ـ حاكم!

غمغم سليمان بقلق بادٍ ، فتنبّه الآخر .

ـ تأخرت!

تساءل حاكم بصوت غائر ، فاستجاب سليمان موضحاً ، وهو يتخذ مجلسه عنده :

ـ إجراءات المحاكمة .

السيارة الجيب تبدأ تتحرك . حاكم يستوضح :

ـ ماذا عنها ؟

رغم الاهتمام الذي جهد يبديه بقي صوته الغائر يؤكد تسليمه المطلق بهزيمته الكلية .

«ليس يأساً وحده!!»

تمثله حالة حاكم لا تمنعه يمحضه خبره :

ـ أرجئت الجلسة إلى الغد لسماع أقوال...

حاكم يقاطعه . كمن فهم الموقف :

ـ ماداموا لم يحددوا موعد نطق الحكم... سيطلقون سراحك .

وما تجرأ سليمان يسأل :

ـ ماذا تم بشأن قضيتك ؟

* * *

وهما يدخلان سردابهما ، يستقران فيه قال حاكم :

ـ يومنا الأخير معاً!

كان بذل غاية جهده يتجاوز حالة يأسه ، فجاءت لهجته إخبارية .

سليمان ـ من جانبه ـ يحاول يكون عند مستوى المشاركة ، يعقّب مبدياً دهشة رافضة :

ـ لماذا الجزم ؟

حاكم وقد فرض سيطرته على انفعاله :

ـ الأمر بالنسبة لي واضح... نطق الحكم صباح غد .

وقبل أن تتوفر لسليمان فرصة يعقّب أضاف بلهجة من يواجه نفسه :

ـ لا مكان للأسف!

تتداعى في مخيلة سليمان كلمات سبق أن قالها حاكم لهادي :

« ـ مادام الأمر باختيارك... فلا أسف! »

حاكم ، كمن تذكر شيئاً ـ يواصل :

ـ صباح اليوم ، ونحن بسبيلنا إلى المحكمة سألتني إن كنت فكرت بالهرب...

يترك جملته معلقة ، مما يشجع الآخر يشارك :

ـ وكنت أجبتني بالنفي .

حاكم يشرد بنظراته في البعيد ، ليجيء صوته من هناك :

ـ عندما سُجنت ما قبل الثورة راودتني فكرة أهرب ، كان لدي ما أهرب من أجله...

عيناه تعودان من البعيد كلماته تنحشر في حنجرته :

ـ أما الآن...

ولا يكمل .

« أيهما قدر الآخر ؟! »

مشاعر متعارضة تحتدم في صدر سليمان . الدمع ينبجس في مآقيه مباغتاً وافراً . مرئيات السرداب ـ من خلال الضوء الأصفر ـ تنعكس في حدقتيه بشفافية ضبابية...

١٨

ضمن حالة الأمل التي تُعمره باقترابه من حريته عايش سليمان رد فعل حاكم إزاء موعد إصدار الحكم بحقه . في البدء عانى من حالة قنوط يائس ، لكنه مع اقتراب الليل بدأ يتشبث ببارقة رجاء .

ـ لعلهم يحكمون عليّ أشغال شاقة مؤبدة!

تحين الفرصة لسليمان .

ـ أو محددة!

يعقد حاكم حاجبيه مفكراً بما قاله محدثه ، ليحسم أمره بعد حالة تردد قصيرة .

ـ الحكم يصدر في الغد ، والغد مايزال في الغيب .

سليمان يتطلع فيه جاهداً يخفي إشفاقه .

ـ ... مادامت ليلتنا الأخيرة...

ردد حاكم ، وأضاف بصيغة اقتراح طموح :

ـ ... ما رأيك لو نحتفل!

ـ نحتفل .

ـ معك خمسة دنانير ؟

ـ معي .

ـ ...

الشرطي الذي جاء بوجبة العشاء المقررة كُلّف بإنفاق الخمسة دنانير بما يناسب الموقف .

* * *

يجلسان على الأرض متقابلين . أكياس الطعام تتوسطهما . الاحتفال ضمن ظرف الاعتقال يعني أن تغيّر نوع طعامك ، أو تُسرف في تدخين سجائرك .

ـ حاولت أقنع الشرطي يأتينا بزجاجة عرق!

قال حاكم بلهجة مشوبة بالأسف . فحدجه سليمان بنظرة عاتبة ، في الحين الذي أكمل فيه حاكم وهو يدسّ لفافة طعام في فمه :

ـ على أيامنا أنا وأحمد ما كنا لنقبل على الطعام إلا...

سليمان يقاطعه مغتنماً فرصته :

ـ حدثني عن أحمد أكثر!

فم حاكم يكف يمضغ لقمته . يبدو يتفكّر في الطلب .

ـ مادامت ليلتنا الأخيرة...

* * *

ـ منذ لقائي أحمد في المقهى قررت أتصرف . أدري أنه افتداني بحياته . وأدري أن ذراعه شُلت جراء الطعنة التي تلقاها بدلاً مني .

سليمان يهتم يسمع .

ـ ... ليس إحساساً بالمسؤولية حسب ، لكنه الشعور الذي يتملكك... أن تكون أصيلاً ووفياً فعلاً .

« سليمان أيضاً ـ من مكانه في السرداب ـ يحسّ أحمد وكأنه جزء منه ، وأنه مسؤول عنه »

أن تكون أصيلاً... وحاكم يواصل عند مستوى الحلم :

ـ ... حالة الفرح التي تملكت أحمد بعد استعادته بعض صحوه كانت غريبة . صار يتصرف كالطفل المشدوه... لأكثر من مرة مدّ يده السليمة

يتحسس بها كتفي أو ذراعي . كان يتعمد يطمئن إلى وجودي قربه . دون أن يعرف يركز يصغي أو يشارك بالحديث الذي دار بيننا أنا وحليمة ، كان في حالة ما بين...

* * *

ـ هو فرحان بوجودك!

قالت حليمة بما يتضمن معنى الاعتذار عما يبدر من أحمد . حزّ في نفس حاكم يسمعها . تدري أن أحمد صديقه ، وتعرف...

ـ بعد ذهابكما بغداد انقطعت أخباركما عني!

قال حاكم ، فاستجابت حليمة :

ـ في بغداد راجعنا كل المستشفيات . كل الأطباء . بقينا هناك بين الأمل واليأس حوالي خمسة شهور ، ريثما نفدت نقودنا .

حاكم يستوضحها :

ـ والنتيجة ؟

تشير بيدها ناحية أحمد :

ـ كما ترى . حالته ازدادت سوءاً . ذراعه المشلولة والآلام المنبعثة عنها . عيادات الأطباء وأنواع الأدوية . جلسات العلاج الطبيعي .

صوتها يتهدج :

ـ ... وقتها بدأ أحمد يكثر من الشرب . صرتَ لا تراه إلا وهو سكران .

التساؤل الملح على بال حاكم :

ـ لا أظن أن حالته ميئوس منها بالمرة!

تنبعث في عيني حليمة بارقة رجاء .

ـ واحد من أطباء العيادات الخاصة قال إن شفاءه ممكن . قال إنه يحتاج جراحة دقيقة .

حاكم يكاد يضيع في التفصيلات .

ـ ... هذه الجراحة يجب تجرى في مستشفى في ألمانيا .

حاكم يكاد يضيع في التفصيلات .

ـ ... الطبيب قام بمراسلة مستشفى ألمانيا . بعث لهم بالتقارير وصور الأشعة... قالوا إن شفاءه ممكن .

تحين منها نظرة حانية تجاه أحمد . تضيف بهامش إحباط :

ـ لكن تكاليف السفر والعلاج...

حاكم يختصر عليها :

ـ كم ؟

بارقة رجائها تكبُر في عينيها .

ـ حوالي ألف دينار .

* * *

ـ الفكرة التي راودتني تملكتني «يجب أتصرف!»

سليمان يستوضح :

ـ كم كنت تملك وقتها ؟

حاكم يفلت ضحكة عفوية .

ـ ملكيتي كلها ما كانت تتجاوز ثلاثة دنانير... راتب المدرس ، كما تعرف ، بحدود الثلاثين . عدا هذا... عملي الآخر... مقر الحرس... عمل طوعي...

سليمان يستعجله :

ـ إذن ؟

حاكم يعبر على سؤال سليمان . يكمل :

ـ حليمة وقد فهمت ما أرمي إليه . هزّها الفرح . تحمست . سارعت تنهض تأتيني بالملف الحاوي للتقارير الطبية وصور الأشعة .

* * *

لحظة انشغال حليمة بإحضار الملف مال أحمد بفمه على إذن حاكم يهمسها :

ـ يجب نحتفل... كأس عرق... بمناسبة مجيئك!
حاكم يضطر يهز رأسه موافقاً . أحمد مغلوب على أمره كما هو مغلوب على كرامته . العقبة ليست في معالجة الذراع وحدها ، هنك أولوية معالجة الإدمان .
ـ احتفظ بملف أحمد معك!
قالت له وهي تدفع إليه بالملف . في باله لو يحتفظ بأحمد كله . قال لها يطمئنها :
ـ عرفت المكان ، لن تضيعوا مني ثانية!
تضحك له في عينيه . بادرة الأمل تعيد لعينيها قبساً من سحرهما .
«لا مكان لزمن التخلي! »
مطلوب منه يتصرف على مدى الأيام القليلة القادمة .

* * *

السرداب يركن للهدوء . الليل الشتوي .
ـ الوفاء ـ كما أعرفه ـ له حدوده ، معهما بلا...
سليمان يصغي .
ـ الحب ـ كما أعرفه ـ ... الإخلاص... القدرة على النهوض بأعباء مسؤولية ما...
صوته يستعيد ذكراه :
ـ هل أحدّثك عن حليمة أيام عزها في المنزول وأحمد يرفل في كبريائه ؟!... أم أحدثك عنها وقد شاخت قبل أوانها ، تنشغل بكل جوارحها... تحنو كما الأم الرؤوم... ترعى بقايا مهدمة لإنسان كان...
صوته يلاحق ذكراه :
ـ هناك فرق بين المسؤولية كفعل تطوعي ، والمسؤولية كمصير حتمي .
سليمان يوافقه بهزة من رأسه .
ـ ليلتها ، وأنا أخلو لنفسي ، تملكتني حيرة قاهرة . الآن ـ بعدما التقيت

أحمد ـ صرت أنا المسؤول .

سليمان لا يجد ما يعقب به .

ـ الإشكال الوحيد... كيف أتدبر مبلغ المال وأنا بلا ؟!... بقيت أتقلب في فراشي حتى الفجر . أمي لاحظت حالتي . ساهرتني على طريقتها . سألتني عما يقلقني . لوهلة عابرة فكرت أفاتحها ، لولا أن تذكرت موقفها من حياتي الماضية...

سليمان يجد فرصة يتدخل :

ـ إذن ؟

فجاءته إجابة حاكم :

ـ أحمد وحليمة عقدا آمالهما عليّ ، وعليّ أن أعقد العزم .

* * *

ليلتها ذاتها ، قبل انبلاج الفجر بقليل ، انبلجت في ذهن حاكم فكرة خطيرة :

« سلاح الحرس »

المغامرة قد تؤدي إلى السجن أو الإعدام .

« الأجر على قدر المشقّة »

تذكر صديقه كاكا محمد علي ، وما أفاد به حول البنادق الرشاشة ، وإمكانية بيعها في السوق السوداء .

« ليس سواها »

كاكا محمد يعمل مدرساً في الأصمعي . المشوار قريب ، والإرادة...

« ليس سواها »

بعد ساعات معدودة عرف حاكم يلتقي الكاكا .

ـ أنا بحاجة ماسة لمبلغ كبيرمن المال!

الكاكا يندهش ، طبيعة علاقتهما لا تحتمل ، ناهيك عن...

ـ لو كنت أملك...

فيقطع عليه حاكم استرساله :

ـ أعرف أنك لا تملك .

الكاكا يتطلع فيه مُبقياً دهشته . حاكم يستجمع جرأته . يصرّح عن فكرته :

ـ جئتك بخصوص البنادق الرشاشة!

* * *

« من أين تتأتى مشروعية الإقدام على فعل بعينه ؟! »

في لحظاته الأولى لم يستوعب كاكا محمد الفكرة ، وحين استوعبها ردد مرعوباً :

ـ أنت مجنون حتماً!!

حاكم يذكّره :

ـ لكنك سبق وقلت!

الكاكا يحرن .

ـ الأمر يختلف!

قال ، وأضاف :

ـ ما قلته لا يعدو كونه إشاعات سمعتها!

حاكم لا ييأس :

ـ أفهم من هذا أنك لن تساعدني!

الكاكا محرجاً :

ـ أساعد في حدود المعقول .

حاكم هادفاً يقنع محدثه :

ـ ومن جانبي لن أطلب أكثر .

* * *

« لعبة التفاوض والإقناع »

المعقول في عرف حاكم أن يتولى كاكا محمد بيع البنادق .

ـ أربع قطع لا غير .

قال محجّماً طلبه . مهوّناً من خطورة الصفقة ، فأجابه الآخر حائراً :

ـ ليست مسألة عدد!

حاكم يحاجج :

ـ مسألة ماذا ؟!

الكاكا مُفصحاً عن عفويته :

ـ أن أجد المشتري .

حاكم بلهجة من يدين محدثه :

ـ في لقائنا السابق قلت إن ثمن القطعة الواحدة...

الكاكا يقاطعه :

ـ القول شيء ، والشروع في التنفيذ...

* * *

ـ حديثنا الذي دار كان بتفاصيل كثيرة . عن البنادق وأسعارها... مجرد كلام كان كاكا محمد سمعه خلال مناسبة ذات طابع عائلي ، ضمت العديدين من أقربائه ومعارفه الأكراد . واحد منهم ، يدعى كاكا حسن ، كان يمت بارتباط معين بأحد مساعدي الزعيم الكردي الملا مصطفى...

سليمان يتدخل :

ـ من هنا جاء ارتفاع السعر!

حاكم يؤكد :

ـ وخطورة العملية!

ثم يكمل :

ـ بسبب من خلاف حول مطالب الحكم الذاتي للأكراد بدأ الملا مصطفى يستعد لإعلان المقاومة المسلحة .

* * *

حاكم أقنع كاكا محمد .

ـ الخطة محكمة .

وان دور الأخير مجرد وساطة . تسليم واستلام . وان المسؤولية الناجمة ـ لو حدث ما لم يكن بالحسبان ـ تقع على حاكم وحده .

ـ ... هناك أكثر من سابقة سطو على مقرات الحرس . سأقوم بصفتي مسؤول المقر بتهريب أربع قطع . أسلّمك إياها ، حتى إذا ما جاءتني إشارة منك تفيد أنك سلّمت واستلمت أقوم بالتبليغ عن وقوع حادثة سطو .

الكاكا يبدي قلقه :

ـ بهذه السهولة ؟!

حاكم لا يتردد :

ـ فيما يخصني مُستعد أواجه كافة النتائج اللاحقة... لا بأس أتهم وقتها بالتقصير ، بالإهمال ، بعدم الكفاءة... أعاقب بالطرد ، بالسجن... المهم ننجز الموضوع .

* * *

ـ رهان خطير!

قال سليمان ، فوافقه حاكم :

ـ أو لعبة قمار .

سليمان يستغرب التشبيه ، حاكم يواصل :

ـ كاكا محمد طلب مهلة عشرة أيام يحاول خلالها يتصل بكاكا حسن إن أمكن ، ومن جانبي استكثرت الطلب ، اقترحت عليه يختصر المهلة .

ـ وافقك ؟

ـ بدا وكأن لا خيار لديه ، لعل ذلك يعود إلى سذاجته وطيبته المفرطة... صار طرفاً في اللعبة .

سليمان بحافز مشاكسة :

ـ غسلت له دماغه!

حاكم لا يتوقف عند تعقيب سليمان .

ـ كل الذي طلبه... اشترط عليّ أن تكون المرة الأولى أخيرة .

ـ وعدته ؟

سليمان يسأل وحاكم يجيب :

ـ وعدته .

هامش من الشك لدى سليمان :

ـ وثق بك ؟

ـ وأكثر .

أجاب حاكم ، وأضاف :

ـ عرفت كيف أحقق لديه هاجس الإنجاز ، صارت القضية ـ بالنسبة إليه ـ قضيته بقدر ما هي قضيتي .

سليمان يحرك رأسه دلالة التفهم .

ـ لعبة المغامرة!

حاكم يخبّر :

ـ بعد يومين عرفت من كاكا محمد أن الاتصال حصل ، والموافقة على إبرام الصفقة قائمة ، وأن الشيء الوحيد المتبقي هو تحديد موعد وكيفية التسليم .

* * *

استعداداً للإسراع بإنجاز الصفقة قام حاكم بتهريب قطع السلاح ـ واحدة واحدة ـ خارج المقر ، لينتهي بها المطاف إلى غرفته الخاصة في بيته ، وفي غفلة من أمه وأخويه قام بتفكيك القطع .

« الحذر والحيطة »

جاء بصندوق خشبي مما يخصص لحفظ التمور . وضع قطع السلاح مرتبة مرصوصة في قاع الصندوق ، ليغطي كل ذلك بالتمر .

« الحيطة والحذر »

أحكم إغلاق الصندوق بلوح خشبي . البضاعة جاهزة للتسليم .

بناءً على اتصال مسبق مع كاكا محمد كان اتفاق التسليم الساعة العاشرة ليلاً على مقربة من محطة وقود للسيارات .

ـ كيف لي أعرف الرجل فأسلّمه الأمانة ؟!

تساءل حاكم ، فطمأنه كاكا محمد :

ـ سأكون برفقته . نجيء معاً بسيارة صغيرة زرقاء .

* * *

فجأة يكف حاكم عن الحديث . سليمان ينتظر منه مواصلته .

ـ لماذا سكتّ ؟!

حاكم يتعلل :

ـ تأخر الوقت... الفجر أوشك .

سليمان يلح :

ـ ليكن!

ـ تصر تسمع حتى النهاية ؟

ـ أصرّ!

ـ لكنها نهاية غبية وسخيفة!

ـ ليكن .

حاكم يضطر يفلت زفرة تسليم يفضي كمن يريد يتخلص بأسرع وقت :

ـ الصندوق الخشبي المموه بالتمر... وصلت المكان المتفق عليه قبل الموعد بدقائق . طفقت أنتظر . الصندوق عند قدمي . القلق ، وخشية حدوث أيما طارئ .

* * *

الأمور كلها بدت عادية طبيعية . محطة وقود السيارات على مقربة . إضاءة الطريق خافتة . في الوقت المحدد اقتربت سيارة صغيرة تبدو وكأنها تزمع تقف . دقق حاكم نظره فيها . لونها أزرق .

« المخاطرة قاربت تنتهي! »

السيارة تمر متباطئة قربه . كاكا محمد يجلس في المقعد الأمامي إلى جانب سائقها « كاكا حسن » . السيارة تتباطأ أكثر . تقف على بعد أمتار .

« مزيد من الحيطة »

كاكا محمد وكاكا حسن يترجلان . يقتربان .

« تسليم واستلام »

يتصادف مرور سيارة دورية .

« وحدة مرور عادية »

وقوف السيارة الصغيرة في مكانها ذاك يلفت نظر رجال الدورية . سيارتهم تبطئ سيرها . تتوقف ما وراء الأولى .

« مهمات روتينية! »

كاكا حسن يهمس لحاكم محذراً :

ـ يجب نتصرف بشكل طبيعي!

حاكم يومئ برأسه مستجيباً ، في الوقت الذي بدت فيه دلالاتِ الجزع على وجه كاكا محمد .

ـ ضعنا!!

ردد بصوت مفزوع . كاكا حسن يهمس له يزجره :

ـ تمالك أعصابك!

أحد رجال الدورية يترجل . يقترب متسائلاً :

ـ لمن هذه السيارة ؟!

وفي اللحظة ندّت عن كاكا محمد أنّة مخنوقة . ما كان احتمل فكرة اقتراب رجل الأمن . انتفض كما الملسوع ، قبل أن ينفلت راكضاً هارباً بأقصى ما يستطيع من سرعة ، وسط ذهول كل من حاكم وكاكا حسن .

* * *

سليمان يعقب :

ـ رد فعل غير متوقع بالمرة!

حاكم كمن يدين نفسه :

ـ المراهنة على السذاجة والطيبة لها ثمنها .

يصمت لثوان مسترجعاً زمنه :

ـ مشكلة كاكا محمد أنه كان طيباً على نياته . لم يسبق له يمر بخبرة محددة .

ـ ماذا عن كاكا حسن ؟

ـ كاكا حسن تصرّف بذكاء عجيب .

سليمان يهتم يسمع .

ـ ... خلال ثانيتين لا غير ألمّ بالموقف المستجد ، وتصرف على أساسه .

* * *

مع اقتراب رجل الدورية ـ الذي تفاجأ بهروب كاكا محمد ـ رفع كاكا حسن صوته صارخاً :

ـ « حرامي! »

يده تشير إلى حيث يركض كاكا محمد . رجل الدورية يبادر إلى صفارته . ينفخ فيها ، ليسارع يركض بأثر الهارب . رجل الدورية الآخر... « السائق »... يترجل على عجل . يقترب :

ـ ما الذي يحدث ؟!

كاكا حسن يجيب بكلمات أرادها تكون غير مترابطة .

ـ سيارتنا... حرامي... الصندوق...

رجل الدورية لا يفهم عليه ، يعيد سؤاله بحدة غاضبة :

ـ ما الذي يحدث ؟!

كاكا حسن يستمهله :

ـ لحظة واحدة من فضلك!

ليتوجه نحو سيارته .

ـ تعال هنا!

صاح به رجل الدورية ، في اللحظة التي ركب فيها الآخر سيارته .

ـ تعال هنا!

كرر رجل الدورية صيحته الآمرة ، عندما انطلقت سيارة كاكا حسن مُسرعة مخلفة سحابة غبار كثيفة ، فما كان من رجل الدورية إلا أن سحب مسدسه في وجه حاكم :

ـ ما الذي يحدث ؟!

* * *

ـ حركة ذكية فعلاً .

ردد سليمان . في حين واصل حاكم :

ـ أنا والصندوق بقينا في عهدة رجل الدورية ، وحتى لا يفاجأ الأخير بهروب جديد ، سارع يلقي قبضه علي .

ترتسم على فمه ابتسامة راثية .

ـ ... بعد دقائق جيء بكاكا محمد مخفوراً يتصبب عرقاً وفرقاً ويأساً .

سليمان لا يعقب بشيء .

ـ الأمور لا تحتمل التأويل... ما هذا الصندوق ؟!... كاكا محمد علي كردي من أصل كردي...

صوت حاكم يأخذ دلالته :

ـ الأمور لا تحتمل التأويل... ما مدى علاقتك بالمتمردين في الشمال ؟!

صوته يؤكد دلالته :

ـ لو لم أكن مسؤول مقر حرس!!... لو لم تكن الأسلحة ـ حسب أرقامها المثبتة ـ ضمن عهدتي الشخصية!!

سليمان لا يعقب بشيء .

ـ الأمور سبقت بعضها . السيارة الصغيرة الزرقاء عُثر عليها صباح اليوم التالي في مكان مهجور قرب المعقل ، وليسْ من أثر لسائقها .

ـ ...

ـ الاتهام الموجّه إليّ بشقين . الأول منهما أو الثاني... يؤدي إلى الإعدام .

يكف عن استرساله ، يتوجه لسليمان بسؤال مباشر يتضمن عتباً مريراً :

ـ ماذا تريد تسمع أيضاً ؟!

سليمان يكتفي من الرد بالصمت . ما سمعه كفاه . شحنة الحزن تفوق الاحتمال ، وليس من المشاركة بمكان يرثي حال حاكم لحاكم يقول له... ماذا ؟!... الصمت!

* * *

الحركة ـ ما وراء ساتر نافذة السرداب ـ تبدأ تدب . هو الفجر .

ـ هل تذكر ليلتنا الأخيرة مع هادي ؟

صوت حاكم يبدد صمت السرداب ، فاستجاب سليمان :

ـ أذكرها .

شعور بالمودة المشبعة بحنين أسيان يُحس في لهجة حاكم :

ـ كنا ساهرناه حتى الصباح .

حاكم ـ كما أدرك سليمان ـ بصدد يفصح عن فكرة ما ، فتطلّع فيه منتظراً .

ـ أنت أيضاً...

قال حاكم ، وأضاف بعرفان يتضمن محبة وافرة :

ـ ... ساهرتني حتى الآن .

سليمان يكتفي من الرد بالصمت . في الحين الذي تردد فيه صدى آذان الفجر مسموعاً من خارج...

١٩

ما حدث أمس يحدث اليوم . في الصباح يُفتح الباب الحديدي للسرداب . يُطلّ منه وجه رجل شرطة .

ـ جاهزون!

رغم كونهما واصلا ليلتهما بنهارها بدا حاكم نشيطاً .

ـ مستعد أتقبّل صيغة الحكم دون أدنى أسف .

أصرّ يؤطر فمه بابتسامة دالة على ثقته بنفسه ، ليُبقيها هناك ، مُعللاً تصرفه بقوله :

ـ مادمت عاجزاً عن التحكم بالمقدور فيجب أكون عند مستوى الحدث .

« ما الذي يقوله سليمان ؟! »

هذا الشعور الحاد بمرارة الفقدان يترسّب كثيفاً تحت لسانه . حاكم يمتلك حقه يقولب مشاعره... المصير معروف ، قادم ، لا محالة...

الشرطيان اللذان رافقاهما أمس يرافقانهما اليوم . القيدان هما... هما... السيارة الجيب...

ـ ستذكرني بالخير!

وما دار في ذهن سليمان يرد بكلمة . مدخل مبنى المحكمة يزدحم برجالهم . في الداخل زحمة أشد . الأبواب المغلقة تؤدي إلى قاعات متعددة .

ـ من هنا!

وافترقا . حاكم وشرطيه المرافق ولجا باباً ، بينما اقتيد سليمان حيث قاعة أمس .

* * *

الضباط . الشرطة . قفص الاتهام . المصفودون . برودة الشتاء في الخارج ، أما هنا... في التو تذكّر سليمان أن سماء الأمس ـ حين غادر مبنى الإدارة العامة للأمن ـ كانت ملبّدة بغيوم رمادية ، عكس حالها اليوم ، لعل انشغال ذهنه بردود أفعال حاكم أنساه ملاحظته .

ـ محكمة!

تردد في الأرجاء صوت جهوري ، فتأهبت القاعة . القضاة الثلاثة يدخلون .

ـ باسم الشعب نفتتح الجلسة .

* * *

الوقت يمر متباطئاً . قضية واحدة من قضايا اليوم « تهريب عُملة » استغرقت من الوقت زهاء ساعتين .

« في القفص! »

محاطٌ بحشد من الوجوه المذعورة .

« ـ إن كانت أقوالك كلها صحيحة سيفرج عنك »

هذا ما قاله قاضي الوسط أمس . التصور ترجمة للأمل . والأمل...

« اليوم! ».

الدلائل تشير ، لكن الذي يقلق سليمان هو سليمان نفسه . المنحى العام لشخصيته . سلوكه . مشاعره . الكيفية التي سيكون عليها تعامله مع الآخرين فيما يستجد .

« شخصية السجين »

طبيعة التواجد مع ناس بعينهم ، الساعة بالساعة . اليوم باليوم... الشهر... السنة... ضمن ظرف اعتقال ، وفي مكان محدد المساحة... سرداب . كل هذه

تقتضي تحقق نمط من السلوك والعادات... تبدأ طارئة ، لتتكرس ، فتصبح جزءاً من الشخصية ، إن لم تكن الشخصية كلها .

يدري أن تغيرات محددة طرأت على هيئته ، وزنه ، ويجزم أن أهله ، أصدقاءه ، نجوى ـ لو جرى إطلاق سراحه الآن ـ لن يجدوا صعوبة بالتعرف عليه ، لكنهم ـ والحالة هذه ـ يتعرفون على الشكل والهيئة ، أما الشخصية الحقيقية باستجاباتها وردود أفعالها...

« شخصية السجين »

هذا الكم الهائل من الحقد إزاء صيغة الظلم الواقع عليه . والذي لا يدري كيف يوجهه...

ـ سليمان يوسف!

« ليس سواه! »

النهار كان تناصف ـ القفص خلا إلاّ منه . القاعة خلت إلا من القضاة الثلاثة ، وعدد محدد من رجال الأمن .

« الوقت أزف! »

قاضي اليسار يمد يده بالملف إلى قاضي الوسط . الأخير ـ وهو يتناول الملف ـ يشير إلى رجل الأمن المكلف .

ـ جئنا بالمتهم هنا... عند المنصة .

« مثلما حدث أمس »

حتى إذا ما جيء به ليواجه المنصة ، أسمع قاضي الوسط صوته للحاجب :

ـ الضابط الذي طلبناه كي يدلي بشهادته!

الحاجب يخبّر :

ـ موجود... بانتظار أوامركم سيدي .

ـ دعه يدخل!

ـ أمرك سيدي .

* * *

بعد دخول الضابط وتأديته تحيته العسكرية سأله قاضي الوسط ويده تشير إلى سليمان :

ـ هل تعرف هذا المتهم!

الضابط يلتفت إلى سليمان . يحدّق فيه . نظرات الضابط ـ كما أدركها سليمان ـ قلقة مستريبة ، لكنها ـ في الوقت ذاته ـ خالية من أيّما هاجس تعرّف أو تذكّر .

«لعله عامل الزمن! »

أو التغيرات التي طرأت على هيئة سليمان ، عدا كثرة الوجوه التي تمر بالضابط يومياً بحكم مهنته .

ـ لا ... سيدي .

أجاب الضابط جازماً . القضاة الثلاثة يتبادلون نظراتهم بينهم . شعور بالقلق يبدأ يسيطر على سليمان . خشي أن تُواجه قضيته بمنعطفٍ جديد يزيدها غموضاً . لو تركوا أمره له لعرف كيف يذكّر الضابط بشخصه .

ـ أنت متأكد ؟

القاضي اليسار يسأل الضابط ، ومن غير أن ينتظر إجابته يمدّ يده إلى الملف . ينتزع ورقة . يدفعها باتجاه الضابط ، رادفاً سؤاله بآخر :

ـ من الذي حرر هذه الصحيفة الجنائية ؟

الضابط يدنوِ من المنصة . يأخذ الورقة . يمعن نظره فيها . يغمغم مُبدياً حيرة :

ـ أنا كتبتها!

ليعود يتطلّع في سليمان متفحصاً إياه لثوان ، قبل أن تُضاء ذاكرته .

ـ الآن تذكرت!

القاضي الوسط يعود يسأل :

ـ تعرفه ؟

فجاءت إجابة الضابط :

ـ لا أعرفه شخصياً .

القاضي يتطلع فيه منتظراً توضيحاً ، ليأتي استطراد الضابط بما يعني إخلاء طرفه :

ـ ... واحد من المتهمين الذين أحيلوا إلينا من جهة اختصاص أخرى .

القاضي يبقى يتطلع فيه منتظراً توضيحاً أكثر ، فيتبدى على وجه الضابط انطباع بالحرج .

ـ ... تعرفون يا سيدي طبيعة عملنا... في اليوم الواحد ـ أحياناً ـ تُحال إلينا عشرات القضايا...

اليسار يتدخل :

ـ ما هي قضية هذا المتهم ؟

صوت القاضي المعني لا يخلو من حدة مقصودة . الضابط وقد تملّكته الحيرة ، يعود يدقق في الصحيفة الجنائية التي حررها قبل ما يزيد على العام .

ـ لا أعرف!

يردد بصوت يشوبه هامش خجل ، في الحين الذي بادره فيه قاضي اليمين :

ـ التهمة الموجهة إليه... ما هي ؟

لكن إجابة الضابط تؤكد :

ـ لا أعرف!

القاضي الوسط يتدخل :

ـ لماذا أمرت باعتقاله... إذن ؟!

سليمان وقد شمله ذهوله يتابع مأخوذاً .

« هذه المنعطفات غير متوقعة... »

القضية تتحول من سليمان كمتهم إلى الضابط .

« الأمور لا تحتمل!! »

وما يخشاه حدّ الجزع :

«أن يتحول التحقيق إلى الضابط!»

فيُعاد سليمان إلى سردابه بانتظار كشف الغموض، ليبقى هناك سنة أخرى... الضابط يجيب كمن يدافع عن نفسه :

ـ أنا لم أصدر أمر اعتقالهُ!

قاضي اليسار يحاججه :

ـ ما قولك بالصحيفة الجنائية ؟

الضابط يبدو وكأنه حوصر . يجهد يتذكر . قبل أن يتداعى يتذكر :

ـ سيدي... أنا موظف مأمور... الذي حدث أني ، في اليوم الذي حررت فيه هذه الصحيفة ، وصلت مكتبي ، فوجدت فيه حقيبة سفر...

الوسط مبدياً استغراباً :

ـ حقيبة سفر ؟!

الضابط يجيب :

ـ تخصَ المتهم .

القاضي يحوّل نظراته إلى سليمان . الأخير يوضح :

ـ ليلة وصولي من الكويت ، كنت في طريقي إلى بيتي ، حقيبة ملابسي و...

القاضي وقد فهم الحالة ، يسكته بإشارة من يده ، يعود بنظراته إلى الضابط ، مما يدعو الأخير يتم :

ـ كان المتهم اعتُقل ليلتها من جانب وحدة خاصة أمن ثورة!

القاضي يسأل :

ـ استناداً إلى ماذا ؟

الضابط مبدياً حيرة :

ـ لا أدري!

القاضي يحاجج :

ـ لكنك حررت له صحيفة جنائية ؟!

مرة أخرى يبدو الضابط وكأنه حوصر .

ـ تدرون يا سيدي... الصلاحيات الممنوحة لنا إزاء مهام أمن ثورة محددة ، تنحصر في الإجراءات التنفيذية حسب ، وتتمثل في إحالة المتهم إلى جهة الاختصاص... الإدارة العامة للأمن .

القاضي اليسار يبدي ملاحظة :

ـ جهة الاختصاص... بناء على تقريرها المرفق ليس لديها اتهامات معيّنة توجهها إلى المتهم... ما قولك ؟

الضابط بعد مهلة تفكير قصيرة :

ـ لا قول لدي .

الوسط يتدخل :

ـ من هم أفراد وحدة أمن ثورة الذين قاموا باعتقال المتهم ؟

الضابط بتسليم :

ـ لا أعرف .

ثم أكد :

ـ وليس من حقي أعرف .

اليمين يأخذ زمام السؤال :

ـ خلال تأديتك واجبك... هل صادفتك حالات اعتقال ذات دوافع كيدية ؟

ـ نعم .

أجاب الضابط وبدا عليه أنه يهم يكمل ، فشجعه الوسط بحركة من رأسه ، ليكمل :

ـ ... وكنا نواجه صعوبة في إثباتها .

اليسار يعود يسأل :

ـ ما مدى احتمال أن يكون اعتقال المتهم ناتجاً عن دوافع كيدية ؟

الضابط وقد وجد فرصة مساهمة إيجابية :

ـ الاحتمال وارد .

القاضي الوسط يساهم :

ـ توخياً منا للعدالة طلبنا تزويدنا بصحيفة سوابق المتهم ، وجاءنا الرد... المتهم بلا سوابق... ما قولك ؟

طيف ابتسامة حائرة يأخذ بفم الضابط .

ـ لا قول لدي .

فيعاوده القاضي ذاته بلهجة من يهدف يحسم الموقف :

ـ بصفتك الضابط المسؤول عن تحرير صحيفته الجنائية... هل لديك قضية محددة ضد المتهم تستدعي احتجازه ؟

الفرصة سانحة للضابط يُخلي طرفه :

ـ ليس لدي .

سليمان بإحساس من قاب قوسين ، وقاضي الوسط يقول للضابط :

ـ بإمكانك تنصرف .

للوهلة الأولى بدا الضابط وكأنه لا يصدّق .

ـ شكراً لكم سيدي .

ردد لاهجاً ، قبل أن يؤدي تحيته العسكرية ، ليبتعد بخطوات عجلى .

* * *

صدى وقع خطوات الضابط يتلاشى . القاعة خالية إلا من القضاة ورجل أمن واحد . الأمل يتفرّع في صدر سليمان .

« هل أزف الوقت ؟! »

عيناه تتابعان المنصة بلهفة .

« لعله زمن الإطلاق! »

القضاة الثلاثة يقاربون رؤوسهم من بعضهم . يتدارسون قرارهم . القاضي الوسظ يعد نفسه . منطوق الحكم :

ـ بناءً على الصلاحيات الممنوحة لنا... استناداً إلى الفقرة... من المادة... من قانون الأحكام العرفية...

سليمان يكف يتنفس . وصوت القاضي يتواصل مسموعاً واضحاً :

ـ ... ونظراً للقناعة المتوفرة لدى هيئة المحكمة... قررنا حفظ القضية الخاصة بالمتهم سليمان يوسف ، ونأمر بإطلاق سراحه .

سليمان يسمع ، وفي اللحظة أحس بركبتيه ترتجّان . سبق وعانى مثل هذه الحالة لحظة اعتقاله عند الدروازة .

« كيف ؟! »

سؤال عاجز يلحّ على ذهنه . حالة من العجز العاتي تنتاب رجليه . كان غير قادر يتحكم بجسده . ساقاه تتقوسان .

« مفروض بي... »

كان على الأرض .

* * *

« للعجز وقت! »

كيف لجسده يتحكّم به عكس إرادته ؟!

« للفرح وقت! »

شتان ما بين مواجهته حالة اعتقال كابوسية ، وتوقعه سماع حريته!

« لالتحام الحياة بالحياة وقت! »

الهيئة القضائية غادرت . خُيّل إليه أن قاضي اليسار حدجه ـ أثناء انصرافه ـ بنظرة متعاطفة .

« لنجوى... الأصدقاء... الأهل... البيك... »

وفي اللحظة التي مدّ فيها رجل الأمن يده يساعده ينهض شُحنت ذاكرته :

« حاكم!! »

رجل الأمن يخبره زاجراً :

ـ أسرع!... الساعة جاوزت الواحدة!

ـ حاضر .

يجري اقتياده خارجاً .

«المحكمة أمرت...»

لكن القيد مايزال يكبله .

«لماذا لا يُفك ؟!»

تجرأ سليمان فقال للشرطي :

ـ المحكمة أمرت بإطلاق سراحي!

لتأتي إجابة الشرطي دالّة على أن الأمور بالنسبة إليه سيّان :

ـ أعرف .

حزّ في نفس سليمان أنه وحده . وحيّره أن تراتب أحداث اليوم بقي كما هي حاله أمس .

* * *

لدى الاقتراب من السيارة الجيب وقعت عينا سليمان على حاكم ، كان جالساً مُلقياً رأسه إلى وراء ، مُطبقاً جفنيه .

«هل هي النهاية ؟!»

من أين لسليمان يجمع بين نقيضين... شعوره بالفرح إزاء الحرية المنتظرة ، وبين حتمية مصير حاكم ؟!

ـ حاكم!

قالها سليمان ، فطرف الآخر بجفنيه ، قبل أن يفتحهما عن عينين غائرتين ، أقرب لأن تكونا ميتتين .

«هي النهاية!»

يقينية التوقع ، وصوت الشرطي يأمره :

ـ اصعد!

* * *

حين جلس سليمان إلى جانب حاكم قال له الأخير بصوت أسيان :

ـ أنا هنا منذ العاشرة!

ثم أضاف مبدياً اهتماماً :

ـ لماذا أخروك ؟!

ـ طبيعة الإجراءات .

الاهتمام باق مع حاكم :

ـ متى موعد جلستك التالية ؟

إجابة سليمان لابد لها تتحدد :

ـ لا جلسة تالية .

رد فعل باللهفة يأخذ وجه حاكم :

ـ كيف ؟!

سليمان يوضح :

ـ أمروا بإطلاق سراحي .

رد فعل لاهف يصدر عن حاكم :

ـ صحيح ؟!

لحظتها خيّل لسليمان أن الحياة عادة تنبعث في عيني حاكم . شُحنة من فرح حقيقي تنبعث عنهما . كفّاه ـ رغم قيدهما ـ تتحولان إلى كفّي سليمان .

ـ كما توقعت!!

ردد حاكم بوازع من نشوة ، فجاءت استجابة سليمان عفوية :

ـ وأنت ؟

عينا حاكم تعودان تنطفيان . كفّاه تتشنجان على كفي سليمان .

ـ كما توقعت!!

رددها بصوت مخذول هذه المرة .

«الفقدان في زمان الفرح!»

وما كان لسليمان يفاجأ .

* * *

عندما تحركت السيارة الجيب سالكة طريقها باتجاه مبنى الإدارة العامة للأمن تنبّه سليمان إلى أن السماء ـ بعدما كانت خالية من أيّما أثر للغيوم

صباحاً ـ عادت وتلبّدت بغيوم سوداء كثيفة . الرياح الباردة تهب رطبة ، وخلال ثوان زخ المطر .

حاكم ـ على أثر توقفهما عن الحديث ـ عاد إلى وضعه السابق مُلقياً رأسه وراء ، مطبقاً جفنيه .

« كيف للحياة تتشكل عبر مجموعة مصادفات تصنع أحداثها ، وأحداث تتمخض عن جملة مصادفات ؟! »

ما قبل السرداب ، وما بعده ، ويبقى زمن السرداب مغفلاً معلقاً في المابين .

« الحرية التي أمروا بها... »

من أين يجيء الفرح ؟!

« الأهل . الأصدقاء . نجوى... »

ـ مسألة وقت وإجراءات...

« وقت للإجراءات! »

المطر يزخ بأشد .

ـ ماذا تريد تقول لي ؟

كانت نجوى سألته كما لو أنها تباغته . فوجد نفسه يقولها عفو الخاطر :

ـ أحبك!

كان المطر في أنشودة المطر ، وحين وجه سؤالاً لحاكم ذات مرة :

ـ هل تعرف الشاعر بدر شاكر السياب ؟

أجابه حاكم :

ـ أعرف بيتهم .

ما الذي تعنيه مشاعر الصداقة لدى فقدان الصديق ؟!

« لم يصدق الوعد »

السيارة الجيب تواصل طريقها في المطر .

« أتعلمين أي حزن يبعث المطر ؟! »

تحين منه التفاتة ناحية حاكم .

ـ عندما تلتقي بهادي...

قال ، وترك جملته مفتوحة . جفنا حاكم يطرفان . يفتح عينيه . من أغوارهما ينبعث شعاع أمل .

ـ تعتقد ؟!

سؤاله يتضمن قلقه . سليمان يتم من حيث توقف :

ـ ... بلّغه تحياتي!

أحد الشرطيين المرافقين يُبدي امتعاضه :

ـ الكلام ممنوع!

حاكم ينتفض وكأنه مُسّ... يحدج الشرطي بنظرة حاقدة وهو يغمغم من بين أسنانه :

ـ إخرس!

الشرطي لا يصدق ما سمعه .

ـ ماذا قلت ؟!

تساءل باستغراب رافض ، وهو يهم يرفع يده ، فانتفض حاكم مستوفزاً :

ـ إحذر!

صوته بشراسة لا تقبل الشك . كفّ الشرطي تبقى معلقة في الهواء . يقينية الرد العنيف من جانب السجين واردة . سليمان ـ وسط ذهوله من رد فعل حاكم ـ يتطلع في وجهه راجياً .

ـ حاكم!!

برهة قصيرة مشحونة بالتوتر قبل أن يسيطر حاكم على انفعاله . يخاطب الشرطي بصيغة سؤال لا إجابة له :

ـ ما الذي تنتظره من إنسان محكوم بالإعدام ؟!

الشرطي ـ وهو مايزال نهب حالة انشداهه ـ ينقل نظراته إلى وجه زميله . الآخر يومئ له برأسه أن :

ـ لا بأس! »

يد الشرطي ترتخي . جسد حاكم يستكين . يعود يُلقي رأسه إلى وراء مُطبقاً جفنيه . غصّة مفاجئة تأخذ بحنجرة سليمان . الآن فقط أدرك ماذا يعني حكم الإعدام .

* * *

الساعة تقارب الثانية ظهراً ، لكن ازدحام السماء بالغيوم السوداء ولّد إحساساً باقتراب الليل . المطر مازال يزخ .

حين كان سليمان صبياً كان يكره يُرغم يذهب إلى المدرسة في الصباحات المطيرة . كان يعشق يتسلل إلى ضفة شط العرب . يجلس بمواجهته . يراقب قطرات الماء تتلاحق تسيط السطح المستوى لمياه الشط ، ليبدو وكأنه منخل شاسع بآلاف الثقوب الفوّارة .

« عيناك غابتا نخيل... »

وكانت نجوى قالت جازمة :

ـ أنا بانتظارك!

صوتها يتضمن وعدها ، لكن زمن الانتظار جاوز السنة .

« ولا خبر! »

ما يحزّ في النفس :

« من يضمن من ؟! »

التحول وارد . فكّ ارتباط الوعد وارد . وأن يتحول سليمان إلى مجرد ذكرى موغلة البعد في مخيلة نجوى وارد .

« من يضمن من ؟! »

مبنى الإدارة العامة لأمن البصرة يقبع كئيباً تحت المطر . السيارة الجيب تتوقف .

ـ إنزل بسرعة!

رددها أحد الشرطيين المرافقين بحقد واضح ، بعد أن بقي هو وزميله

ملتزمين صمتهما طوال الطريق .

«رد الفعل الانتقامي من جانب رجال الشرطة تجاه حاكم وارد!»

* * *

العتمة تتكاثف في الممر أمام باب غرفة الضابط . الشرطي الذي يحمل أوراقهما أشار لهما :

ـ انتظرا!

«لم يبق سوى القليل جداً!»

في اللحظة التي توارى الشرطي وراء الباب ندّ عن حاكم صوت هامس :

ـ أظننا سنفترق الآن!

سليمان ـ وهو يتطلع فيه ـ لا يجد ما يرد به ، وحاكم يواصل بصيغة من يوصي :

ـ لي طلب واحد!

لا وقت للتعبير عن الحزن .

ـ ما هو ؟

ـ أن تجد مهلة من وقتك . تذهب إلى جيكور...

سليمان يحرك رأسه دلالة استعداده للتنفيذ .

ـ ... لن تجد صعوبة بالاستدلال على بيتنا... إسأل عن أمي ، فإن رأيتها...

ولا يكمل . صوت الضابط من الداخل يرتفع طالباً :

ـ سليمان يوسف!

يرافقه ظهور الشرطي من الباب مُخبَراً :

ـ الضابط يطلبك!

سليمان يتطلّع في وجه حاكم مغلوباً على أمره . حاكم يومئ له ما معناه : «أدخل... وحين تخرج...»

* * *

غرفة الضابط بعتمة أقل . النافذة مشرّعة . تيّار الهواء البارد يعبر النافذة

إلى الباب الموارب ، يغلقه .

ـ المحكمة حكمت بحفظ قضيتك ، وإطلاق سراحك .

لهجة الضابط ـ وهو يدلي ـ إخبارية حيادية .

ـ ... بامكاننا نفرج عنك اليوم .

معنى هذا أن أمره مرهون بهم... مازال!

ـ ... فكّ قيده!

الضابط أصدر أمره إلى شرطيه . الشرطي يبادر يمتثل . يدا سليمان تتحرران . معنى هذا أن زمن الإطلاق...

ـ مطلوب منك شيء واحد!

قال الضابط بلهجة اشتراطية ، واستطرد :

ـ ... كفالة شخصية .

سليمان وقد فوجئ :

ـ لماذا الكفالة... ماداموا حكموا ببراءتي ؟!

ابتسامة دالّة ترتسم على فم الضابط .

ـ هناك فرق بين حفظ قضية متهم ما ، وبين الحكم ببراءته!

اللوعة في تساؤل سليمان :

ـ لكن...

لكن الضابط يقطع عليه استرساله بوازع لا يخلو من شفقة :

ـ الكفالة الشخصية إجراء روتيني عادي ، لن يستغرق سوى دقائق .

كان في بال سليمان يستوضح كيفية وصوله إلى الكفيل المعني ، لولا مبادرة الضابط :

ـ لديك فسحة وقت حتى الساعة الرابعة .

فسحة الوقت محددة . مطلوب من سليمان يتصرف .

« كيف ؟! »

قبل مغادرته مكتب الضابط حانت منه التفاتة خاطفة نحو النافذة

المشرعة . المنظر الذي يراه يحفر الذاكرة .

السيارة الجيب واقفة . المطر بأشد . حاكم يبذل جهداً خائراً يرتقي مؤخرة الجيب ، واثنان من رجال الشرطة يتناوبونه ركلاً .

«لم يمهلوه!! »

٢٠

إثر مغادرة سليمان مكتب الضابط جرت إحالته إلى مكتب العريف المناوب :

ـ ما الذي ستفعله بخصوص كفالتك ؟

العزيف سأله ، فكان أن أجابه سليمان حائراً :

ـ لا أدري!

شعور بالامتعاض يبان في صوت العريف :

ـ ألم تصادفك طوال حياتك إجراءات كفالة شخصية ؟!

ـ لا .

العريف يحدّق فيه متشككاً ، قبل إطلاق سؤاله :

ـ لديك أهل... أو أقرباء ؟

ـ لدي .

العريف يجد الحل .

ـ واحد منهم يكفلك .

حيرة سليمان تحاصره . من أين للعريف سهولة اقتراحه ؟!

ـ ... سنيسّر الأمر عليك .

قال العريف ، وأضاف :

ـ ... يرافقك أحد رجالنا لعند أهلك... تعود برفقة كفيل .

« من أين للعريف سهولة اقتراحه ؟! »

بعد انقطاعه لسنوات سبع في الكويت خبّر سليمان أهله :

« ـ أنا قادم في يوم كذا »

كانوا مؤهلين ينتظرونه . لولا اعتقال الدروازة .

« ـ ... يوم كذا »

وبعد اختفاء غامض تجاوز العام يتوجه سليمان إلى بيته . يرافقه شرطي ما ، يقف على الباب...

« ـ أحتاج كفيلاً! »

ما أدراه ماذا ترتب على اعتقاله ؟!... ما أدراه عن سير الأحداث خلال سردابه ؟!... ما أدراه أن أباه أو أخاه...

على افتراض أنه وصل . على افتراض أن أهله هناك . على افتراض أمه هي التي جاءت تفتح الباب...

« ـ سليمان!! »

العريف باق يتطلع فيه ينتظر رده . مطلوب منه يتخذ قراره .

ـ أهلي يسكنون منطقة نائية .

قال سليمان واجداً عذراً للرفض ، إضافة إلى أن التوجه إلى باب الهوى والعودة منه يستدعي انتقالاً ووقتاً ، وفسحة الزمن التي منحها الضابط له...

ـ في هذه الحالة...

كلمات العريف واضحة محددة :

ـ نُبقيك محتجزاً لدينا ريثما...

« لا مفر إذن! »

حاكم راح ، وفكرة أن يحتجز سليمان وحده في السرداب... وهذا التساؤل العاجز :

« لماذا الكفالة ؟!... لماذا الاعتقال أصلا ؟! »

ليأتي اقتراح العريف :

ـ هل لديك واحد من معارفك أو أصدقائك يمكنك الوصول إليه ؟

* * *

«الأصدقاء بإمكانية أكبر على التفهم»

سليمان والشرطي المرافق يجلسان في المقعد الخلفي للسيارة التكسي .

«رد فعل الصديق أقرب إلى المعقولية من رد فعل الأم أو الأب»

كان سليمان قد طلب من العريف :

ـ بإمكاني أستأجر سيارة تكسي . نذهب بها إلى الكفيل بدلاً من سيارة الجيب!

«المفاجأة ستكون بوقع أخف»

العريف وافقه طلبه .

مصطفى... أول ما تبادر إلى ذهن سليمان . ليلته الأخيرة ـ ما قبل السرداب ـ في بيت مصطفى . روحه الفكهة وحميمية ارتباطهما كصديقين ، يعزز ذلك استعداده الفطري للمغامرة .

«أن تكفل إنساناً ما يعني أن تضمنه... تصير مسؤولاً تحضره بالسرعة اللازمة للجهات الرسمية حال طلبه ، وإن عجزت تفعل فالسرداب...»

المطر كان توقف نهائياً . الأشجار بدت مبللة نظيفة لامعة إزاء أشعة الشمس الشتائية ، في الحين الذي امتلأت شوارع البصرة بالأوحال اللزجة جرّاء كثافة مياه الأمطار واختلاطها بالأتربة المتراكمة .

ـ من هنا!

أشار سليمان للسائق ، فانعطفت السيارة من الشارع الرئيسي ـ عشار معقل ـ لتدخل شارعاً فرعياً ، يتغلغل وسط بيوت صغيرة بنيت حديثاً .

ـ استدر يميناً!

السائق يستجيب ، ومن جانبه حاول سليمان يتذكر الاسم المستحدث للمنطقة ، لكن ازدحام ذهنه...

«السيارة ستتوقف بعد قليل»

ماذا لو أنه ترجَل . توجه إلى الباب . طرقه . ليفاجأ :

«ـ مصطفى ليس هنا! »

واحتمال آخر... أن يكون مصطفى موجوداً . يتبدى الإحراج في وجهه .

«ـ آسف يا سليمان!... الكفالة الشخصية مسؤولية خطيرة ، وأنا... »

قلقه بحجم توقعاته .

ـ هنا .

فتوقفت السيارة .

* * *

يطرق الباب . المصادفة أن يُفتح الباب ليواجه مصطفى . منذ ليلته الأخيرة ما قبل السرداب مصطفى هو الأول من بين كل الذين يعرفهم .

لهفة اللقاء يخالطها قلق التوقع . الخطر يحدّق فيه . يضيّق فتحتي عينيه ، لتندّ عنه صرخة فرح غامر :

ـ سليمان!!

يفتح ذراعيه على امتدادهما . كان مايزال مرتدياً بيجاما ، وبخطوة أقرب لأن تكون قفزة ، كان سليمان في أحضانه .

ـ لا أصدق!

غمغمه بصوت مخنوق وهو يعانقه . العمر كله ـ بما فيه زمن السرداب ـ يتجلى اللحظة .

الكلمات عاجزة ترتبط ببعضها تؤدي غرض التواصل . إحساس هائل بالحزن . بالضياع . بدفق فياض من فرح العبور إلى الحياة .

ـ مصطفى!... أنا...

ولا يكمل . الآخر ، من غير أن يفلت ذراعيه عنه ، يبعد رأسه قليلاً كي يراه .

ـ أين كنت يا رجل ؟!

سؤاله بعتب مرير .

ـ أنا...

ردد سليمان بصوت هابط ، وأكمل مستضعفاً :

ـ ... أحتاج كفيلاً!

مصطفى يتنبّه إلى السيارة التكسي ، إلى الشرطي الواقف عندها .

ـ حالاً .

قال بقرار قطعي ، واختفى داخلاً .

« ذلك هو! »

وما وجد سليمان تفسيراً يناسب حالته . المرة الأولى في حياته يتحول فيها فرحه إلى رعدة عجيبة هزت كيانه كله . مسامات جلده تتنمل . شعر جسده... حتى فروة رأسه . نشوة آسرة لم يعهدها من قبل .

« ذلك هو! »

كان يصغي لحاكم وهو يتحدث عن أحمد . الصداقة كعطاء دون سؤال جميلة ، أما أن تكتشفها عندك ، بنفسك...

حاكم... لا أسف ، مادام عاش حياته بأبعادها الحقيقية كافة . وسليمان بإحساس من وُلد الآن .

مصطفى ـ لدى استجابته العفوية الفورية ـ لم يتبادر إلى ذهنه سؤال :

« ـ لماذا الكفالة ؟! »

الإنقطاع الطويل... وحده يدعو للاستغراب ، وها هو مصطفى ينفلت خارجاً محاولاً استكمال تثبيت ربطة عنقه .

ـ هيا بنا!

* * *

السيارة تتحرك بصعوبة جراء كثافة أوحال الطريق . مصطفى لا يتردد يطوّق كتف سليمان بذراعه ، جالساً لصقه .

ـ أخيراً!

ردد بارتياح متطلعاً ناحية الشرطي ، لينقل عينيه إلى سليمان كأنه

يصرّح له :

« لست مطالباً تُعقّب بشيء »

وجود مصطفى معه حقق لديه شعوراً فقده منذ ما يزيد على سنة... الاطمئنان .

المحنة التي يمر بها أوشكت . حادثة الدروازة . الاعتقال . السرداب... كل هذه مجرد ذكريات موغلة في البعد ، متصلة بالحدث الآني عبر وشيجة انتقالية...

« الآن! »

الشوارع الموحلة . السيارة . الشرطي . مصطفى . الكفالة... أحسّ كما لو أن أحداث حياته تزاحمت...

« الآن! »

المحاكمة . القضاة الثلاثة . أقوال ضابط مخفر... حفظ القضية... الأمر بإخلاء السبيل .

« ـ كما توقعت! »

قالها حاكم لدى سماعه خبر سليمان... حريته .

« ـ كما توقعت! »

قالها حاكم وهو يعني خبر إعدامه .

« ـ ما الذي تعنيه لك الصداقة ؟! »

طوال زمن السرداب اقتصرت طلبات حاكم :

« ـ معك خمسة دنانير! »

فلما حلّ الحسم وأزمع يطلب طلباً وعداً :

« ـ تذهب إلى جيكور... تسأل عن بيتنا... أمي... »

لم يمهلوه . الوصية الوعد بقيت معلقة... ناقصة . سيذهب سليمان إلى جيكور . سيسأل . سيستدل . سيواجه أم حاكم :

« ـ أنت أم عظيمة! »

سيضيف :

« ـ لديك ابن رائع... حاكم »

الاجتهاد في مثل هذه الوصية وارد . شعور المرارة تحت اللسان وارد .

« أنت لا تفقد صديقاً كل يوم »

مصطفى يجلس لصقه . رغم هذا تملكته رغبة يلبد عنده أكثر .

* * *

العريف المناوب بدا متعاوناً . حال وصولهم باشر إجراءات الكفالة . طلب إثبات شخصية الكفيل ، فبادره مصطفى ببطاقته الشخصية .

ـ إثبات عنوان العمل والسكن...

بعد دقائق أشار العريف إلى مكان في أسفل ورقة الكفالة .

ـ وقّع باسمك الكامل وإمضائك!

قال لمصطفى فاستجاب الأخير ، حتى إذا أدى ما طُلب منه وجّه سؤاله للعريف :

ـ تسمحون لنا بالذهاب!

ـ ليس الآن .

أجاب العريف ، وأكمل :

ـ الضابط خرج في مهمة خاصة ، حال عودته سيعتمد الكفالة ، سنسلمكم جواز سفر المتهم وحقيبته ، ثم...

يحزّ في نفس سليمان :

« يحكمون بالحرية ويبقون على النعت... المتهم »

العريف يضم محضر الكفالة في ملف أمامه . يشير إلى الباب :

ـ بإمكانكم الانتظار في الممر لحين عودة الضابط .

* * *

يقفان في الممر . الساعة كانت جاوزت الرابعة مساءً . العتمة ، وهذا الإحساس القاتم بقدوم الليل .

الضابط لم يعد بعد . سليمان يراوح بين رجليه من خلال وقفته مسنداً ظهره إلى الجدار . ليس من شعور بالقلق . وجود مصطفى إلى جانبه كفيل...

يعاني من إحساس بالتعب . هو لم يعتد الوقوف مدة طويلة . زمنه في السرداب كان موزعاً ما بين جلوس ونوم . وإحساس آخر بالعطالة .

السرداب هناك ، ماوراء انعطاف الممر . البارحة وما قبلها... حتى ظهر اليوم كان مع حاكم ، وحاكم...

ـ وأنا أفتح الباب فوجئت بوجودك!

مصطفى يجد مدخلاً للحديث .

ـ ... عانيت صعوبة بالتعرف عليك .

سليمان يتطلع فيه مصغياً .

ـ ... هيئتك تغيرت .

يبتسم .

ـ ... ربما بسبب لحيتك الكثة .

يضيف :

ـ غيابك الطويل أقلق الجميع .

سؤال خاطف يبرق في ذهن سليمان :

ـ أهلي ؟!

مصطفى يفهم المعنى المتضمن للسؤال .

ـ لا جديد . كل شيء على حاله ، عدا جزعهم جراء غيابك .

تند عن سليمان زفرة ارتياح . تفزعه فكرة يفاجأ بحدوث ما لا...

ـ الأصدقاء ؟!

ثانية يفهم مصطفى .

ـ الأصدقاء أيضاً لا جديد ، عدا...

وكف عن الكلام ، فاستعجله سليمان لاهفاً :

ـ عدا ماذا ؟!

ابتسامة ماكرة ترتسم على فم مصطفى .

ـ عدا ظاهرة المرأة الجميلة التي كانت تتردد علينا بزيارات دورية...

يترك جملته مفتوحة . سليمان يستغربه :

ـ امرأة جميلة!... زيارات دورية!

ابتسامة مصطفى الماكرة تكبر على فمه .

ـ لبنانية تدعى نجوى .

طائر الفرح يفرد جناحيه في صدر سليمان . يخفق .

«الوعد وعد!! »

قلقه اللذيذ يغالب لهفته .

ـ زيارتها الأخيرة متى كانت ؟!

فيطمئنه مصطفى :

ـ منذ يومين .

اجتاحته رغبة أن يعانق مصطفى ، لكنها الإدارة العامة للأمن ، وذاك الشرطي الواقف عند باب مكتب الضابط .

عدا هذا...

قال مصطفى ، وترك جملته مفتوحة بمكر مقصود ، مما حدا بسليمان يستعجله :

ـ ماذا ؟!

مصطفى يقطّع جملته إلى كلمات منفصلة لإظهار مدى أهميتها :

ـ المرأة الجميلة نجوى عرّفت أهلك بنفسها على أنها خطيبتك .

لا مكان للإحساس بالتعب ، لا مكان للإحساس بالمكان... الفرح هو المكان .

ـ صحيح ؟!

تساءل سليمان كمن لا يكاد يصدق ما يسمع ، ليسمع رد مصبطفى متخذاً صيغة احتجاج :

ـ أنا الذي يجب يسأل!

سليمان يعجز يرد . والآخر يعتب :

ـ نحن آخر من يعلم!

«للفرح قدرته على بعث الدموع ، والحزن... »

كان في بال سليمان يخبّر ، لكنهم لم يمهلوه . صادروه وهو على مرمى خطوات من أهله . ليلته الأولى في البصرة كانت زاخرة بالأصدقاء ، وبعدها...

حاكم وهادي وحدهما عرفا نجوى بالقدر الذي عرفها به سليمان . كان مفروضاً بهادي وحاكم يشاركانه فرحه بمبادرة نجوى لدى إعلانها نفسها لأهله ، لكن مجريات الأحداث لم تمهلهما .

ـ تدري...

قال مصطفى بمحبة ، وواصل :

ـ رغم ما عانيت فأنت محظوظ!

إن كان القصد هو المواساة... مصطفى لم يعايش أناساً مثل هادي أو حاكم . مصطفى لم يعرف بعد ما الفقدان بمضمونه القطعي . مصطفى لم...

لحظتها أخرج مصطفى علبة سجائره من أحد جيوبه . أخذ سيجارة . وضعها في فمه ليواجه بطلب :

ـ أعطني سيجارة!

يستغرب على سليمان طلبه .

ـ بدأت تدخن ؟!

رد سليمان يأتيه قطعياً :

ـ كثيرة هي الأمور التي بدأتها .

* * *

شمس البصرة الشتوية تغرب مع الخامسة . مع السادسة وصل الضابط عائداً من مهمته الخاصة .

ـ جئت بكفيلك ؟

سأل لدى مروره عند سليمان دون انتظار رده ، ثم دخل غرفته .
«لعلها آخر اللحظات!»
بعد دقائق مثل الإثنان ، مصطفى وسليمان ، في حضرة الضابط .
ـ من جانبنا حاولنا المساعدة قدر الإمكان .
قال الضابط كما لو أنه يبلّغ رسالة إثر انتهائه من الاطلاع على محضر الكفالة ، ليعقّب مبدياً شيئاً من الرضا :
ـ الكفالة مستوفية .
يفتح درجاً في مكتبه .
ـ هذا جواز سفرك .
يد الضابط تمتد . يد سليمان تتسلم ، والسؤال الملح على سليمان :
ـ أستطيع أسافر ؟
لتأتي إجابة الضابط مؤكدة :
ـ الآن... إذا شئت .
أنّى له يستوعب حقيقة :
«الكابوس كفّ»
الاعتياد يستلزم وقتاً ، والطريقة التي يصرفه فيها الضابط :
ـ اطلب من العريف المناوب يسلّمك حقيبتك .

* * *

وقفا على الرصيف . الحقيبة بينهما . مصطفى يترصد الطريق بحثاً عن سيارة تكسي . راودت سليمان فكرة يفتح الحقيبة ، يرى إن كانت محتوياتها مازالت ، لكنه سرعان ما استسخف الفكرة .
ـ أعرف أنك مشتاق تذهب لبيتكم فوراً!
قال مصطفى ، واستطرد مشيراً إلى وجه سليمان بلحيته الكثة :
ـ ... إنما مظهرك هذا...
المعنى المقصود مفهوم لدى سليمان . يوافق محدثه بحركة مستسلمة

من رأسه . يواصل إصغاءه .

ـ ... تذهب معي إلى بيتي . تغتسل . تحلق . تستبدل ثيابك . ثم...

الآن ـ بعد الذي كان ـ سليمان في أمان . ولا مانع يترك لمصطفى ـ بصفته كفيله ـ حرية يتصرف .

ـ لعلي أجد فرصة أخبّر الأصدقاء!

سليمان لا يعترض يصغي .

ـ ... من حقهم أن يطمئنوا عليك .

مصطفى لا يني يتحدث ، وسليمان ينشغل بهاجس جديد يزعجه .

« قضيته ـ كما قيل له ـ حُفظت . ماذا لو أنهم عادوا في يوم ما قادم ونبشوها ؟!... وجدوا فيها من الغموض ما يستدعي إعادة التحقيق ؟!... ساعتها سيكون في الكويت... عليكم بالكفيل... إلى السرداب... »

هاجسه يتمخض عن قلقه الخاص به .

ـ أنت كفلتني!

مصطفى يندهش إزاء الإفضاء الجاف الصادر عن سليمان ، ولا يجد بداً من التعقيب المتضمن طابع الفضول :

ـ كفلتك!

سليمان يهدف يترجم فكرة في ذهنه .

ـ دون أن تعرف ما حدث لي!!

مصطفى يطمح يطمئن :

ـ سأعرف .

سليمان يحاجج :

ـ ولا تعرف طبيعة التهمة الموجهة إلي!!

نفاد صبر مصطفى يتبدى في إجابته :

ـ سأعرفها .

مواجهة سليمان تتمثل بسؤال مباشر :

ـ والنتائج المترتبة ؟!
مصطفى يفلت زفرة حائرة :
ـ أتحملها .
لكن إصرار سليمان :
ـ بعد فوات الأوان!!
مصطفى وقد بلغ صبره ضيقه :
ـ إسمع يا سليمان!
ردد بحدة واضحة ، وأضاف بنفس واحد كي لا يمنح محدثه فرصة يقاطعه :
ـ ... أولاً أنا مصطفى... ثانياً لو كنت أنت مشبوهاً أقل شبهة لما أقدموا أطلقوك... ثالثاً إن لم أكفلك أنا يكفلك غيري... رابعاً ـ وهذا ما يجب أن تعرفه ـ شعبنا العراقي كله كافل ومكفول .
« يبدو أن المتغيرات التي عصفت بالساحة خلال زمن السرداب... »
يتطلع في وجه مصطفى بنظرة غائبة . تخف حدة الآخر . يضيف كمن يعتب :
ـ أحرى بك تسألني عن الشؤون التي تخصك!
الفضول في استجابة سليمان :
ـ الشؤون التي تخصني ؟!
مصطفى بعدما نجح يستوقف سيارة تكسي :
ـ عن البيك... مثلاً!

* * *

حين بدأ مصطفى حديثه :
ـ قد لا تصدق...
قاطعه سليمان يطمئنه :
ـ اليوم بالذات مستعد أصدق كل شيء .

السيارة التكسي التي تقلهما تواصل طريقها باتجاه بيت مصطفى . الأخير يواصل من حيث قوطع ، وكأنه لم يسمع تعقيب سليمان :

- ... البيك عانى قلقه الخاص به جراء اختفائك الغامض...

سليمان ينشده . الجميع - كما هو حادث - يعرفون الكثير مما لا يعرفه هو...

«سواء ما يخص نجوى ، أو ما يخص البيك! »

مصطفى يتم مخبراً :

- ... الغريب أن البيك أصرّ على فكرة أنك معتقل ، وأنك مازلت حياً ، عكس ما تبادر إلى أذهان أهلك في البدء .

سليمان يحدق إلى وجه محدثه بفضول مستفز ، ومحدثه :

- ... يُقال إن البيك استخدم نفوذه من هناك لدى جهات عليا هنا بهدف تقصي أخبارك .

« مدعاة الاستغراب! »

مصطفى يكمل :

- ... أغلب الظن أنه عرف طريقه إليك .

« هكذا الحال! »

- ... ولو أنك أمعنت التفكير فيما قاله لنا الضابط قبل قليل...

كلمات الضابط تتداعى لدى سليمان :

« - من جانبنا حاولنا المساعدة قدر الإمكان »

مصطفى يوضّح :

- ... لأدركت أنه ينفذ توصية .

« أو يبلّغ رسالة »

مصطفى يواصل يتحدث . سليمان يعود بذاكرته يسترجع . الضابط عندما أرسل بطلبه أول مرة ختم لقاءه :

« - نحن مضطرون نرفع أمرك إلى المحكمة رغم عدم استكمال أوراق

قضيتك! »

محكمة أمس . قاضي الوسط . محكمة اليوم . استنطاق ضابط مخفر...

« ـ هل لديك قضية محددة ضد المتهم تستدعي احتجازه ؟! »

أن تأخذ ما ورد على محمل الجد... ما الذي يدعو البيك يُبدي مثل هذا الاهتمام بمصير رجل فرد يعمل موظفاً عنده ؟!

الاهتمام ـ كفعل ناتج عن ارتباط حميمي ـ مدعاة للاعتزاز والسعادة ، كما هي الحال مع مصطفى... نجوى... حاكم...

« مع البيك الوضع مختلف . اهتمامه ـ لابد ـ نابع من إحساسه بالمسؤولية تجاه خادمه أو تابعه! »

يلتفت إلى مصطفى .

ـ أنت لم ترهن نفسك ضمن صيغة عبودية مقنّعة!!

لهجة سليمان تتضمن منحى إدانة محدثه . السيارة تميل جانباً . تدخل شارعاً فرعياً . مصطفى يندهش من رد فعل سليمان ، في حين عاود الأخير محتداً :

ـ أنت لم تأسرك أفضال أحدهم!

مصطفى بمنحى من يحاول يتفهم :

ـ أنت لا تحب البيك... أعرف هذا... أنا أيضاً للأسباب ذاتها لا أحبه .

يصمت برهة قصيرة جداً ، ويستكمل :

ـ لكني... نظراً لموقفه معك أحترمه .

حاجبا سليمان ينعقدان دهشة . حدّته لم تخف بعد :

ـ تحترمه ؟!

مصطفى يهدف يوضح وجهة نظره :

ـ دعني أسألك... ما الذي يدعو أحدهم... وقد صودرت أملاكه كلها باسم الشعب...

يشير إلى نفسه ثم إلى سليمان مواصلاً :

ـ ... أنا وأنت والآخرون... يلزم نفسه يظل يدفع مرتب أحد موظفيه ما يزيد على السنة ، رغم الاختفاء الغامض لهذا الموظف ؟!

سليمان يردد مشدوهاً :

ـ يدفع مرتّبي ؟!

الإفحام مع مصطفى :

ـ لعند أبيك في بيته .

صوت عجلات السيارة يُسمع لدى اجتيازها رقعة أرض موحلة .

« تلك هي الحال!! »

سحابة حزن قاتم تتكاثف في صدر سليمان . يقول هامساً لنفسه بدافع من حقد وغضب متراكمين :

« يبدو أن الدين الواجب السداد ... »

ولا يكمل مصطفى ـ من غير أن يتنبّه لاحتدام سليمان ـ يرمي إلى تخفيف حدة محدّثه ، يقول مداعباً وهو يطلق ضحكة قصيرة مرحة :

ـ التفسير الوحيد لاهتمام البيك الواضح بك نابع من استفادته منك بصفتك حمار شغل .

* * *

عندما توقفت السيارة التكسي عند بيت مصطفى قال الأخير مستمهلاً سائقها :

ـ انتظر!

ثم التفت إلى سليمان .

ـ بعد قليل ستدخل الحمام . سأغتنم الفرصة... أذهب أخبّر الأصدقاء ، وأعود بأسرع وقت .

سليمان لم يعترض . ذهنه كان مزحوماً بالبيك من جهة ، والمنحى الصدامي الحاد الذي ارتجله لدى تبادله حديثه مع مصطفى من جهة أخرى .

مطلوب منه أن يراقب سلوكه الشخصي وردود أفعاله ، لئلا تغلب عليه

شخصية السجين بصداميتها العفوية .

ـ ممكن!

سأله مصطفى مشيراً إلى الحقيبة ، فاستجاب له .

ـ السلامة!

هتفت له زوجة مصطفى بصوت لاهف حال رؤيتها له . وجهها يشرق بسعادة فيّاضة ، يخالطها إحساس بالتوقع المندهش . كفّها تشدّ كفّه .

ـ ما كدنا نراك...

ولم تكمل . دموعها غالبتها . أفلتت يده ، وسارعت مهرولة إلى الداخل .

«القيمة أن تكون في الأصدقاء »

ـ تدري...

قال مصطفى وصمت . سليمان بهاجس أن محدثه بصدد يطلق ـ كعادته ـ تعليقاً ساخراً ، لكن الذي حدث أن عيني مصطفى بقيتا ثابتتين على فراغ الممر حيث توارت زوجته .

ـ ... النساء يفضلننا قدرة على التعبير عن مشاعرهن .

ردد بلهجة من يحدث نفسه ، قبل أن يلتفت إلى سليمان . يواصل بغضب مقهور :

ـ أنت مجرم!

عيناه تمتلئان بدموع زوجته . صوته يتضمن عتباً مراً :

ـ ... كيف تختفي كل هذه المدة دون خبر!!

واستدار خارجاً .

* * *

يجلس في البهو من بيت مصطفى .

«القيمة أن تكون... »

مصطفى بسبيله يخبّر الأصدقاء .

« زمن شتى . قهر شتى . حب شتى »

يجلس في البهو من...

ـ دقائق ويكون الحمّام جاهزاً!

زوجة مصطفى برقتها العذبة تقول له . تستأذنه . كانت عرفت تستعيد عفويتها .

ـ لا بأس .

عقب ، واكتفى إجابة . وقبل قليل سألته إن كان يحمل ثياباً بديلة في حقيبته .

ـ لا بأس .

رعايتها المشبعة حناناً تُحيله إلى أمه... على زمانهما .

« ما كدنا نراك... »

الشعور الشامل بالسكينة والسلام . الذاكرة وقدرتها العجيبة على التعامل مع الزمن بطريقة الاختزال .

حميمية الانتماء إلى المكان . يجلس في البهو . الليل الشتائي وساعاته الأولى . السكون يشمله عدا صوت حركة زوجة مصطفى يصله قادماً من داخل .

« الذاكرة وقدرتها... »

ليلته الأخيرة ـ ما قبل التحول ـ كانت هنا . الأصدقاء ، وفوضى احتفالهم به بصفته العائد من غيبة .

الإحساس المهيمن أنها البارحة ، وأن الأصدقاء سيدخلون بين لحظة وأخرى يواصلون احتفالهم ، وأن فسحة الزمن ما بين بارحة الماقبل وهذه الليلة ليست سوى زمن مغفل ، يتكاثف ضمن حلم كابوسي متواتر الأحداث .

« ممكن! »

لكن الذاكرة ـ وهي تختزل ـ تتقاطع مع تكوينات مُختزنة... هادي... حاكم... السرداب ، وهذا الحضور المادي لحقيبته الشاهد .

* * *

حدث تلك الليلة

قيل عن سليمان إنه ساهر أصدقاءه حتى الساعة الحادية عشرة . حدّثهم بتفصيل واف عما صادفه زمن انقطاعه ، مغفلاً عن عمد الإشارة من قريب أو بعيد لأي من هادي أو حاكم . شعور حاد تملكه وقتها أن هذين الإثنين يخصانه وحده . بعدها جيء له بسيارة أجرة أقلته إلى حيث مدخل الدرب الزراعية المؤدية إلى قرية باب الهوى . .

قيل أيضاً إن ظلام تلك الليلة كان على أشده ، وإن المطر عاد يهطل بغزارة . قبل وصوله منعطف الدروازة تمخض الظلام المحيط به عن شبحين لرجلين .

ـ قف!!

صرخة حاقدة مكتومة ومقطوعة تنفذ في أذنيه ، وعند الفرجة الكائنة بين عينيه واجهته فوهة مدفع رشاش . لحظتها فقط تبادر إلى ذهن سليمان احتجاج :

ـ أنا لم أصل الدروازة بعد!!

انتهت .

للنشر في السلسلة :

* يتقدم الكاتب بنسختين من الكتاب على أن يكون مكتوباً على الكمبيوتر أو الآلة الكاتبة أو بخط واضح مقروء. ويفضل أن يرفق معه أسطوانة (C.D) أو ديسك مسجلاً عليه العمل إن أمكن.
* يقدم الكاتب أو المحقق أو المترجم سيرة ذاتية مختصرة تضم بياناته الشخصية وأعماله المطبوعة .
* السلسلة غير ملزمة برد النسخ المقدمة إليها سواء طُبع الكتاب أم لم يطبع .

صدر مؤخراً في سلسلة
آفاق عربية

سلسلة آفاق عربية

يحدث أمس.. رواية ليست تسجيلية. ولأنها كذلك أجازت لنفسها اختلاف بعض المسميات والوقائع بما يناسب مرونة الزمن الروائي.

الزمن الفعلى للأحداث عامةً زمن عظيم لا شك. وليس ببال هذه الرواية أن تسيء إليه.

تصميم الغلاف: احمد اللباد

وزارة الثقافة

الهيئة العامة لقصور الثقافة

السعر: ثلاثة جنيهات